

حوارات المستقبل

د. السيد أمين شلبى

مطبوعات
الهيئة العامة لقصور الثقافة
12

مطبوعات
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
ورئيس التحرير
د. مصطفى الرزاز

أمين عام النشر
محمد كشيك

المشرف العام
سمير ندا

مدير التحرير
محمد أبوالمجد

المراسلات باسم مدير التحرير على العنوان التالى
١٦ أ شارع أمين سامى - القصر العينى - القاهرة - رقم بريدى ١١٥٦١

مقدمة

فصول هذا الكتاب(*). هى قراءات فى عدد من الاعمال الهامة التى أثارت عند ظهورها فى السنوات الأخيرة - وما زالت تثير - تيارا من الجدل والنقاش والقلق، سواء فى مراكز ومؤسسات السياسة والدبلوماسية، أم بين الباحثين والمحللين وفى مراكزهم وجامعاتهم. وقد كان ذلك بسبب خطورة القضايا التى تعرضت لها وتأثيرها على أوضاع ومراكز ومستقبل القوى وخاصة تلك التى لها تأثير فى صياغة عالم اليوم وعالم الغد، وتحليلها لهذه الاوضاع فى ضوء خبرات وتجارب قوى عظمى سابقة، ودورات صعودها وسقوطها والعوامل والقوى العسكرية والاقتصادية والتكنولوجية التى كانت وراء ذلك.

وقد جذبت هذه المناقشات الاهتمام بوجه خاص لأنها عكست النقاش الواسع الذى دار ، وما يزال، حول أوضاع الولايات المتحدة الامريكية باعتبار مكانتها وتأثيرها فى عالم اليوم، والتغيرات الاقتصادية والاجتماعية التى تتعرض لها، وإمكانيات احتفاظها بهذا المركز فى المستقبل، واحتمال تعرضها لنفس المشكلات التى واجهتها قوى عظمى سابقة.

(*) نشرت معظم هذه الفصول على مدى السنوات الماضية فى مجلة «الهلال» وجريدة الاهرام.

كما تعرضت هذه الأعمال وما استحدثته من أفكار بل نظريات لعدد من الظواهر الهامة فى حياة البشر مثل ظاهرة الحرب، وهل يوحى انتهاء الحرب الباردة بانقضاء ظاهرة الحروب وخاصة بين الدول المتقدمة؟ بل وذهبت بعض هذه النظريات إلى توقع انقضاء ليس فقط حقبة معينة، بل التاريخ ذاته ببلوغه نقطة حاسمة ونهائية فى تطور البشرية الايدولوجى انتصرت فيها الليبرالية الديمقراطية كشكل نهائى من اشكال الحكم.

وتواصل هذه الفصول ، فى القسم الثانى من الكتاب، رحلتها إلى أقصى الشرق وتركيزا على عملاقية: اليابان والصين، فتراجع ما ظهر من اعمال ناقشت التجربة اليابانية التى ارتفعت بها اليابان على هزيمتها عام ١٩٤٥ وبدأت مع حقب الخمسينات والتسعينات تستعيد قوتها الاقتصادية ومن ثم مكانتها فى العالم حتى وصلت إلى قوة كبرى منافسة.

وتركز هذه المناقشة على ما تثيره الظاهرة اليابانية من اسئلة ليس حول أدواتها الاقتصادية وإنما حول دور المقومات التاريخية والحضارية وخصائص اليابان الروحية والثقافية فى صنع هذا الانجاز.

أما الفصل الخاص بالصين فهو يناقش علاقة هذا الكيان

الجغرافى والبشرى والحضارى الضخم بالغرب، وكيف تصوره الغربيون منذ الفترات الاولى لهذه العلاقة وما هى المصادر التى صاغت هذه الصورة من رحلات واشعار وكتب ودوائر معارف وروايات ووسائل اعلام، وأهم من هذا كيف تأثرت صورة الصين لدى الغرب بتغير النظرة السياسية والثقافية فى الغرب ودوافعه نحو الصين وهى تبدو فى وقت كنموذج، وفى وقت آخر كتحدى.

**ويراجع القسم الثالث من الكتاب مساهمات فكرية - مصرية و عالمية - حاولت تصور صوره العالم، والتفاعلات المتوقعة بين مجتمعاته وحضاراته من خلال رؤية ثقافية، وفى هذا يعرض هذا القسم لمساهمات مفكر مصرى هو الأستاذ السيد يسين وتركيزه فى قراءاته للتحولات التى تحدث فى العالم على النظم والأفكار فى نشوئها وتحولها، كذلك مساهمات مفكر أمريكى هو صمويل هنتجتون ونظريته المدوية عن «صدام الحضارات » ومناقشة أصدائها. ونختم هذا القسم بتصور لمصر وهى مقدمة على عصر جديد بتحدياته وأبعاده الاقتصادية والمعلوماتية والتكنولوجية غير مسبوقة ، وما تملكه من مقومات حضارية للتعامل الايجابى مع هذه التحديات.

د. السيد أمين شلبى

القسم الأول:

★ صعود وسقوط القوى العظمى
★ التحضير للقرن الواحد والعشرين
★ مستقبل القوة الأمريكية
★ امريكا بعيون غربية
★ هل انتهت الحروب؟
★ هل انتهى التاريخ حقا؟
★ روسيا والعالم
★ مفارقات النظام الدولى الجديد

صعود وسقوط القوى العظمى

ربما لم يثر كتاب صدر في الولايات المتحدة في السنوات الأخيرة مثلما أثاره هذا الكتاب الذى وضعه بول كنيدى المؤرخ والاستاذ في جامعة بيل الامريكية، فعلى مدى السنوات الاخيرة ومنذ صدوره وموضوعه محل نقاش واسع وعريض ونادرا ما عقد الكونجرس الامريكى جلسات استماع لمناقشة كتاب مثلما عقدت لمناقشة هذا الكتاب ومؤلفه. بل إن موضوعه وخاصة فيما يتعلق فيه بأوضاع ومستقبل الولايات المتحدة قد استخدمه المرشحون للرئاسة الامريكية فى حملاتهم الانتخابية.

والواقع أن هذا الاهتمام الواسع بهذا الكتاب لم يكن حول استعراضه التاريخى العريض لأوضاع القوى العظمى منذ عصر النهضة ودورات صعودها وسقوطها والعوامل والقوى العسكرية والاقتصادية التى كانت وراء ذلك، إنما كان الاهتمام أساسا حول الفصول التى خصصها لمناقشة القوى العظمى فى عالم اليوم: الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وغرب أوروبا واليابان والصين وبشكل خاص الولايات المتحدة

بوصفها القوة العظمى الأولى منذ ظهور النظام الدولى لما بعد الحرب الثانية والتغييرات العسكرية والاقتصادية التى تتعرض لها اليوم وامكانات احتفاظها بهذا المركز الدولى فى المستقبل.

وباعتبار أن هذا العمل الضخم - الذى خصص له صاحبه سبع سنوات لكتابته - يبحث ويتتبع كيف صعدت وسقطت القوى العظمى عبر القرون الخمسة الماضية فقد كان من الطبيعى أن يعنى بالحروب وخاصة الكبيرة منها، والصراعات التى خاضتها وتحالفاتها وتأثيرها على النظام العالمى، ومع هذا فهو ليس بالتحديد كتابا عن التاريخ العسكرى، كذلك رغم أنه يهتم بتتبع التغيرات التى حدثت فى التوازنات الاقتصادية العالمية منذ عام ١٥٠٠ ومع هذا فهو ليس عملا فى التاريخ الاقتصادى، أما ما يركز عليه الكتاب فهو:

علاقة التأثير المتبادل بين الاقتصاد والاستراتيجية خلال محاولة كل من الدول العظمى دعم قوتها وثروتها لكى تصبح أو تظل قوية وغنية معا.

وعلى هذا فإن الصراع العسكرى الذى يشير إليه عنوان الكتاب الفرعى إنما يدرس دائما فى سياق التغير الاقتصادى، فإنتصار واحدة من القوى العظمى فى الفترة موضع الدراسة أو انهيار أخرى، كان دائما نتيجة حرب طويلة خاضتها قواتها

المسلحة ولكنها كانت أيضا نتيجة الاستخدام الاكثر أو الأقل كفاءة لموارد الدولة الانتاجية فى زمن السلم، وأكثر من هذا للطريقة التى يتقدم أو يتراجع بها اقتصاد الدولة نسبة للدول الكبرى الأخرى خلال الحقب التى سبقت الصرا ع الفعلى.

لهذا السبب تعتبر الدراسة أن كيفية تغير وضع الدولة فى زمن السلم ، هو بنفس أهمية كيف حاربت فى زمن الحرب، ومن هنا كان تركيزها على أهمية الاساس الاقتصادى للبناء العسكرى فتعتبر أن الأمة بدعمها لقواها الانتاجية فإنها ستجد من السهولة تحمل عبء الانفاق على جيوش واسعة وأساطيل فى زمن الحرب، فالثروة مطلوبة لدعم القوة العسكرية كما أن القوة العسكرية ضرورية لحماية الثروة، غير أنه إذا ما تحول جزء كبير من موارد الدولة من عملية خلق الثروة إلى الأهداف العسكرية فإنه من المحتمل أن يؤدى هذا إلى اضعاف القوة القومية على المدى الطويل، وبنفس المعنى إذا ما توسعت الدولة استراتيجيا بغزوها لاقاليم واسعة أو شن حروب مكلفة، فإن المزايا التى يمكن أن تترتب على هذاالتوسع قد يثبت أنها اقل مما بذل فيها من نفقات وهو مأزق قد يصبح حادا اذا ما كانت هذه الدولة قد دخلت فى مرحلة التراجع الاقتصادى ويؤكد الكاتب نظريته تلك بشواهد منذ تاريخ صعود وسقوط قوى

كبرى منذ القرن ١٦ مثل أسبانيا وهولندا وفرنسا والإمبراطورية البريطانية ثم يطبق احتمالاتها القائمة وخاصة على الولايات المتحدة باعتبار انها تمثل القوى العظمى رقم ١ اذا لم توفر لنفسها ظروفا معينة وحيث تظهر هذه الشواهد على المدى الطويل علاقة هامة بين القدرات الانتاجية وخلق الموارد من ناحية وبين القوة العسكرية من ناحية اخرى.

ويدرك المؤلف ما سوف يتعرض له منهجه من نقد من حيث تغليبه للعنصر الاقتصادى والعامل المادى فى تقرير اوضاع القوى العظمى ومستقبلها فيقرر منذ البداية أنه رغم اهتمامه بتتبع الاتجاهات العريضة فى الشئون الدولية عبر القرون الخمسة الاخيرة فإنه لا يقول أن الاقتصاد دائما يقرر كل حدث أو أنه السبب الوحيد فى نجاح أو فشل كل أمة فهناك اسباب أخرى مثل الجغرافيا ، والتنظيم العسكرى، والحالة المعنوية للأمة، ونظام التحالفات، وعديد من العوامل التى يمكن أن تؤثر جميعها فى القوة النسبية لاقتصاديات الدول، إلا أن هذا لا يمنعه من أن يقول إنه مما لا نزاع فيه أنه فى الحروب الطويلة بين القوى العظمى فإن النصر كان فيه دائما حليف الجانب الذى يمتلك قاعدة انتاجية أكثر ازدهارا.

ولأن مركز القوى للدول العظمى قد ساير بشكل وثيق مركزها

الاقتصادى النسبى عبر القرون الخمسة الماضية فإنه مما يجدر التساؤل عنه هو المعانى التى تحملها الاتجاهات الاقتصادية والانتاجية والتكنولوجية اليوم بالنسبة لميزان القوى الحالى وهو فى هذا يبحث فى وضع القوى العظمى لعالم اليوم من حيث عناصر القوى والضعف فى مكوناتها الاقتصادية والانتاجية والتكنولوجية والعسكرية ومدى مساهمة هذا كله فى استمرار وضعها فى النظام الدولى المعاصر كقوى عظمى.

دروس الماضى

غير أن الكاتب قبل أن يفعل هذا يعود إلى التاريخ لكى يستخلص دروسه باعتبار أن أفضل وسيلة لفهم ما ينتظرنا فى المستقبل هو النظر إلى الماضى.. ولكى يرصد القوى الرئيسية التى حكمت عملية صعود وسقوط القوى العظمى، ومن خلال المسح التاريخى لهذه العملية عبر القرون الخمسة الماضية، يستخلص اتجاهين رئيسين:

الاتجاه الاول: أن هناك دائما ديناميكية التغير مدفوعة أساسا بالتطورات الاقتصادية والتكنولوجية التى تؤثر حينئذ على الهياكل الاجتماعية والنظم السياسية والقوى العسكرية وعلى مركز الدول والمبراطوريات على أن سرعة هذا التغير

الاقتصادى العالمى لم يكن على صورة واحدة، ذلك أن مدى التجديد التكنولوجى والنمو الاقتصادى ذاته غير منتظم ومشروط بظروف المكان والمناخ والحروب والإطار الاجتماعى وهكذا، كذلك اختبرت مناطق وتجمعات مختلفة عبر العالم معدلا سريعا أو بطيئا من النمو معتمدة فى ذلك ليس فقط على الانماط المتغيرة للتكنولوجيا والانتاج والتجارة، ولكن أيضا على مدى تقبلها للطرق الجديدة لزيادة ثروتها وانتاجها.

أما **الاتجاه الثانى**: فهو أن هذا المعدل غير المنتظم للنمو الاقتصادى كان له أثر حاسم طويل الأجل على القوة العسكرية النسبية والمركز الاستراتيجى لأعضاء النظام الدولى فلم يكن العالم فى حاجة لأن ينتظر إنجاز لكى يكتشف له أنه لا شىء أكثر اعتمادا على الظروف الاقتصادية من الجيش والبحرية كان هذا واضحا بالنسبة لأمراء عصر النهضة كما هو واضح اليوم لقادة البنتاجون ولإدراكهم أن القوة العسكرية تعتمد على الموارد الكافية للثروة التى تنبع بدورها من قاعدة انتاجية مزدهرة ومن مصادر تمويل صحية ومن تكنولوجيا متقدمة. ورغم أن مؤشرات التاريخ لا تعنى دائما أن الازدهار الاقتصادى يترجم نفسه وعلى الفور إلى فعالية عسكرية تظل الحقيقة أن كل التحولات الكبرى فى التوازنات العسكرية فى العالم كانت تالية

لتغيرات فى التوازنات الانتاجية وأبعد من هذا فإن ارتفاع وسقوط الامبراطوريات المختلفة كان نتيجة لحروب القوى العظمى حيث كان النصر دائما معقودا للجانب الثرى الذى يمتلك اعظم الموارد المادية.

التاريخ والتنبؤ

ماذا تعنى هذه المؤشرات والدروس التاريخية لما سيكون عليه العالم والقوى الدولية على مدى العشرين أو الخمسة وعشرين عاما القادمة؟

يقول الكتاب رغم أن التقديرات حول ما سيكون عليه العالم فى هذه الفترة قد تخطىء فإن هذا لا يمنع من التوقعات التى تستند على التطورات العريضة القائمة الآن. فى هذا الاطار فإنه من المعقول أن نتوقع استمرار واحد من التيارات الواضحة التى تجرى الآن ، ألا وهى صعود منطقة الباسفيك، ذلك أن التطور فيها يقوم على أساس عريض، فهو لا يتضمن فقط اليابان تلك القوة الاقتصادية الضخمة وإنما ايضا العملاق الذى يتغير بسرعة وهو الصين الشعبية وليس فقط تلك الدول المزدهرة والصناعية التى استقرت مثل استراليا ونيوزيلاندا، بل أيضا الدول الصناعية الجديدة التى حققت نجاحا ضخما مثل

تايوان وكوريا الجنوبيـة، وهونج كونج وسنغافورة وكذلك دول مجمـوعة الإسبان ومع امتدادات هذه المنطقة فى الولايات الباسفيكية من الولايات المتحدة وولايات من كندا، وقد شجع النمـو الاقتصـادى فى هذه المنطقة الواسـعة مـزيج سـعيـد من العوامل: من ارتفاع ملحوظ فى الانتاجية الصناعية المتجهة إلى التصدير، الأمر الذى أدى بدوره إلى زيادات ضخمة فى التجارة الخارجية وحركة الملاحة والخدمات التمويلية والتحـول نحو أحدث التكنولوجيا والانتاج الرخيص القائم على العمالة الكثيفة وجهود بالغة النجاح لزيادة الانتاج الزراعى وبشكل أسرع من نمو السكان وقد تداخل كل نجاح من هذا مع الآخر بحيث أنتج فى النهاية معدلا من التوسع الاقتصادى الذى تفوق على توسع القوى الغربية التقليدية، وكذلك مجموعة الكوميكون. لذلك لم يكن غريبا أن يتنبأ أحد الاقتصاديين بثقة أن منطقة الباسفيك لتتخذ بأسرها التى تمتلك الآن ٤٣٪ من مجمـوع الانتـاج العـالمى، سـوف تمـتلك بحلول عـالـم ٢٠٠٠ لـ ٥٠٪ من هذا الانتـاج ويستخلص أن مركز الجاذبية الاقتصادية فى العالم يتحول بسرعة نحو آسيا والباسفيك مكانها كأحد المراكز الرئيسية فى القوة الاقتصادية العالمية.

بالإضافة إلى هذا التطور المتوقع فإنه من المعقول أيضا أن

نفترض أن الحقب القليلة القادمة سوف تشهد استمرارا لاتجاه عريض وإن كان أقل جاذبية ألا وهو الثمن المتصاعد لسباق التسلح الذى سيغذيه ارتفاع أثمان نظم الاسلحة الحديثة، وتزايد المعدات والمنافسات الدولية فقاذفة القنابل ثمنها الآن مائتى مرة ثمنها فى الحرب العالمية الثانية. وهكذا الحال مع أسلحة أخرى مثل الطائرة المقاتلة التى ارتفع ثمنها مائة مرة وحاملة الطائرات عشرين مرة، والدبابات ١٥ مرة مما كانت عليه أثمانها فى الحرب العالمية الثانية.

المدفع والزبد.

فى ضوء هذا التطور الأخير فإنه ما لم يكن هناك عدو يطرق الباب فإن الاتفاق العسكرى فى هذا القرن إنما يثير دائما نقاشا حول قضية المدفع مقابل الزبد، كما يثير وإن كان بشكل أقل علانية، قضية العلاقة السليمة التى يجب أن تقوم بين القوة الاقتصادية والقوة العسكرية، الأمر الذى يثير التناقض بين بحث ما عن الأمن الاستراتيجى بما يتطلبه من اسلحة حديثة، ومن تحويل الموارد واسعة إلى القوات المسلحة وبين بحثها عن الأمن الاقتصادى بما يعنيه من رخاء اقتصادى يعتمد على النمو الذى يتحقق بدوره من خلال أساليب جددة للانتاج وخلق للثروة.

هذا التـوتر بين الهـدفـين: الامن الاسـتـراتيـجى والأمن الاقتـصادى ربما يأخذ شكلا حادا فى نهاية القرن العشـرين بسبب وجود نماذج حققت نجاحا بارزا واختارت وركزت على الأمن الاقتصادى وخاصة فى أسيا مثل اليابان وهونج كونج وأقطار مثل سويسرا والسويد والنمسا التى تؤكد سياستها الخارجية على العلاقات السلمية والتجارية، ونتيجة لهذا فقد عملوا على خفض الاتفاق الدفاعي ولكن فى الشكل الذى يتفق مع المحـافظة على السيـادة الوطنيـة وبهـذا تتـحـرر المـوارد الاقتصادية وتوجه للانفاق الداخلى والاستثمار الرأسمالى ومن ناحية أخرى هناك الاقتصاديات التى صُبغت بالصبغة العسكرية مـثل فـيـتنام وجنوب شـرق آسـيـا وايران والعـراق واسـرائيل وجيرانها والاتحاد السوفيتى نفسه وجميعهم قد خصصوا أكثر من ١٠٪ من مجموع انتاجهم القومى للانفاق العسكرى كل عام حيث يعتقدون بشدة أن هذه المستويات من الانفـاق ضرورية لضمان الأمن العسكرى والغايات السلمية.

بين هـذين النمـوذجـين من الدول التـجارية والدول المـحـاربة يوجد القدر الأكبر من دول العالم والتى ليست مقتنعة أن العالم آمن بما فيها الكفاية وبشكل سمح لها بخفض انفاقها الدفاعى ولكنها فى نفس الوقت لا تشعر بالاطمئنان للثمن الاقتصادى

والاجتماعى العالمى للانفاق على الدفاع وتدرك أن هناك علاقة ما بين الامن العسكرى القصير الاجل وبين الامن الاقتصادى الطويل الآجل.

من أجل هذا يصبح التحدى الضخم الذى يواجه معظم - إن لم يكن كل - النظم فى العالم، تحديا ذا ثلاثة وجوه:

(أ) بضمان القدر الكافى من الأمن العسكرى

(ب) بإشباع الحاجات الاقتصادية والاجتماعية لمجتمعها

(ج) بضمان النمو المستمر.

ويبدو تحقيق هذه الوجوه الثلاثة وفى فترة زمنية متصلة أمرا بالغ الصعوبة، ومع هذا فإن تحقيق الهدفين الاول والثانى مع اهمال الهدف الثالث وهو النمو إنما سيؤدى إلى تراجع نسبى على المدى الطويل وهو ما كان مصير المجتمعات والقوى التى تمت بشكل بطىء وفشلت فى التوافق والتكيف مع ديناميكية القوى العالمية.

عند هذه النقطة يتجه الكاتب إلى وجهته الرئيسية وهى: التساؤل عن امكانات القوى الخمس الكبرى فى عالم اليوم على مواجهة هذا التحدى ذى الوجوه الثلاثة، وكيف ستتمكن من معالجة التوتر الكامن بين متطلباتها وإلى أى حد تستطيع - وخاصة القوتين العظميين - الاحتفاظ بمكانتيهما وهى

مقبلة على القرن الواحد والعشرين بفروضه وتحدياته.

غير أن الكاتب قبل أن يبحث فى امكانات كل قوة ينبه بوجه عام إلى أنه ليس هناك حل كامل لهذا التوتر بين الأوجه الثلاثة وربما كان أفضل ما يمكن تحقيقه هو ابقاء الأهداف الثلاثة فى تناسق تقريبي غير أن التوصل إلى هذا التوازن سوف يتأثر بشكل كبير بالظروف القومية الخاصة وليس بالتحديد النظرى للتوازن فالدولة المحاطة بجيران معادين سترى أنه من الافضل لها أن تخصص جانبا من مواردها للأمن العسكرى أكثر من الدولة التى لا تشعر بتهديد عسكر مباشر، والدولة الغنية بالموارد الطبيعية ستجد من الممكن أن تلبى احتياجات الزبد والمدفع معا، والمجتمع الذى يتجه إلى النمو الاقتصادى واللحاق بالآخرين سيكون له أولوياته المختلفة عن ذلك الذى يقف على حافة الحرب، فالجغرافيا والسياسة والحضارة تؤكد جميعا أن الحل الذى ستتبعه دولة ما لن يكون بحال هو الحل الذى تتبعه دولة ما أخرى ومع هذا يبقى المبدأ الرئيسي:

أنه بدون توازن تقريبى بين المتطلبات الثلاث الدفاع والاستهلاك والاستثمار، فإنه من غير المحتمل أن تحافظ قوة عظمى على مكانتها لمدة طويلة.

قد لا تبدو الاهداف الثلاثة المتصارعة: من تحديث للسلاح والاستجابة للاحتياجات الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع والحاجة إلى توجيه كل المصادر المتاحة إلى مشروعات انتاجية غير عسكرية قد لا تبدو أكثر وضوحا وضغطا مما تبدو اليوم فى الصين. والتى هى فى نفس الوقت افقر الدول الكبرى وأكثرها حرجا من حيث الموقع الاستراتيجي غير أنه إذا كانت الصين تعاني من صعاب مزمنة فإن قيادتها الحالية تبدو أنها تطور استراتيجية كبرى أكثر تماسكا في مجموعها وفى تطلعها إلى المستقبل من تلك التى تطبق في موسكو أو واشنطن أو طوكيو ودعك من أوروبا الغربية

وفى الوقت الذى تبدو فيه الضغوط المادية على الصين عظيمة فإن هذه الضغوط تواجه بتوسع اقتصادى إذا ما استمر فإنه يعد بنقل الصين نقلة كبرى فى حب قليلة.

وتبدو نقاط ضعف الصين معروفة جيدا سواء كانت دبلوماسية أو استراتيجية من حيث القوى التى تحيط بها سواء كانت اليابان أو الاتحاد السوفيتى (السابق) أو حتى الولايات المتحدة رغم الجسور التى قامت بينها وتواجه الصين هذا

الوضع فى وقت ليست فيه على نفس القوة العسكرية والاقتصادية للقوى التى تواجهها. ورغم الحجم العددى لجيش الصين فإن اسلحته ومعداته ليست إلا صورا محلية للنماذج الروسية والغربية واقتصاديا ما زالت الصين تبدو مختلفة كثيرا عن المستويات المتقدمة فدخل الفرد فيها يبلغ ٥٠٠ دولار مقارنة بـ ١٣,٠٠٠ دولار فى كثير من الاقطار المتقدمة.

ومع احتمال تزايد سكان الصين من بليون إلى ١,٣ بليون عام ٢٠٠٠ فإن إمكان زيادة كبيرة فى الدخل الفردى قد لا تكون كبيرة يضاف إلى هذا صعوبة حكم هذه الدول الكبرى سكانيا وجغرافيا والتوفيق بين القوى المختلفة . الجيش والحزب والديمقراطية، الزراع وتحقيق نمو بدون اثارة غليان اجتماعى وايدولوجى.

سجل مؤثر

غير أنه رغم هذا كله فإن مؤشرات الاصلاح والتقدم الذاتى فى الصين خلال السنوات الثمانية عشر الماضية تبدو مشجعة جدا وتوحى بأن عهد دنج سياو بنج قد ينظر إليه يوما ما بالشكل الذى رأى فيه المؤرخون عصر كولبرت فى فرنسا أو المراحل الأولى لحكم فردريك أو اليابان فيما بعد عصر الميجى أى

الدولة التى تجهد نفسها لتطوير قواها (بكل معانى الكلمة) وبكل الوسائل العملية موازنة الرغبة فى تشجيع المشروع الخاص والمبادرة والتغيير بتصميم من الدولة على توجيه الاحداث حتى تتحقق الأهداف الوطنية بأقصى درجة من السرعة والهدوء.

هذه الاستراتيجية تتضمن القدرة على رؤية كيف ترتبط الجوانب المتصلة لسياسة الحكومة بعضها ببعض، وهى لهذا تتضمن توازنا على درجة كبيرة من الدقة الأمر الذى يتطلب أحكاما دقيقة فيما يتعلق بالسرعة التى يمكن أن تتحقق بها هذه التحولات بشكل آمن ومقدار الموارد التى يمكن تخصيصها على المدى الطويل مقابل احتياجات المدى القصير وتنسيق احتياجات الدولة الداخلية الخارجية وأخيرا وليس آخرا فى دولة مازال لها نظام ماركسى معدل وبالشكل الذى تتصالح فيه الايدولوجية مع التطبيق ورغم أن صعابا قد حدثت وصعابا أخرى من المحتمل أن تثور فى المستقبل فإن سجل ما تحقق حتى الآن هو سجل مؤثر.

ويبدو مثل هذا السجل المشجع مثلا فى الطرق المختلفة التى تتحول بها القوات المسلحة الصينية وخاصة بعد اضطرابات الستينيات ، فخفض عدد الجيش من ٤,٢ مليون جندى إلى ٣ ملايين هو فى الواقع دعم لقوته الفعلية ويصاحب

هذا تحديث واسع المدى للأسلحة الصينية وكذلك الأسطول وما هو أكثر تأثيرا بالنسبة لظهور الصين كقوة عسكرية عظمى السرعة غير العادية لتقدم التكنولوجيا النووية ففي بداية الثمانينات اختبرت الصين الصاروخ العابر للقارات CBMبمدى يصل إلى ٧ آلاف ميل وهو النطاق الذى لا يضم فقط كل من الاتحاد السوفيتي بل أجزاء من الولايات المتحدة وبعد هذا بعام اطلق أحد صواريخها ثلاث سفن فضاء الأمر الذى يدل على تقدم تكنولوجيا الصواريخ متعددة الرؤوس النووية. ورغم أن معظم قوات الصين النووية هى قوة أرضية وذات مدى متوسط أكثر منها ذات مدى طويل فإنه قد أضيف إليها الصاروخ العابر للقارات وربما كانت أهم خطورة (فيما يتعلق بالردع النووى) هو ظهور اسطول من الغواصات الحاملة للصواريخ فمنذ عام ١٩٨٢ والصين تختبر صواريخ بالستيكية تطلق من الغواصات كما تعمل على تحسين نطاقها ودقتها كما أن ثمة تقارير حول تجارب صينية بأسلحة نووية تكتيكية.

عنصر الوقت

كل هذا تدعمه ابحاث واسعة النطاق فى الحقل الذرى ورفض لتجميد برنامجها النووى من خلال اتفاقيات دولية تحد منه حيث

ترى أن هذا سوف يساعد فقط القوى العظمى الأخرى غير أن هذا التطور فى القوة العسكرية الصينية لا يعنى غياب عناصر الضعف فهناك دائما التخلف فى عنصر الوقت بين انتاج نظام ما من السلاح وبين اتاحته بكميات كبيرة بعد اختبارها وعدم استبعاد النكسات بما فى ذلك احتمال انفجار غواصة صينية حين كانت تحاول اطلاق صاروخ أو إلغاء أو ابطاء برنامج للتسليح والافتقار إلى الخبرة فى فروع معينة مثل محركات الطيران المتقدمة والرادار والملاحة ومعدات الاتصالات، كل هذا يعوق تقدم برنامج الصين نحو مساواة حقيقية مع الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة هذا فضلا عن عنصر التمويل الذى جعلها غير قادرة على التخطيط للحصول على كل فروع التسلح أو أن تعد نفسها لكل تهديد متصور ورغم هذا فإن القدرة العسكرية الصينية تعطيها نفوذا أكبر مما كان لها بحيث أصبح من غير المتصور أن يتمكن الاتحاد السوفيتى مثلا من تدمير نظم الصواريخ الصينية الأرضية قبل أن تكون الصين قادرة على الانتقام.

على أن أهم المظاهر لقوة صينية محاربة على المدى الطويل إنما تكمن فى موضع آخر فى النمو السريع الملحوظ لاقتصادها والذى يجرى خلال الفترة القليلة الماضية فالواقع

أنه مع نهاية السبعينات كان الاقتصاد الصناعي الصيني من الاتساع إن لم يكن أوسع مما كان عليه الاتحاد السوفيتي أو حتى اليابان عام ١٩٦١ علما بأن هذه الفترة دخلت فيها الهزات الاقتصادية والاجتماعية وانسحاب السوفيت وغليان الثورة الثقافية وما لم تحدث هذه الاحداث لكان النمو الصيني أسرع في مجموعه وهو ما يؤكد حقيقة أنه عبر السنوات الخمس الماضية من اصلاحات دنج سياو بنج حققت الزراعة نموا قدره ٨٪ والصناعة ١٢٪ على أنه ولدرجة كبيرة يظل القطاع الزراعي هو فرصة الصين ونقطة ضعفها فيحث تشكل الزراعة أكثر من ٣٠٪ من مجموع الناتج القومي الصيني وتوظف ٧٠٪ من سكانها فإن أي تصدع أو حتى انخفاض في هذا القطاع سيمثل عائقا للاقتصاد بأسره مثلما حدث في الاتحاد السوفيتي وهو التحدي الذي يضاعفه القنبلة السكانية الموقوتة. فالصين الآن تحاول اطعام بليون شخص يعيشون على ٢٥٠ مليون هكتار من الأرض الصالحة للزراعة (مقابل ٤٠٠ مليون هكتار في الولايات المتحدة الـ ٢٣٠ من السكان) فهل ستستطيع أن تطعم ٢٠٠ مليون صيني آخرين مع حلول عام ٢٠٠٠ بدون اعتماد متزايد على استيراد الطعام.

إنه من الصعب الاجابة الواضحة على هذا السؤال الحرج

ذلك أن الخبراء يقدمون شواهد مختلفة، فبينما تدهورت صادرات الصين الزراعية التقليدية عبر الحقب الثلاث الماضية وأصبحت عام ١٩٨٠ وبشكل وجيز جدا مستوردا صافيا فإنه من ناحية أخرى تكرس الحكومة الصينية موارد علمية ضخمة لتحقيق الثورة الخضراء علي النمط الهندى ويشجع دفع الاصلاحات المعتمدة على السوق على زيادة كبيرة فى اثمان السلع الزراعية دون تصدير هذا الارتفاع إلي المدن. الأمر الذى أدى إلى ارتفاع ضخم فى انتاج الطعام خلال نصف الحقبة الماضية منذ ١٩٧٩ إلى ١٩٨٣ حين كان معظم العالم يعانى من الركود الاقتصادى رفع الـ ٨٠٠ مليون صينى الذين يشتغلون بالزراعة من دخولهم بـ ٧٠٪ بحيث انتج الصينيون عام ١٩٨٥ ١٠٠ مليون طن زيادة من الحبوب عما فعلوه فى حقبة ماضية وهو ما يمثل واحدة من اكثر الموجات الانتاجية التى سجلت حتى الآن.

أما اندفاع الصين نحو الصناعة فهو أكثر أهمية وإن كان أكثر حساسية اذا أخذنا فى الاعتبار الأوضاع الداخلية فالتقدم فى الصناعة لم يعوقه فقط الافتقار للقوة الشرائية وإنما أيضا سياسات التخطيط المغالي فيها على النمط السوفيتى إلا أن إجراءات التحديث فى السنوات الأخيرة قد أدت إلى ارتفاعات

مؤثرة فى الانتاج كما أدت أيضا إلى بعض المشكلات فقد أثار ما خلقته من عشرات الآلاف من المشروعات الخاصة بايدولوجيا الحزب كما أدى ارتفاع الاسعار إلى شكوى عمال المدن ورغم هذا فإن معدلات النمو المخطط لها ٧,٥٪ ورغم انخفاضها (١٠٪) فإنها سوف تضاعف مجموع الناتج القومى للصين فى أقل من عشر سنوات ومن العوامل التى ستساهم فى هذا بشكل بارز، فإن آلاف العلماء من الصينيين الذين ذهبوا إلى الولايات المتحدة والغرب مع نهاية السبعينيات سيقدمون للصين مع عام ١٩٩٠ كادرا علميا قادرا وسينفذون هم وغيرهم الذين سينفذون فى الداخل برنامجا لجعل التكنولوجيا الصينية الصناعية فى مستوى أفضل المستويات العالمية على الأقل فى مجالات النشاط الاستراتيجى.

على أن من أكثر الجوانب اللافتة المرتبطة باندفاع الصين نحو التقدم هو التحكم الصارم فى نفقات الدفاع حتى لا تستهلك القوات المسلحة المصادر المطلوبة فى مجالات أخرى. ومن وجهة نظر دنج فإن الدفاع يجب أن يظل فى المرتبة الرابعة من التحديثات الأربعة بعد الزراعة والصناعة والعلم ورغم صعوبة الحصول على الأرقام الحقيقية حول الانفاق الدفاعى الصينى فإنه من الواضح أن النسبة المخصصة من مجموع

الناتج القومى للقوات المسلحة قد انخفضت خلال الخمسة عشر عاما الأخيرة من ١٧,٤٪ عام ١٩٧١ إلى ٧,٥٪ عام ١٩٨٥ ويعتبر هذا الاتجاه من اكثر المؤشرات دلالة على التزام الصين بالنمو الاقتصادى وهو ما يقف على نطاق واضح من سيطرة عقدة الامن العسكرى على الاتحاد السوفيتى والمبالغ التى تخصصها ادارة ريجان للقوات المسلحة . هذا الاختيار الصينى يعكس اعتقاد بكين أن الأمن العسكرى على المدى الطويل سوف يتأكد حين يتضاعف انتاج الصين وثروتها.

ما هو تأثير هذه السياسات الداخلية على سياسة الصين الخارجية والدولية على العكس مما كان يتعلق به «ماو» ومن توتر اقليمى ودولى تفضل الصين الآن الاحتفاظ بعلاقات سلمية مع جيرانها حتى مع هؤلاء الذين تنظر إليهم بشك فالسلام شىء جوهرى بالنسبة لاستراتيجية دنج الاقتصادية فالصين وقد حققت قدرة صناعية معقولة تستطيع الآن أن تركز أكثر على التطور الاقتصادى أما علاقاتها مع موسكو وواشنطن فقد اتبعت بكين فى السنوات الأخيرة سياسة مدروسة وانتهت إلى أن الوضع النموذجى هو أن تبقى مسافة متكافئة بينها وبين كلا القوتين وأن تجعلهما يتنافسان على استرضائها وقد قدمت هذه السياسة للصين مصداقية كبيرة وكمركزها كقوة ناهضة، ففى

كثير من الأحيان تصرفت الصين بشكل يمثل تحديا لما تفضله أوتطالب به موسكو أو واشنطن وفى أوقات أخرى سلكت شكل مختلف جدا عما يتوقعه الآخرون.

وعلى هذا وبمعنى ما فإن الصين يمكن أن تعتبر قوة مرشحة لمكانة ومركز القوة الأعظم ولكن بمعاييرها وطريقتها الخاصة وليس تقليدا أو محاكاة للولايات أو الاتحاد السوفيتى وأيا ماكان مقياسنا لمركز الصين الفريد فى السياسات العالمية وعلى المدى الطويل فإن الصين تمثل قوة سياسة واستراتيجية أكثر أهمية من أن ينظر إليها كشىء لاحق لموسكو أو اشنطن أو كمجرد قوة متوسطة.

وحيث أن نجاح اليابان الراهن يكمن بشكل خاص فى الحقل الاقتصادى فإن هذا الحقل بالذات ، من أكثر المجالات التى تثير قلق طوكيو اليوم. فمن ناحية فإن النمو الاقتصادى والتكنولوجى يقدمان جوائز متألقة للبلد الذى يقف اقتصاده فى أفضل المراكز بالنسبة للقرن الواحد والعشرين ولكن من ناحية أخرى فإن نفس هذا النجاح قد أثار بالفعل ردود فعل ضد توسعها التصديرى ويأتى رد الفعل هذا من تقليد قوى أخرى لليابان وخاصة القوى الآسيوية الطموح أوالجديدة مثل كوريا الجنوبية وسنغافورة وتايوان وتايلاند والصين نفسها وجميع هذه

الاقطار تنتج وتتمتع بعمالة منخفضة التكاليف عن اليابان أما رد الفعل الثانى والاكبر ازعاجا لليابان فهو رد الفعل العدائى المتزايد من جانب الامريكيين والأوروبيين إزاء التغلغل القاسى للمنتجات اليابانية لأسواقهم الداخلية وبسبب الاعتقاد الأمريكى فى مبدأ التجارة الحرة فقد تردد الإدارات الأمريكية فى منع أوتحديد الواردات اليابانية إلا أن أكثرالمتحمسين لمبدأ حرية التجارة بدأوا يشعرون بالضيق إزاء تزويد الولايات المتحدة المستمر لليابان الأمر الذى جعل الولايات المتحدة فى مكانة المستعمرة أو الدولة الأقل تقدما الأمر الذى لم نعرفه لمدة قرن ونصف كذلك فإن العجز التجارى المتزايد للولايات المتحدة مع اليابان ـ ٦٢ بليون دولار فى السنة المالية المنتهية فى ٣١ مارس ١٩٨٦ ـ والضغوط من الصناعات الامريكية المحاصرة التى تحملت عبء واشنطون بإجراءات لحفظ عدم التوازن مثل تشجيع ارتفاع قيمة سعر الصرف للْينّ وزيادة كبيرة للصادرات الامريكية لليابان وهكذا.. .

انخفاض معدل النمو

كل هذا فى اعتقاد البعض قد يؤدى إلى انهاء الازدهار التصديرى اليابانى وتراجع فى فائض مدفوعاتها وانقاص معدل نموها يضاف إلى هذا ما ينبه إليه البعض من أن ما يقلق

اليابان اليوم ليس فقط اقتصادها الذى وصل إلى مرحلة النضج وإنما أيضا هيكل العمر الزمنى لسكانها فمع حلول عام ٢٠١٠ سيكون لليابان أقل معدل من السكان فى سن العمل (ما بين ١٥ ـ ٦٤) بين الأمم الصناعية المتقدمة الأمر الذى يتطلب منها تخصيص جانب كبير من التأمينات الاجتماعية وقد يؤدى إلى فقد الاقتصاد اليابانى لديناميكيته.

ورغم أنه قد يكون من الحقيقى أن معدل النمو اليابانى بدأ ينخفض بدخولها مرحلة النضج وأنه من المؤكد أن دولا أخرى لن تسمح لليابان بأن تحفظ بمزاياها الاقتصادية التى ساعدت قدرتها التصديرية السابقة، رغم هذا تظل هناك أسباب جوهرية تفسر امكانية أن تتوسع اليابان فى المستقبل بشكل أوسع من القوى الكبرى الأخرى.

ففى المقام الأول وباعتبار الاعتماد الضخم لليابان على استيراد المواد الأولية (٩٩٪ من بترولها ، ٩٢٪ من الحديد ، ١٠٠٪ من القصدير) فإنها ستستفيد بشكل ضخم من الشروط المتغيرة للتجارة التى تحققت من اسعار كثير من المواد الأولية وخاصة البترول عام ١٩٨١ والتى وفرت على اليابان بلايين الدولارات كل عام، بالإضافة إلى هذا فإن أزمة البترول عام ١٩٧٣ قد دفعت اليابان إلى البحث عن كل أنواع اقتصاديات

الطاقة ففى الحقبة الأخيرة فقط خفضت اليابان من اعتمادها على البترول بنسبة ٢٥٪ كما دفعتها إلى البحث عن مصادر جديدة للمواد الأولية ورغم أن أيا من التطورات السابقة لا تجعل من المؤكد بشكل مطلق أن اليابان تستطيع الاعتماد على تدفق مواد أولية بأسعار منخفضة فإن البشائر على ذلك طيبة.

قوة قائدة

وما هو أكثر أهمية بالنسبة لإتجاهات ومستقبل الاندفاع المستمر للصناعة اليابانية اتجاهها نحو اكثر القطاعات أهمية للاقتصاد فى أوائل القرن الواحد والعشرين ألا وهو التكنولوجيا المتقدمة وبعبارة أخرى فإن انسحاب اليابان بشكل مستمر من انتاج المنسوجات وبناء السفن والصلب تاركة اياها للاقطار ذات العمالة المنخفضة الأسعار، يعنى بوضوح أنها تعتزم أن تكون قوة قائدة إن لم تكن القوة القائدة فى هذه المنتجات المتقدمة علميا بل إن انجازاتها قد وصلت بالفعل إلى مستوى الأسطورة فى حقل الحاسبات الآلية وهو المجال الذى تتحرك فيه اليابان بتصميم نحو آفاق جديدة ابرزها هو انتاج الجيل الخامس الأكثر تقدما من الـ Super Computers والذي يستطيع أن يعمل اسرع مئات المرات فى كل شيء ابتداء من كسر الشفرات التى تصميم اشكال الطائرات.

أما عنصر القوة الثانى بالنسبة لمستقبل الاقتصاد والانتاج فهو القدر الضخم والمتزايد من المال المخصص للبحث والتنمية فى اليابان R F D فالنسبة المخصصة لهذا المجال من مجموع الناتج القومى اليابانى سوف تتضاعف تقريبا حيث سترتفع من ٢٪ عام ١٩٨٠ إلى ما هو متوقع من ٣.٥٪ عام ١٩٩٠ وما يثير الانتباه أن نسبة كبيرة من الجزء المخصص للبحث والتنمية فى اليابان إنما تقدمه الصناعات بشكل مباشر وليس للحكومات كما هو الحال فى امريكا وأوروبا وبعبارة أخرى فإن هذه البحوث تتجه مباشرة نحو السوق، فالعلوم البحتة تترك للآخرين ويلجأ إليها حين تبدو أهميتها التجارية بشكل اوضح.

أما الميزة الأخرى للاقتصاد اليابانى فهو المستوى العالى للمدخرات الوطنية فى اليابان والذى يتضح بمقارنته بالولايات المتحدة الأمر الذى يفسره الاختلاف فى نظم الضرائب فحيث يشجع فى الولايات المتحدة فالاقراض الشخصى والانفاق الاستهلاكى فإنها تشجع فى اليابان الادخارات الخاصة وكذلك هناك السوق الداخلية المضمونة نظريا للمشروعات اليابانية فى كل شىء تقريبا باستثناء المنتجات المتصلة بالأبهة الاجتماعية وهو الوضع الذى لم تعد تتمتع به حتى المؤسسات الامريكية.

وأخيرا هناك النوعية العالية جدا لقوة العمل اليابانية والتى

ينميها ويقف وراءها نظام تعليمى عام ومكثف وأيضا نظام تدريبى تقوم به الشركات نفسها. وقد تبدو هناك ندرة فى العلماء اليابانيين الحاصلين على جائزة نوبل ولكن اليابان تخرج مهندسين اكثر من المشتغلين فى البحوث والتنمية وهو العدد الذى تفوق على ما لدى بريطانيا وفرنسا والمانيا الغربية مجتمعين.. يضاف إلى هذا كله الطبيعة الطيعة والمجتهدة لقوة العمل اليابانية والتناسق الذى يسود العلاقات الصناعية حيث هناك دائما سعى لتحقيق توافق فى الآراء بحيث لا اضرابات تقريبا وساعات عمل اطول وتوافق مع روح الجماعة (ابتداء من تمرينات الصباح المبكرة فصاعدا..) ولأن تقليد المعجزة الصناعية اليابانية سوف يتضمن ليس فقط تقليد هذه القطعة أوتلك من التكنولوجيا أو الادارة اليابانية وإنما تقليد النظام الاجتماعى اليابانى فإن هذا هو الذى جعل حتى المراقبين الامريكيين يعتبرون أن هذا أحدث وأكثر التحديات بالنسبة للولايات المتحدة حتى نهاية القرن.. ومنافسة أكثر صعوبة من المنافسة السياسية والعسكرية مع الاتحاد السوفيتى.

أعلى مستوى معيشى

وكأن عناصر القوة الصناعية تلك لم تكن كافية فقد أضيف إليها بزوغ اليابان السريع المدهش لكى تكون فى مقدمة الدول

الدائنة حيث تصدّر بلايين الدولارات سنويا ووفقا للتقديرات فإن باقى العالم سيكون مدينا لليابان عام ١٩٩٠ بـ ٥٥٠ بليون دولار ومع عام ١٩٩٥ فإنه من المتوقع أن تبلغ أرصدة اليابان فى الخارج ما يزيد على ترليون دولار وليس غريبا أن تصبح البنوك اليابانية بسرعة الأكبر والأكثر نجاحا فى العالم.

والسؤال الآن هو: إلى أى حد ستكون اليابان قوية فى القرن الواحد والعشرين؟ إذا ما استبعدنا حربا كبيرة أو كارثة بيئية أو ركودا عالميا كالذى ساد فى الثمانينات وما صحبه من سياسات حمائية، فالإجابة التى تتفق عليها الآراء هى: أكثر قوة بكثير ففى مجال الحاسبات والانسان الآلى والاتصالات السلكية واللاسلكية والسيارات والقاطرات والبواخر وربما التكنولوجيا الحيوية Biotechnology ستكون اليابان إما الأمة الاولى أوالثانية وفى النواحى المالية فستكون اليابان قوة منفردة فالتقارير تشير بالفعل إلى أن نصيب الفرد اليابانى من مجموع الدخل القومى قد تعدى الولايات المتحدة وغرب أوروبا الأمر الذى يجعل لها أعلى مستوى معيشى فى العالم. أما ما سيكون عليه نصيبها من ناتج مجموع الانتاج العالمى فهو من المستحيل تقريره غير أن ما يستحق أن نذكره أنه فى عام ١٩٥١ كان مجموع الناتج القومى لليابان ثلث بريطانيا و ١/٢٠

من الولايات المتحدة على أنه فى خلال حقب ثلاث ارتفع إلى ضعف بريطانيا ونصف الولايات المتحدة، صحيح أن معدل نموها فى هذه الحقب كان سريعا بشكل غير عادى وبسبب ظروف خاصة ومع هذا ووفقا لعدد من التقديرات فإن الاقتصاد اليابانى ما زال من الممكن أن يتوسع ١.٥ إلى ٢٪ سنويا اسرع من الاقتصاديات الكبرى الأخرى(فيما عدا الصين) خلال الحقب القادمة وهذا هو السبب الذى يجعل اقتصاديين مثل هرمان خان وإزرا فوجل يعتبران أن اليابان ستكون القوة الاقتصادية الاولى فى اوائل القرن الواحد والعشرين.

وأيا ما كان مقياس نمو قوة اليابان الاقتصادية الآن وفى المستقبل فثمة عاملان لهما السيطرة فى هذا الشأن الأول أن اليابان هى أمة منتجة ومزدهرة بشكل كبير وأنها مستمرة على هذا النحو وبشكل أكثره ، أما العامل الثانى فهو أن قوتها العسكرية وانفاقها الدفاعى ليس لهما أية علاقة مع مكانتها فى النظام الاقتصادى العالمى فوفقا لأرقام التوازن الاستراتيجى لعام ١٩٨٣ تنفق اليابان ١١.٦ بليون دولار على الدفاع مقارنة بـ ٢٤ ـ ٢١ بليون لكل من فرنسا والمانيا الغربية وبريطانيا ٢٣٩ للولايات المتحدة. وهكذا فإن نصيب ما يتحمله الفرد اليابانى للدفاع هو ٩٨ دولار مقارنة بما يتحمل البريطانى من

٤٣٩ والامريكى ١٠٢٣ دولارا.

فإذا ما استجابت اليابان للضغط الامريكى والغربى لزيادة انفاقها الدفاعى إلى المستوى الذى تخصصه دول الناتو من مجموع انتاجها القومى (٣ ـ ٤٪) فإن هذا التحول سيكون جذريا حيث سيجعل اليابان ـ مع الصين ـ ثالث قوة عسكرية فى العالم بنفقات عسكرية تبلغ ٥٠ بليون دولار سنويا وليس ثمة شك بالنظر إلى امكانيات اليابان التكنولوجية والانتاجية من أن فى قدرتها حيث أن قدرتها مثلا أن تبنى حاملة قوات لأسطولها أو صواريخ طويلة المدى كقوة رادعة وسيكون هذا بالتاكيد ميزة لمؤسسات وطنية مثل **ميتسوبيشى** كما سيمثل قوة مضادة للقوة السوفيتية فى الشرق الاقصى الامر الذى سيساعد الولايات التى تتحمل عبئا دفاعيا فى هذه المنطقة.

على أن ما هو أكثر احتمالا أن يحدث أن طوكيو سوف تحاول أن تتهرب من هذه الضغوط الخارجية أو على الأقل أن تحتفظ بإنفاق دفاعى منخفض بالقدر الذى تستطيعه دون أن تثير أو تتسبب فى تصدع فى علاقاتها مع واشنطن وحين تفعل اليابان هذا فإنها فى حقيقة الأمر ستكون مدفوعة بما قد يثيره أى بناء أو توسع عسكرى يابانى كبير من اعتراضات داخلية واقليمية فدستورها يمنع ارسال قوات إلى الخارج أو بيع

اسلحة بالإضافة إلى ما يثيره تسلح يابانى ضخم من شكوك وتوتر جيرانها وخاصة موسكو وبكين واقطار كانت تخضع من قبل للسيطرة اليابانية وهى التى تستجيب بالفعل وبشكل عصبى لأية علامة على أحياء العسكرية اليابانية وتحت طوكيو على التركيز على المجالات الانتاجية غير العسكرية لكى تدعم سلام وأمن جنوب شرق آسيا.

أخطار المستقبل

غير أن ما يقلق اليابانيين بحق وأن نادرا ما يناقشونه بشكل علنى هو ما يتعلق بمستقبل توازن القوى فى شرق آسيا فالدبلوماسية السلمية المتعددة الجهات قد تكون صالحة جدا للوقت الحاضر ولكن إلى أى حد ستكون كذلك إذا ما اضطرت الولايات المتحدة إلى أن تسحب التزاماتها من آسيا أو وجدت نفسها فى وضع لا يسمح لها بحماية تدفق البترول من المنطقة العربية إلى يوكاهوما وإذا ما نشبت حرب كورية أخرى أو بدأت الصين تسيطر فى المنطقة وإذا ما قام الاتحاد السوفيتى الذى تتملكه العصبية لتدهور وضعه بأعمال عدوانية ليس هناك بالطبع سبيل للإجابة على هذه الأسئلة الافتراضية. ومع هذا فإن الدولة التجارية ذات القوة الدفاعية الصغيرة قد تجد أنه مما لا يمكن

تجنبه يوما أن تقدم بعض الاجابات وكما اكتشفت أمما أخرى فى الماضى فإن الخبرة التجارية والثروة المالية قد لاتكفى فى بعض الأحيان فى عالم مضطرب.

المجموعة الأوربية الاقتصادية
الامكانيات والمشكلات

من بين تجمعات القوة الاقتصادية والعسكرية الخمسة فى عالم اليوم فإن التجمع الوحيد الذى لا يمثل دولة واحدة ذات سيادة Nation State هى أوروبا . وهو الأمر الذى يمثل المشكلة الرئيسية التى تواجه هذه المنطقة وهى تتحرك نحو النظام البازغ للقوى العظمى للقرن الواحد والعشرين - وحتى اذا استبعدت مناقشتنا لوضع هذه المنطقة الدول التى تحكمها النظم الشيوعية فى الشرق فستكون إزاء مجموعة من الدول تنتمى بعضها لمنظمة حلف الاطلنطى وبعضها للمجموعة الاقتصادية الأوربية .E.E.C وبعض آخر لا ينتمى إلى هذه أو تلك وبسبب هذه الاختلافات فإن الحديث هنا سوف يتركز على المجموعة الاقتصادية الأوروبية بوجه خاص باعتبار أنها المنظمة والكيان الوحيد القائم الذى يحتوى على امكانية قوة عالمية خامسة.

فمن الواضح أن المجموعة الأوروبية الاقتصادية لديها الحجم والثروة والطاقة الانتاجية لقوة عظمى فبانضمام اسبانيا والبرتغال بلغ سكان اعضائها الأثنى عشر ٢٢٠ مليونا وهو ما يزيد ٥٠ مليونا على سكان الاتحاد السوفيتى (السابق) وقرابة ١٠٠ مليون عن الولايات المتحدة كما تتميز بسكانها المدربين بشكل عال وبمئات الجامعات والكليات وملايين العلماء والمهندسين ورغم ما يكشف عنه متوسط دخل الفرد من تباين بين المانيا الغربية والبرتغال مثلا فهى أغنى بكثير فى المجموع من الاتحاد السوفيتى كما أن بعض دولها تفوق من حيث دخل الفرد الولايات المتحدة وهى إلى حد كبير أكبر كتلة تجارية فى العالم رغم أن جانبا كبيرا من هذه التجارة تجرى بين دولها، وربما كان المقياس الأفضل لقوتها الاقتصادية يكمن فى انتاجها من السيارات والصلب والاسمنت والذى يضعها فى هذه المجالات أمام الولايات المتحدة واليابان والاتحاد السوفيتى (فيما عدا الصلب) واعتمادا على الاحصاءات السنوية فإن مجموع الناتج القومى للمجموعة الاقتصادية الاوربية يوازى تقريبا (فى اعوام ١٩٨٠، ١٩٨٦) مجموع الناتج القومى الامريكى وهى بالتأكيد أكبر بكثير من الاتحاد السوفيتى أو اليابان أو الصين من حيث نصيبها من مجموع الناتج العالمى.

مستقبل دول المجموعة الأوروبية

إذا كان التجمع الأوروبى لا يمثل دولة واحدة ذات سيادة فإن خطوات الوحدة الاقتصادية التى ستكتمل عام ١٩٩٢ لابد من أن تدفع المحلل إلى اعتبارها قوة ذات عوامل تدعو للتقارب بعضها اقتصادى وبعضها عسكرى.

على أنه مع كل هذه العوامل الكامنة فإن قوة وفعالية أوروبا الحقيقية هى أقل بكثير مما يوحى به المجموع العام لقوتها الاقتصادية والعسكرية فقواتها المسلحة لا تقاسى فقط من تعدد اللغات وإنما أيضا من تعدد نظم تسليحها وتدريبها مثلما هو قائم مثلا بين جيوش ألمانيا الغربية واليونان وبين الاسطول البريطانى والاسبانى ورغم محاولات الناتو المتعددة لتوحيد مستويات التسليح ، فما زلنا ازاء عشرات الجيوش والاساطيل والقوات الجوية ذات النماذج المتنوعة وحتى هذه المشكلات تبدو ضئيلة أمام العقبات على المستوى السياسى المتصلة بأولويات السياسات الدفاعية والخارجية لأوروبا مثل خلافات تركيا واليونان وموقف فرنسا المستقل والأولويات الدفاعية لألمانيا المتجهة إلى حدودها نحو الشرق هناك أيضا القلق الملح من أنه بعد حقب ما بعد الحرب من النمو الاقتصادى الناجح فإن أوروبا بدأت فى الركود بل ربما فى التراجع فالمشكلات التى سببتها

الأزمة والضغوط على ميزان المدفوعات والركود العالمى العالمى العام فى الطلب والانتاج والتجارة تبدو سوف تضر بالأوروبيين بشكل أصعب من أى اقتصاديات كبرى فى العالم كما أن من الاهتمامات الأوروبية الأساسية هى فى تأثير هذا الركود على مستويات العمالة، فعدد الذين يفقدون وظائفهم فى غرب أوروبا فى السنوات الأخيرة كان أكبر بكثير من أى وقت مضى بعد عام ١٩٤٥ (فقد ارتفع مثلا من ٩,٥٪ إلى ١٠٪ بين دول المجموعة الاقتصادية من ١٩٧٩ - ١٩٨٢ ولم تبد إلا دلائل قليلة على الهبوط وما استلزمه هذا من تأمينات اجتماعية الأمر الذى ترك نسبا أقل للإستثمار كما لم يتم خلق وظائف جديدة على النطاق الذى حدث فى الولايات المتحدة وما هو أكثر مدعاة للقلق هو علامات التراجع الأوروبى وراء المنافسين الأمريكيين والأوروبيين فيما يتعلق بالتكنولوجيا المتقدمة.

صورة متشائمة

وقد يعتبر البعض أن هذه الصورة الأوربية المتشائمة قد رسمت بشكل قاتم وأن هناك مؤتمرات أخرى كثيرة عن قدرات أوروبا التنافسية فى مجالات هامة مثل نوعية السيارات والأقمار الصناعية والكيماويات ونظم الاتصالات والخدمات العالية..الخ

ومع هذا فإن المسألتين الأكثر ضغطا تبدوان موضع شك:
الأولى هى : هل تستطيع المجموعة الاقتصادية الأوروبية بتنوعها السياسي والاقتصادى أن تجارى منافسيها فى الاستجابة للتحولات السريعة والواسعة المدى فى انماط التوظف؟

أما المسألة الثانية فهى مدى قدرة دول المجموعة على تعبئة مواردها العلمية والاستثمارية لكى تقف كمنافس رئيسى فى مجال التكنولوجيا المتقدمة فى الوقت الذى لا تبدو فيه شركاتها بضخامة وامكانيات العمالقة الامريكيين واليابانيين.

فإذا نظرنا إلى أوروبا كما تتمثل اساسا فى المجموعة الاقتصادية الأوروبية كقوة سياسية فى النظام العالمى فإن أكثر المشكلات أهمية التى تواجهها هى: كيفية تطوير سياسة دفاعية مشتركة للقرن القادم والتى تبقى صالحة حقبة من التغييرات الهامة فى توازنات القوة العالمية.

الاتحاد السوفيتى وتناقضاته

رغم أن الاتحاد السوفيتى والنظرية الماركسية اللينينية يتحدث عن تناقضات النظام الرأسمالى فإن هذا المفهوم نفسه يمكن أن ينطبق على الاتحاد السوفيتى اليوم بتناقضاته التى

تتمثل فى الفجوة بين اهدافه والوسائل المستخدمة لتحقيقها وفى المشكلات التى يواجهها فى مجالات اساسية وحاسمة وفى مقدمتها مجال الزراعة الذى يحتاج فيه الاتحاد السوفيتى إلى ٧٨ بليون دولار سنويا لمجرد المحافظة على مستوى المعيشة وإلى ٥٠ بليون دولار لدعم اسعار الطعام وفى مجال الصناعة فإنه رغم الانجازات التى حققها هذا القطاع منذ عام ١٩٤٥ معتمدا على الاستثمار الكثيف بحيث تفوق على الولايات المتحدة فى الآلات والحديد والصلب والاسمنت والمخصبات والبترول، فإن هناك اليوم مؤشرات عديدة على أن الصناعة السوفيتية تعانى ركودا وأن مراحل التوسع السهل إنما تقترب من نهايتها يضاعف من هذا ما يعانيه الوضع السوفيتى من مشكلات فى التكنولوجيا المتقدمة. مثل الانسان الآلى والآلات الحاسبة والليزر والبصريات والاتصالات السلكية.

وفى المجال العسكرى فإن الأسلحة الميدانية المتقدمة ونظم الكشف يمكن أن تحدد المزايا الكمية السوفيتية فى المعدات العسكرية وأن تحدد مواقع الغواصات تحت سطح المحيط وأن تتعامل مع مسرح معركة سريع التحرك، وأخيرا وليس آخرا أن تحمى القواعد الذرية الامريكية والليزر والتكنولوجيا التحكم والتوجيه وأن تمكن الطائرات والمدفعية الغربية وقوى الصواريخ

من تحديد وتدمير طائرات العدو ودباباته دون أن تتعرض للانتقام.

وتبدو المشكلة التى تواجه الوضع السوفيتى اعظم فى المجال المدنى باعتبار الحدود التى وصلتها العناصر التقليدية للانتاج مثل العمال ورأس المال وباعتبار أن التكنولوجيا ينظر إليها اليوم كأمر حيوى لزيادة الإنتاجية السوفيتية فمثلا كان الاستخدام الواسع للآلات الحاسبة يمكن أن يخفض بشكل كبير فى اكتشاف وانتاج وتوزيع امدادات الطاقة غير أن تطبيق هذه التكنولوجيا لا يتطلب فحسب استثمارات ضخمة (ومن اين ستأتى؟) ولكنها أيضا تتحدى النظام السوفيتى القائم على السرية الشديدة والبيروقراطية والمركزية.

يضاف إلى هذه المشكلات التوقعات السكانية غير المشجعة وتبدو مظاهرها فى التدهور الثابت فى الاعمار (حيث وصل عمر الفرد السوفيتى ٦٠ عاما فقط) وفى تصاعد وفيات الاطفال منذ السبعينيات والمتضمنات الخطيرة لهذا التراجع السكانى هو ما يتطلبه من موارد الرعاية الطبية والاجتماعية كما أن لها معانيها السلبية للصناعة السوفيتية والقوات المسلحة بالنظر إلى الهبوط الجذرى لمعدلات نمو قوة العمل فوفقا للتقديرات فسوف تزيد قوة العمل فى الفترة من ١٩٨٠ - ١٩٩٠ بنسبة

٥٫٩٩٠٫٠٠٠ فقط بينما زادت فى فترة العشر سنوات بمقدار ٢٤٫٢١٧٫٠٠٠

صورة قاتمة

على أن هذه الصورة للوضع السوفيتى قد تبدو قاتمة بالنسبة لعدد من المراقبين الذين كانوا يعتبرون أن الانتاج السوفيتى العسكرى كان دائما فعالا ومؤثرا ويتجه دائما إلى تطوير نفسه بسبب ديناميكية سباق التسلح، وكما عبر أحد المؤرخين، وكان هذا فى عام ١٩٨١ فإن الصورة قد لا تكون فى مجموعها سلبية خاصة إذا ما نظر المرء إلى إنجازات الاقتصاد السوفيتى خلال النصف قرن الأخير، على أن أيا كان التقدم الذى حققه الاتحاد السوفيتى فإنه من الحقائق الخطيرة أن الفجوة فى مستويات المعيشة تتسع منذ السنوات الأخيرة لعهد **برجنيف** وحيث تفوقت معايير الانتاج والكفاءة الانتاجية لليابان وبعض الدول الاسيوية. وفى سياق ما يحاوله **جورباتشوف** من زيادة ودفع التطور الاقتصادى والاجتماعى فإن ثمة عقبتين سياسيتين تقفان فى طريق تحقيق قفزة كبرى. العقبة الأولى هى مركز مسئولى الحزب والبيروقراطية والصفوة التى تتمتع بإمتيازات ضخمة تحجبهم عن مصاعب الحياة

اليومية ويعتبرون أى اصلاح حقيقى تهديدا لسلطتهم وامتيازاتهم وهنا فإن ما يطالب به جوربا تشوف من تحول عميق فى النظام من غير المحتمل أن يحدث أثرا كبيرا على معدلات النمو فى المدى الطويل. أما العقبة الثانية فتتمثل فى النصيب الكبير من الناتج القومى المخصص للدفاع والذى يقدر بنسبة ما بين ١١ ـ ١٣ ٪ الأمر الذى له تأثيره على فرص الرخاء.

وشأنه شأن كل القوى العظمى الأخرى فإن الاتحاد السوفيتى عليه أن يختار فى تخصيصه لموارده القومية بين :

١ ـ المتطلبات العسكرية.

٢ ـ الرغبة المتزايدة للمجتمع السوفيتى فى السلع الاستهلاكية.

٣ ـ حاجة الزراعة والصناعة لاستثمارات جديدة.

ومن الصعاب التى يواجهها المخططون السوفيت تلك المتصلة بالتكنولوجيا السوفيتية التى اختبرت فى بعض الحروب المحلية وتفوقت عليها التكنولوجيا الامريكية والغربية وهو ما لا يمثل علامة مشجعة لقوة اعتمدت تقليديا على السلاح لتنفيذ اهدافها الاستراتيجية المتعددة كما يتعلق برنامج الدفاع الاستراتيجى الامريكى SDI وقد يصعب تصور أن هذا البرنامج سوف يجعل الولايات المتحدة مرضية تماما ضد هجوم

ذرى إلا أنه بمـا لا يرحب به الكرملين هو ما يفرضه منذ هذا البرنامج من قيود وضغوط على نفقات الدفاع السوفيتى لانتاج المـزيد من الصـواريخ والرؤوس النووية لاغـراق نظام الدفـاع الاستراتيجى الامريكى.

مشكلات طويلة الأجل

وهكذا فإن الاتحاد السوفيتى - أو النظام الماركسى فيه - كان فى تقييم بول كنيدى فى السنوات الأخيرة قبل انهياره فى موضع الاختبار.. فى السباق العالمى على المستوى الكمى والنوعى . وقد كان من الممكن أن تكون علاقات القوى فى هذا السباق افضل بالنسبة للاتحاد السوفيتى إذا ما كان الاقتصاد أكثر صحة وهو ما يعود بنا إلى مشكلات روسيا طويلة الأجل، فالاقتصاد أمر يهم العسكريين السوفييت ليس لمجرد انهم ماركسيون أو لأن الاقتصاد هو الذى ينفق على اسلحتهم واجورهم وإنما لأنهم يدركون أهميته بالنسبة لمحصلة حرب طويلة وممتدة بين القوى العظمى.

والواقع أنه حين نتأمل اليوم ما رصده بول كنيدى وتقييمه لحاله الاتحاد السوفيتى قبل انهياره نستطيع أن نقول أنه قدم ما يمكن أن نعتبره مؤشرات هذا الانهيار حين رصد، وبالتعبير

المـاركسى، التناقـضـات التى تطورت فى بنيـه وأداء النظام السوفيتى ما بين اهدافه وبين الوسائل التى يستخدمها لمواجهة مشكلاته مثل انخفاض مستويات المعيشة مقارنة بغيره من الدول المتقدمة، وبداية تحييد عناصر قوته العسكرية، وأهم من ذلك تحـديات الثـورة، التكنولوجـيـة الثـالثـة ومـا تتطلبـه من استثمارات ضخمة ونظام مفتوح. وباختصار قدم البروفيسور كنيدى مـا اسمـاه بالصورة القاتمة عن واقع القوة السوفيتية والتى ثبت بالفعل أنها كانت تمثل المشكلات الطويلة الأجل التى وضـعت قيـود على مـا حـاوله جورباتشـوف من تطوير النظام وانقاذه.

الولايات المتحدة: القوة الأولى فى تراجعها النسبى

فى مجال المقارنة بين القوتين العظمتين يعتبر الكتاب أنه رغم أن نصيب الولايات المتحدة فى القوة العالمية فى الحقب الماضية يتراجع نسبيا بشكل أسرع من الاتحاد السوفيتى فإن المشكلت التى تواجهها لا تبدو بضخامة ما يواجهه الاتحاد السوفيتى من مشكلات هذا فضلا عن أن قوة الولايات المتحدة المطلقة Absolute strength مـا زالت اكبر من الاتحـاد السوفيتى.

كما أن طبيعة النظام والمجتمع الامريكى ربما تمنحه فرصة أفضل لإعادة التكيف مع الظروف المتغيرة غير أن هذا يعتمد على قيادة وطنية تستطيع أن تتفهم المتغيرات الأوسع التى تعمل فى عالم اليوم وتدرك نقاط الضعف والقوة فى وضع الولايات المتحدة وهى تحاول أن تتلاءم مع البيئة الدولية المتغيرة.

وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة مازالت تمثل قوة متميزة اقتصاديا وعسكريا فإنها لا تستطيع أن تتفادى مواجهة اختيارين: الأول قدرة كل قوة كبرى وخاصة التى تمثل مركز القوة الأولى على البقاء والاستمرار.

وعلى ما اذا كانت تستطيع فى المجال العسكرى والاستراتيجى أن تحتفظ بتوازن معقول بين متطلبات الدفاع الوطنى وبين السوائل الفعلية للابقاء على هذه الالتزامات.

الثانى هو ما اذا كانت تستطيع أن تحافظ على الأسس التكنولوجية والاقتصادية لقوتها من التفتت النسبى فى مواجهة الانماط المتغيرة بشكل مستمرة للانتاج العالمى.

وتعتبر الدراسة أن هذا الاختيار للقدرات الامريكية سيكون هو الاختبار الاعظم لأن الولايات المتحدة ـ شأنها شأن اسبانيا الامبريالية عام ١٦٠٠ والامبراطورية البريطانية حتى عام ١٩٠٠

هى الوارثة لنطاق واسع للارتباطات الاستراتيجية التى تمت فى حقب سابقة حين كانت قدراتها السياسية والاقتصادية والعسكرية فى التاثير على العالم تبدو أكثر تاكدا ووثوقا مما هى عليه اليوم - ونتيجة لهذا تتعرض الولايات المتحدة لخطر مالوف لدى المؤرخين حول صعود وهبوط قوة عظمى سابقة وهو ما يمكن أن ندعوه بالتوسع الامبريالى الذى يفوق الامكانيات والقدرات الفعلية.

وهو ما يعنى أن الساسة الامريكيين عليهم أن يواجهوا الحقيقة الصعبة والمستمرة وهى أن مجموع المصالح والالتزامات الامريكية والعالمية هى اليوم اوسع من قوة الولايات المتحدة وقدرتها على الدفاع عنها جميعا فى وقت واحد.

بالإضافة إلى هذا فإن اهتمامات وروابط الولايات المتحدة الخاصة كانت تبررها وقتها أسباب معقولة وفى معظم الحالات فإن اسباب الوجود الامريكى لم تقل بل أنه فى بعض اجزاء العالم فإن مصالح الولايات المتحدة قد تبدو الآن اوسع بالنسبة لصناع القرار في واشنطون عما كانت عليه منذ عدة حقب ماضية وينطبق هذا وبالتاكيد على الالتزامات الامريكية فى الشرق الاوسط حيث تواجه الولايات المتحدة اوضاعا معقدة تجعل من الصعوبة البالغة بالنسبة للادارة الامريكية أن تتبع

سياسة متماسكة طويلة فى الشرق الاوسط.

وتركز الدراسة على أن العسكريين الامريكيين هم أكثر الدوائر اهتماما بالتباين القائم بين الالتزامات والقدرات الامريكية لأنهم سيكونون أول من يعانى اذا انكشف الضعف الاستراتيجى أمام اختبارالحرب الصعب ومن هنا كانت تحذيرات البنتاجون من نقل القوات على نطاق عالمى ومن منطقة ساخنة إلى أخرى.

كما ظهر بشكل خاص فى نهاية عام ١٩٨٣ حين استخدمت قوات اضافية فى امريكا الوسطى وجرانادا وتشاد ولبنان الأمر الذى جعل رئيس الاركان الامريكى يقول: إن سوء التوافق بين القوات الامريكية وبين الاستراتيجية هو اليوم اعظم مما كان عليه من قبل على أنه من ناحية أخرى فإنه من غير المحتمل أن تواجه الولايات المتحدة موقفا تحتاج فيه أن تدافع عن مصالحها الخارجية فى وقت واحد وبدون مساعدة حلفائها الغربيين فى أوروبا أواليابان أوحتى الصين فى الباسفيك أو اسرائيل فى الشرق الاوسط.

تحديات

أما التساؤل الآخر حول العلاقة المناسبة بين «الامكانيات

والاهداف» فى السياسة الامريكية إنما يتعلق بالتحديات الاقتصادية التى تواجهها وأول هذه التحديات التراجع النسبى فى الصناعة نسبة للانتاج العالمى ليس فقط فى الصناعات القديمة مثل المنسوجات أوالصلب أوالحديد وبناء السفن والصناعات الكيماوية وإنما أيضا فيأنصبتها العالمية فى انتاج الانسان الآلى والآلات الحاسبة وأجهزة الفضاء فقد اظهرت دراسة للكونجرس أن الفائض التجارى الامريكى فى سلع التكنولوجيا المتقدمة قد انحدر من ٢٧ بليون عام ١٩٨٠ إلى مجرد ٤ بليون عام ١٩٨٥ وهو يتجه بسرعة نحو العجز. أما التحدى الآخر فهو الزراعة لظهور فائض زراعى فى مناطق أخرى مثل دول السوق المشتركة بنظام اسعارها المدعم وعدد من دول العالم الثالث مثل الهند والصين التى كانت اسواقا للانتاج الزراعى آلامريكى الأمر الذى أدى إلى هجرة كثير من المزارعين الامريكيين للزراعة إلى جانب هذه الصعوبات فى الصناعة والزراعة الامريكية هناك اضطرابات غير مسبوقة فى الأوضاع المالية الامريكية.

غير أنه مقابل هذه السلبيات ينبه البعض إلى أن من يركزون على العناصر السابقة إنما يبالغون فى خطورة ما يحدث فى الاقتصاد الامريكى ويفشلون فى ملاحظة طبيعة معظم هذه

التطورات وإنما تمثل اتجاهات عادية بالنظر إلى أن العالم يتحرك من الانتاج القائم على المواد إلى الانتاج المعتمد على المعلومات ويضيفون إلى هذه الظواهر الايجابية للنمو التى تتطور فى الاقتصاد الامريكى فبسبب الازدهار فى قطاع الخدمات خلقت الولايات المتحدة وظائف فى الحقبة الماضية اسرع من أى وقت فى تاريخها فى زمن السلم واسرع بكثير من العالم الغربى.

ويصل بول كنيدى إلى مناقشة السؤال الاشمل المترتب على دراسته ألاوهو: هل تستطيع الولايات المتحدة أن تحافظ على مركزها الراهن كقوة أولى فى العالم؟ ويقول أن الاجابة هى لا ويفسر هذا بأنه لم يتح لأى مجتمع عبر التاريخ أن يظل بشكل دائم متقدما على المجتمعات الأخرى إذ أن هذا يعنى تجميد الانماط المتباينة لمعدلات النمو والتقدم التكنولوجى والعسكرى غير أن هذا فى رأيه لا يعنى أن الولايات المتحدة محكوم عليها بالأفول مثلما حدث مع قوى عظمى سابقة منذ اسبانيا وهولندا وانها سوف تتفكك مثلما حدث لامبراطوريات روما والنمسا والمجر غير أنه لكى تتفادى الولايات المتحدة هذا فإن على ساستها أن يدركوا أن اتجاهات عريضة تأخذ مجراها الآن فى العالم.

التحضير للقرن الواحد والعشرين

فى عام ١٩٨٧ ، أصدر المؤرخ الامريكى بول كيندى عمله الضخم «صعود وسقوط القوى العظمى».

وهو العمل الذى كما رأينا فى الفصل السابق قد أثار وما زال يثير ضجة وحركة فكرية واسعة، وخاصة على المستوى الامريكى، فيما يتعلق بوضع ومكانة القوى الرئيسية فى عالم اليوم وعلاقات القوى النسبية بينها وعوامل البناء والهدم التى تعمل داخلها هذه العوامل فى ضوء الخلفية التاريخية لقوى عظمى سابقة على مدى الألف وخمسمائة عام الأخيرة، ويقيم التشابهات بين عوامل ودوافع الصعود والاضمحلال فيها وبين العوامل التى تعمل الآن فى القوى الكبرى المعاصرة.

غير أنه يبدو أن المؤرخ الامريكي قد شغل نفسه خلال الاعوام الاربعة الماضية بمشروع ضخم آخر.

استشرف فيه حالة وامكانيات وقدرات مناطق العالم المختلفة وهى تواجه القرن الواحد والعشرين وما تفرضه المتغيرات التى يحملها من تحديات تغير من الافتراضات وطرق وأساليب الحياة

والعمل التى درجت عليها على مدى القرون الماضية بل وربما منذ الثورة الصناعية.

فالمصانع التى تدار وتعمل بالانسان الآلى تحل اليوم فى اليابان محل نظام المصنع التقليدى كما نشأ فى بريطانيا خلال الثورة الصناعية وانتشر منها فى العالم، والمحاصيل التى تنمو بفضل الهندسة الوراثية تهدد أساليب نمو الزراعة الطبيعية ومحاصيلها التقليدية. والنظام الحالى العالمى الذى تسيره الادوات الالكترونية قد خلق سوقا عالمية لا سيطرة لأحد عليها، كما تسمح عالمية الصناعة والخدمات غير القومية لأن تحول انتاجها من بلد لآخر - الأكثر رخصا والأصلح بيئة.

ولا يقتصر ما يمثله مقدم القرن الواحد والعشرين عليه هذه التحديات التكنولوجية وإنما يضاف إليها تأثيرات الاختلالات السكانية المتنامية فى العالم، بين تراجع معدلات السكان فى الدول الغنية وبين انفجارها فى الدول الفقيرة بالشكل الذى يمكن أن يضاعف سكانها بل وربما يزيدها إلى ثلاث أضعاف.

تلك هى قوى التغيير التى يحملها القرن القادم، وتمثل تحديا على مستوى العالم بشعوبه الغنية والفقيرة، فكيف تستعد لها هذه الشعوب على مستوى العالم، وما هى الأوضاع الاقتصادية والسياسية والحضارية والديمقراطية التى تسودها اليوم وهى

تستعد وتواجه القرن المقبل، وما هى دلالاتها على من سيفوز ومن سيخسر فى هذا التطور التاريخى الحاسم؟ تلك هى القضايا التى يبحثها **بول كنيدى** فى عمله الجديد المثير حقا.

غير أن **بول كنيدى** يقرر حقيقة واضحة وهى أنه إذا كانت قوى التغيير تحمل تاثيرها على كل مناطق العالم، إلاأن أكثر المناطق تاثرا فيها هى مناطق العالم الثالث، وأن نجاحها فى تسخير التكنولوجيا الجديدة وأن تعبر وتسير عبر عملية الانتقال الديموجرافى الواسعة، هو أمر لن يؤثر فقط على مصيرها وإنما على مستقبل أمن واستقرارالعالم. فما هى فرص وامكانيات مناطق العالم الثالث فى ذلك؟

قبل أن يجيب **كيندى** على هذا السؤال يحرص على أن ينبه إلى المتناقضات الحادة بين الدول النامية فى مناطق العالم الثالث المختلفة فى آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية والشرق الاوسط والعالم الاسلامى.

ولا يجد أكثر مما يصور هذه الاختلافات من حقيقة أنه فى الستينيات ، كان متوسط نصيب الفرد من مجموع الناتج لقومى GNP نفس ما كان فى غانا (٢٣٠ دولار امريكى) بينما يبلغ اليوم عشرة أوأكثر من عشرة أضعاف وبعد ذلك بعدة حقب طلبت دول غرب افريقيا من أكثر الدول فقدا فى العالم حيث بلغ

نسبة نصيب الفرد من الناتج القومى فى النيجر وسيراليون وتشاد مثلا أقل من ٥٠٠ دولار ، بينما تدخل كوريا صفوف الاقتصاديات عالية الدخل، ومما يضاعف من هذه الصورة المتناقضة أنه بينما يتصاعد رخاء كوريا بتناقص نمو سكانها، ما زالت معظم الدول تواجه انفجارا سكانيا يفتت أية مكاسب تتحقق فى الناتج القومى.

شرق آسيا . التحدى والاستجابة:

وهكذا بين مناطق دول العالم الثالث المختلفة، تبرز أكثرها نجاحا فى اللحاق بالغرب هى النظم التجارية فى الباسفيكى وشرق آسيا. ورغم الاختلافات الهيكلية بين بلدان هذه المجموعة، فإن كلا من مجتمعاتها تحتوى على خصائص رئيسية والتى إذا أخذت فى مجموعها تساعد على توضيح النمو الذى حققته حقبة بعد حقبة. وأول هذه الخصائص ، وربما أهمها، هو التركيز على التعليم، والتى يستمد أصوله من التقاليد الكونفوشيسية من الامتحانات القائمة على المنافسة، واحترام التعليم، تدعمها ربة الاسرة التى تكمل ما يتعلمه فى المدرسة. وفى اليابان ثمة تركيز على التعليم القائم على الاستظهار والحصول على الشهادات الفنية، والتأكيد على توافق الرأى بدلا

من تشجيع الموهبة الفردية وعادة مساءلة السلطة. والصفة المشتركة الثنائية بينهذه المجتمعات هى المستوى العالى من الادخار القومى. فخلال الحقب الاولى من النمو، فرضت القيود على الاستهلاك الشخصى وتم التحكم فى مستويات المعيشة وبتقييد حركة رأس المال إلى الخارج، أو استيراد سلعا استهلاكية من أجل توجيه الموارد إلى النمو الصناعى.

أما الصفة الثالثة فهى النظام السياسي القوى الذى تدعم من خلاله النمو الاقتصادى ، ففى الوقت الذى شجعت فيه الملكية الخاصة وأصحاب المشروعات فإن النمور الاربعة بوجه خاص، لم تتبع أبدا نموذج النظام الحر.

فقد قدمت ألوان من التأييد للصناعات التى تستهدف النمو مثل معونات التصدير والمنح التدريبية والتعريفات الحمائية من المنافسين الاجانب،كما عملت اتحادات نقابات العمال وفقا لتصورات معينة، وأخذت الديمقراطية فى هونج كونج وسنغافورة طابعا مقيدا وكذا فى ظل الحكم العسكرى فى تايوان/كوريا ولم يسمح بالانتخابات الحرة وسياسة الاحزاب إلا مؤخرا والتى جاءت كمكافأة على صبر الشعوب وبعد أن عبرت مرحلة التركيز على النمو الاقتصادى.

وأخيرا فإن ما يميز عوامل ومظاهر نمو هذه المجموعة هو

أنها كانت تمتلك نموذجا محليا وهو اليابان الأمر الذى تفتقده مناطق أخرى من العالم الثالث.

ويتساءل كينيدى حول ما اذا كانت موشرات وعوامل نمو دول الباسفيك وشرق آسيا سوف تستمر فى القرن الواحد والعشرين ويوضح أنه سياسيا ،فإن مستقبل هونج كونج وتايوان وكوريا الجنوبية غير أكيد، وربما ينطبق هذا الامر على الصين، فضلا عن ما يرتبط بالديمقراطية خاصة فى قطاعات الطلبة والعمال من عدم الاستقرار، كذلك الحال على مستوى الأسواق النقدية والاسعار والاجور والتزايد فى أسعار واردات البترول. غير أنه من ناحية أخرى فإن هذه الظواهر هى آلام النمو، فما زالت معدلات الادخار عالية جدا، وتتدفق سنويا من الكليات أعداد واسعة من المهندسين والفنيين كما خلقت القوة الشرائية القوية للعمال سوقا محلية مزدهرة وتستثمر الحكومات بشكل أكثر فى الاسكان، والبنية الاساسية والخدمات العامة وبوجه عام فإنه باستبعاد وقوع حرب فى شرق آسيا، أو ركود واسع الانتشار فإن المؤشرات تشير إلى أن النمور الاربعة على وجه خاص هى الافضل بين معظم الآخرين لكى تنمو فى الثروة والقوة المتكاملة.

أمريكا اللاتينية بين الاندفاع والتراجع:

رغم التنوع فى الخطوط والامكانات الاقتصادية والبشرية والتاريخية بين دول أمريكا اللاتينية مابين متوسط دخل دول صغيرة مثل جزرالبهاماس (١١.٣٣ دولار) لعام ١٩٨٩ ودولة مثل بوليفيا أو جيانا(٧٢٤ - ٩٩٠ دولار) رغم هذا التنوع فثمة اسبابا للنظر فى مستقبل امريكا اللاتينية ككل، فالتحديات الاقتصادية التى تواجهها متشابهة، وكذلك الحال مع السياسات الداخلية وبوجه خاص : رهافة ديمقراطيتها البازغة، كما أن كلا منها تتأثر بعلاقاتها مع العالم المتقدم خاصة الولايات المتحدة

وكما هو الحال مع بعض أو معظم الدول الافريقية فإنه مع استثناءات قليلة جدا (شيلى / كولومبيا/ الدومينيكان/ باربادوس وبهاماس) فإن متوسط دخل الفرد من مجموع الناتج القومى فى معظم دول امريكا اللاتينية الآن يقل عما كان قبل ذلك بل وحتى منذ حقبتين واسبابا هذا التراجع يمثل تناقضا صارخا مع الاقتصاديات الجديدة لدول شرق آسيا

فبدلا من تشجيع رجال الصناعة على توجيه صناعاتهم إلى التصدير ودفع النمو الصناعى من خلال ذلك اتبعت معظم حكومات امريكا اللاتينية سياسة احلال الواردات وبنت

صناعاتها الخاصة فى الصلب والاسمنت والورق والسيارات والصناعات الالكترونية والتى منحت حماية تعريفية ومعونات حكومية واعفاءات ضريبية لحمايتهم من المنافسة الاجنبية ونتيجة لذلك أصبحت منتجاتهم أقل جاذبية فى الخارج - من ناحية أخرى صاحب النمو الاقتصادى سياسات مالية لينة واعتماد متزايد على الاقتراض الخارجى. وقد صبت الحكومات الاموال ليس فقط فى البنية الاساسية والمدارس ولكن أيضا فى المشروعات المملوكة للدولة وفى البيروقراطية والقوات المسلحة ذات الحجم الكبير وتدفع فى كل هذا بطبع النقود والقروض من البنوك الغربية والموسسات الدولية. ونتيجة ذلك كله أن نصيب الانفاق العام من مجموع الدخل القومى قد تزايد كما زاد التضخم بمعدلات سريعة، كما وجدت بعض حكومات امريكا اللاتينية نفسها من اكثر الدول المدينة فى العالم حيث بلغ مجموع ديون امريكا اللاتينية ما يوازى ١٠٠٠/ دولار بالنسبة لكل رجل وامرأة وطفل ومع هذا وبدلا من توجيه هذا المجال فى الاستثمار الانتاجى ضاع هذا المال فى الانفاق على الانفاق الاستهلاكى واختفى كرأس مال طائر إلى الحسابات الخاصة فى الولايات المتحدة واوروبا.

كذلك ساهمت عوامل ضعف أخرى فى ابطاء أي امل فى الشفاء احدهما هو الانجازات الضعيفة للنظم التعليمية ولم يكن هذا يرجع إلى الافتقار إلى المدارس والجامعات كما هو الحال فى اجزاء من افريقيا فعديد من دول امريكا اللاتينية تمتلك مؤسسات تعليمية واسعة من الجامعات والمدارس، ومعدلات عالية من التعليم، فلدى البرازيل مثلا ٦٨ جامعة، والارجنتين ٤١، أما السبب الحقيقى فيعود إلى الاهمال ونقص الاستثمارات الموجهة إلى التعليم. أما السبب الآخر فهو أنه - وخاصة فى الدول اللاتينية الفقيرة فإن الموارد التى يمكن توجيهها للتعليم تمتصها الزيادة لسكانية السريعة.

رغم أوجه الضعف هذه، فإن التقارير الحديثة عن امريكا اللاتينية توحى بأن حقبة الثمانينات الضائعة سوف يتلها فترة شفاء . فالنظم الديمقراطية التى ظهرت وما تم من حلول وسط حول مشكلة الديون واعادة جدولتها، والاصلاحات الاقتصادية الحازمة (خفض الانفاق العام، والتخلي عن الـ indexation لخفض معدلات التضخم واستبدال سياسة حماية الدولة بتحرير الواردات والخصخصة وتحويل العجز فى الميزانية إلى فائض، كل هذا دفع بنكى التنمية لدول امريكا اللاتينية لكى يعتقد أن مرحلة انطلاق حاسمة وحقيقية، أصبحت فى متناول اليد، بشرط

استمرار السياسات الجديدة..

غير أنه من غير الاكيد ما اذا كانت هذه التغيرات سوف تكون كافية خاصة وأن الحكومات الديمقراطية الجديدة تواجه غضبا منتشرا حول الاصلاحات المقترحة وكما لاحظ المراقبون فإن معظم دول امريكا اللاتينية تدخل حقبة التسعينات فى سباق بين التدهور الاقتصادى والتغييرات السياسية وانه فى الوقت الذى تحركت فيه دولا مثل اسبانيا والبرتغال واليونان نحو الديمقراطية وهى تتمتع بمستوى معقول من الازدهار فإن امريكا اللاتينية ـ شأنها شأن شرق اوروبا ـ عليها أنت حدث هذا التغيير واقتصادها يترنح، الامر الذى يلقى بمسئوليات ضخمة على القيادة السياسية.

العالم الاسلامى و ضرورة تبديد المخاوف:

وينتقل بول كنيدى إلى الاوضاع ومؤشراتها فى العالم الاسلامى المعاصر ويعتبر بداءة أنه اذا ما احتاج المرء لنموذج عن أهمية الاتجاهات الثقافية فى توضيح استجابة مجتمع ما لقوى التغيير ، فإن الاسلام المعاصر يقدم مثل هذا النموذج.

فى هذا الاطار يرى كنيدى اختلافا اساسيا بين أن يواجه مجتمعا ما ضغوطا سكانية وقصورا فى أوضاع التعليم

والتكنولوجيا والصراعات الاقليمية وجميعها أوضاع تتحدى أزكى القادة وبين أن تقف نظم الحكم نفسها موقفا غاضبا من قوى واتجاهات التغيير التى تحدث فى العالم بدلا من أن تستجيب بشكل انتقائى لمثل هذه الاتجاهات كما فعلت نظم شرق آسيا.

أما فى العالم الاسلامى فإنه ابعد عن الاستعداد للقرن الواحد والعشرين.

ومعظم دول العالم العربى والاسلامى تبدو غير قادرة على أن تتوافق حتى مع ظروف القرن ١٩ بميراثه العلمانى، والديمقراطى والاقتصاديات الحرة والحوار الثقافى.

ويعطى كنيدى نظرة خاصة لما تضيفه الدول غير المتساوية للبترول فى الشرق الاوسط من عوامل التعقيد والتوتر السياسى والاجتماعى بين وحداته وبشكل أنشأ أوضاعا من الغنى الفائق والفقر الرهيب وبشكل لا يوجد فى مناطق أخرى مثل امريكا الوسطى وافريقيا جنوب الصحراء.

ويستخدم كنيدى هجوم العراق على الكويت وما آثاره من استجابات متباينة وبشكل صور النقسام بين الاغنياء والفقراء فى العالم الاسلامى ، ويتساءل كنيدى ازاء هذا هل يصبح من المستغرب أن تنجذب الجماهير الفقيرة العاطلة فى المدن إلى

قوى التطرف الدينى أو الرجال الاقوياء الذين يخاطبون غيرتهم الدينية؟

بالإضافة إلى هذه الاختلافات الاجتماعية التى تقسم دول الشرق الاوسط وشمال افريقيا، فإن كنيدى يركز على قضايا الحروب والصراعات التى تؤثر على مستقبلها بأكثر مما يؤثر على منطقة أخرى من مناطق العالم النامى، فإلى جانب الصراع العربى الاسرائيلى يورد صراعات أخرى مثل تلك القائمة بين سوريا والعراق وأيران والعراق وخلافات الحدود بين دول الخليج وقضايا الشيعة والاكراد ويصاحب هذا قيام نظم اصولية فى ايران والسودان والجماعات الارهابية فى المنفى التى تهدد بتصفية خصومها، كما يتضح أوضاع عدم الاستقرار بين الجماهير علامات استفهام حول مستقبل عدد من النظم. هذا فضلا عن النظم الديكتاتورية الاقطاعية والمغالية فى المحافظة.

ويناقش بول كيندى وجهة النظر الغربية القائلة بأن الإجابة على مشكلات العالم الاسلامى تبدو فى برنامج تعليمى واسع النطاق لا يقوم على مجرد الحصول على مهارات فنية وإنما على تطوير الخطاب البرلمانى والتعددية وثقافة المجتمع المدنى، وقد كان هذا هو طريق الاستقرار السياسى والنجاح الاقتصادى الذى حققته دول اسكندنافيا واليابان.

ويرد كنيدى على وجهة النظر هذه بأنها إذا كانت صحيحة فإن أصحابها سوف يجدون ملامح قليلة منها فى العالم الاسلامى المعاصر، ففى البلدان التى تقوى فيها الاصولية فإن المرأة وهى نصف السكان ليس لديها فرصا كبيرة للتعليم أو التقدم الاجتماعى وفى الوقت الذى تتوفر فيه اعداد من المهندسين والفنيين فإنهم غالبا ما يعبأون لأهداف الحرب كما هو الحال فى العراق. وتمتلك مصر نظاما جامعيا واسعا ولكن لا يقابله فرص عمل لخريجيها وللعمال المهرة وبشكل يبقى ملايين منهم فى حالة بطالة، وعلى النقيض فإن الدول البترولية الغنية قد صبت موارد ضخمة فى الجامعات والمدارس والمعاهد الفنية ولكن هذا وحده ليس كافيا لكى يخلق ثقافة المشروع التى تقود إلى ادخال الانتاج المتجه إلى التصدير وفقا لما اتبعته دول شرق آسيا.

ويختتم كنيدى ملاحظاته عن العالم الاسلامى بالتساؤل عما اذا كان سبب الظروف الصعبة لهذا العالم تعود إلى أسباب تاريخية أو حضارية ويعتبر أنه من الصعب الإجابة على هذا السؤال. وينبه إلى أن النقاد الغربيين الذين يشيرون إلى التعصب وعدم التسامح الدينى، والتخلف التكنولوجى والعقلية القطاعية الموجودة فى المنطقة ينسون أنه لقرون قبل حركة

الاصلاح الاوروبى ، قاد الاسلام العالم فى الرياضيات وعلم رسم الخرائط والطب والعديد من وجوه العلم والصناعة كما ضم هذا العالم مكتبات وجامعات ومراكز فى وقت لم تكن اليابان أو امريكا تمتلك شيئا من هذا ولم تكن أوروبا تمتلك إلا القليل غير أن مثل هذا الرصيد قد ضحى به أمام إحياء الفكر التقليدى والانقسام الطائفى بين المسلمين السنة والشيعة، وانحسار الاسلام على ذاته وتخلفه عن التاريخ كما ذكر أحد الكتاب ربما كان استجابة إلى صعود أوروبا الناجحة المتوسعة. وينهى بول كنيدى ملاحظاته عن شعوب العالم الاسلامى بالقول بأنها تعانى بوضوح من مشكلات من صنعها ولكن إذا كان قدراً كبيرا من غضبتها واتجاهات المواجهة نحو النظام العالمى اليوم يعود الخوف الذى يتملكها لمدة طويلة منان يستوعبها ويبتلعها الغرب فإنه لا يمكن تغيير مثل هذه الاتجاهات حتى تتبدد هذه المخاوف.

إفريقيا: التغيير والكارثة:

وينتقل بول كنيدى إلى مناقشة أوضاع القارة الافريقية أو على وجه التحديد افريقيا جنوب الصحراء والتى تضم ٤٥ دولة افريقية والتى وصفها بعض الكتاب أنها العالم الثالث للعالم

الثالث فيقدم صورة مليئة بعوامل الاحباط ويقتبس قول شخصية افريقية أنه اذا ما اعتبرنا التطورات التى تحدث فى العالم وقارناها بما يجرى فى افريقية فإنه يصعب التصور أننا نعيش فى نفس الفترة التاريخية. كما يورد ما استخلصه بعض الاقتصاديين بأن افريقيا جنوب الصحراء تعانى من مزيج من المعوقات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والمؤسسية والبيئية والتى تحدث حتى الآن جهود الحكومات الافريقية والدول المانحة فى التنمية.

ويلاحظ كنيدى أن هذه الروح لم تكن سائدة عندما استقلت افريقيا منذ ثلاثين عاما، حقيقة كان ثمة تخلف اقتصادى ولكن كان يفترض أنه نتيجة حقب من الحكم الاجنبى أدى إلى الاعتماد على سوق عالمى واحد، وثقافة واحدة والافتقار إلى مصادر رأس المال أما بعد الاستقلال فقد كان من المفترض أن كل هذه الظروف قد تغيرت يضاف إلى ذلك ورغم أن بعض المناطق كانت فى حاجة إلا أن افريقيا ككل كانت مكتفية بذاتها فى الطعام بل وتصدره وخارجيا كانت الدول الافريقية تحتل أهمية بالغة فى الأمم المتحدة والأجهزة الدولية الأخرى.

ويتساءل بول كنيدى عما وقع من خطأ ويرده إلى عدة أسباب من أبرزها الانفجار السكانى فسكان افريقيا كانوا يتزايدون

بالفعل فى الستينيات بمعدل ٢.٦٪ قفزوا إلى ٢.٩٪ فى السبعينيات ثم زادوا عن ٣٪ فى الثمانينات بما يعنى تضاعف حجمهم كل عشرين عاما، وهو ما يمثل اعلى نسبة فى أى منطقة فى العالم كما انه ليس ثمة امل فى وقف سريع لهذه الزيادة بسبب نظام المعتقدات الافريقية التى تتعلق بالخصومة والأطفال والأجداد والمرأة وعقيدة السلف فى النظر إلى عدم إنجاب الأطفال أو الأسرة الصغيرة باعتباره من عمل الأرواح الشريرة. وعلى هذا ينشد الأفارقة أكبر عدد ممكن من الأطفال ويصبح معيار المرأة الفاضلة هو مقدار ما يمكن أن تنجبه . وهكذا فإن الاتجاهات الاجتماعية التى أدت بالنساء فى امريكا الشمالية وأوروبا واليابان لتأخير حمل الأطفال، مثل التعليم وطموح مستقبلهم الوظيفى. والرغبة فى الاستقلال، نادرا ما تقوم فى المجتمعات الافريقية وحين تظهر سريعا ما تكتبها الضغوط العائلية.

ومما ضاعف من عبء التزايد السكانى أنه لم يكن يصحبه زيادة مماثلة أو أكثر فى الانتاج والتى كانت يمكن أن تحول الصورة.

فخلال الستينيات كان الانتاج الزراعى يرتفع سنويا بمعدل ٣٪ وبشكل كان يساير الزيادة السكانية ولكن من السبعينيات

نمـا الانتـاج الزراعى بنصف هذا المـعـدل فـقط. ويرجع هذا الانحدار إلى عديد من الاسباب الداخلية والخارجية منها موجات القحط وتآكل المصادر الزراعية نتيجة لرعى الماشية، وقطع الغابات لاستخدامها كوقود وحماية للسكان المتزايدين، والضرائب الثقيلة ، والسياسات الحكومية الالزامية فى التسويق هذا فضلا عن العوامل الخارجية فى الانخفاض العالمى لاسعار المواد الاولية ومنافسة منتجين من آسيا وامريكا اللاتينيين وبينما تدهورت اسعار المواد الاولية ظلت اسعار المنتجات المستوردة عالية، كما تضررت الدول الافريقية بشكل بالغ من تزايد اسعار البترول وقد زادت هذه الضربات من المديونية الافريقية وفى البداية كان الاتجاه إلى الاقتراض مدفوعا بالرغبة فى التحديث وتوجيه المال إلى مصانع الاسمنت والصلب والمطارات والموانى والخطوط و الجوية الوطنية ومشروعات الكهرباء والتليفونات غير أن معظم هذه المشروعات سرعان ما عانت من التدخل البيروقراطى ، والفقر إلى المهارات الشخصية والتخطيط غير الواقعى والخدمات الاساسية، وبشكل تقف معه الان نصف جاهزة أو تعانى تلك التى تمت من الصيانة والمتابعة.

وقد اتسع مجمل المديونية الافريقية من ١٤ بليون عام ١٩٧٣

إلى ١٧٥ بليون عام ١٩٨٧ وحين هبطت قدرتها على السداد بشكل سريع فى منتصف الثمانينات استهلكت فى سداد القروض حوالى نصف ما تكسبه افريقيا من صادراتها وهى نسبة اعلى حتى من دول امريكا اللاتينية المدينة.

ونتيجة لهذه الاوضاع فإن الاقتصاد الافريقى فى وضع اسوأ اليوم عما كان عليه عند الاستقلال ، وبخلاف دول قليلة مثل بوتسوانا وموريشيوس وربما كان ابلغ ما يصور محنة الامم الافريقية جنوب الصحراء أنها - باستثناء جنوب افريقيا وسكانها الذين يبلغون ٤٥٠ مليون يبلغ مجموع دخلها القومى اقل من مجموع دخل بلجيكا بسكانها الـ ١١ مليون كما يبلغ مساهمة القارة كلها فى مجموع الناتج العالمى ١٪.

وقد ساهمت خاصيتان افريقتان فى زيادة الوضع سوءا، الأولى هى شيوع الحروب والانقلابات وعدم الاستقرار السايسى وهى ظاهرة تعود فى جانب منها إلى الميراث الأوروبى فى تقطيع افريقيا حين خططت الحدود الافريقية دون اعتبار للاصلاحات القبائلية أوالعرقية أما نقطة الضعف الثانية فهى الاستثمار غير الكافى كلية فى الموارد البشرية والبحث العلمى والمهارة الفنية، فوفقا لأحد التقديرات فإن افريقيا تنفق أقل من دولار بالنسبة للفرد الواحد من السكان على البحث

والتطوير فى الوقت الذى تنفق فيه الولايات المتحدة ٢٠٠ دولار بالنسبة للفرد وبينما تبلغ نسبة العلماء والمهندسين فى اليابان ٣٥٤٨ فى كل مليون تبلغ فى افريقيا ٣٥.

إزاء هذه الاوضاع الافريقية يورد كينيدى اتجاهين فى تقدير مستقبل القارة. الاتجاه الاول الذى يرصد - رغم مظاهر الضعف القائمة - علامات على التحول تبدو فى ما يحاوله عديد من القادة الافارقة على اقامة الاصلاح على أسس مؤسسة وفيما حصلت عليه مجتمعات افريقية من الدول الغربية والتكتل الدولى من قروض اضافية مقابل ما احدثته من مواءمات هيكلية فى اقتصادها وتوافق هذا الاصلاح الاقتصادى مع عودة المبادىء الديمقراطية فى القارة، والغاء التفرقة العنصرية فى جنوب افريقيا واستقلا ل نامبيا وتزايد الوعى لدى المثقفين الافارقة بالتحولات التى حدثت فى شرق آسيا فى راى.

هذا فضلا عن ان القارة الافريقية فى ذاتها تمتلك مصادر ضخمة من الموارد الزراعية والمعدنية بشرط استغلالها بشكل عاقل.

أما الاتجاه الثانى فهو الذى يرى أنه رغم هذه العلامات المشجعة فإن الظروف من المحتمل أن تظل على فقرها. فالزيادة السكانية - والتى لا يقابلها إلا ضحايا مرض الإيدز

وتناقص الاراضى المزروعة وامدادات الطعام وعبء المديونية وتحلل البينة الاساسية والانفاق المنخفض على الرعاية الصحية والتعليم والقوة المترسبة للعقائد الدينية والتقليدية والسيطرة القوية للبيروقراطية الفاسدة والولاءات القبلية والعرقية.. كل هذا يقف ضد القلة النسبية للقادة السياسيين الافارقة والمربين والعلماء والاقتصاديين الذين يدركون الحاجة إلى التغيير.

وينهى **كنيدى** استطلاعه للاوضاع الافريقية يقول بأنه أيا كانت صحة أيا من هذين الاتجاهين فإن الحقبة القادمة ستكون حاسمة بالنسبة لافريقيا وحيث ستقدم حتى الاستعادة الجزئية للصحة اساسا للأمل ومن ناحية أخرى فإن حقبة أخرى من الانحدار مع التزايد الأكثر للسكان لن تكون نتيجته إلا الكارثة.

ويستخلص **كنيدى** من عرضه السابق لامكانيات واستجابات الدول النامية للقوى العريضة فى التغيرات العالمية أن الفجوة بين النجاح والفشل سوف تتسع. ويطبق هذا بوجه خاص على مجالين هامين هما السكان والبيئة واثارهما وتفاعلاتهما. فما اتضح من العرض السابق حول التزام دول شرق آسيا بالتعليم والانتاج والنمو القائم على التصدير وما نتج عنه من مستويات عالية من المعيشة سوف تسمح لهذه المجتمعات أن تنتقل إلى حجم الاسرة الاصغر وهو الوضع الذى يتناقض مع مجتمعات

افريقيا جنوب الصحراء التى تتجه فيها معدلات السكان بفضل العوامل التى تتجه فيها معدلات السكان بفضل التى سبق ايضاحها لا إلى الانخفاض وإنما إلى العكس، وخطورة هذا الوضع لأنه ينتشر ويلقى عبئا مضاعفا على كل مجال من مجالات زراعة وامدادات الطعام، وتوسع المدن غير المخطط، والضغوط على التعليم، والبناء الاجتماعى والاعتماد على واردات الطعام من الخارج على حساب تزايد المديونية والتوترات العرقية وحروب الحدود.

ولنفس الاسباب فإن ما ينطبق على توقع الاستجابة غير المتساوية للدول النامية لتحديات نمو السكان ينطبق أيضا على الاستجابة لتحديات البيئة وامكانات النجاح والفشل فيها وحيث ستكون دول شرق آسيا ومواردها وخاصة المالية والتكنولوجية والبشرية المدربة اكثر استعدادا للتعامل مع هذه التحديات والتى بافتقارها لمثل هذه الموارد تجعل من الصعب الاستجابة للكوارث البيئية من فيضانات وجفاف وغيرها بما يؤدى إليه من موجات ضخمة من اللاجئين والهجرة.

ويعطى كنيدى اهتماما خاصا لتضافر عوامل السكان والبيئة على زيادة الصراع على مصادر الطاقة وخاصة المياه ويشير بوجه خاص إلى الشرق الاوسط حيث أصبحت امدادات المياه

من اكبر مصادر القلق. فالفرد الاوروبى المتوسط يستخدم الآن ثلث الكمية التى يستخدمها الفرد فى اسرائيل وبأمل ضئيل فى زيادة امدادات المياه ومع هذا فإن سكان الاردن متساوين تقريبا على عدد سكان اسرائيل ويتوقع تضاعفهم فى العشرين عاما القادمة. كما يشير كنيدى إلى مؤشر المياه بدول المنطقة مصر والسودان واثيوبيا والعراق وسوريا وتركيا حول مياه الفرات والعرب واليهود حول امدادات الابار فى الضفة الغربية المحتلة وطموحات السعودية فى زراعة القمح حتى تستنفذ طبقاتها المائية الصخرية وهو نفس ما سيحدث مع مشروع ليبيا الضخم فى سحب المياه تحت الصحراء. ازاء كل هذه المشاكل الضخمة تبدو الافكار الكبيرة حول الاستعداد للقرن الواحد والعشرين وبشكل متزايد أمرا غير ذى موضوع وتصبح القضية الاساسية الشاغلة هى البقاء والمجتمعات النامية وإلا التكنولجيا .

المجتمعات النامية والتكنولوجيا:

واتصالا بالتحديات التى تواجهها الدول النامية فى القرن القادم يتعرض بول كنيدى إلى قضية على جانب كبير من الأهمية وهى معانى التكنولوجيا الحديثة التى يطورها الغرب

بالنسبة للمجتمعات النامية فالثورة التى تحدثها التكنولوجية الحيوية فى الزراعة الحديثة والمخصبات الاكثر تقدما تحمل امكانية زيادة الحاصلات فى الدول النامية وتخفض الضغوط على الاراضى وتعيد الاكتفاء الذاتى الزراعى وتحسن ميزان المدفوعات وترفع من مستويات المعيشة ورغم هذا فإنه من الممكن أيضا أن نتوقع أن المشروعات الكيماوية الزراعية فى العالم الاول يمكن أن تحتكر معظم المعرفة والارباح التى يتضمنها مثل هذا التحول فى الاساليب الزراعية ومثل هذه الاساليب يمكن أن تفرض اسعار المواد الاولية وتضر بالمجتمعات التى يشتغل معظم أهلها بالزراعة. فتحويل انتاج الطعام من المزرعة التى المعمل سوف يقتطع من امكانيات المجتمعات الزراعية الامر الذى يجعل يعرض خبراء التكنولوجيا الحيوية فى مجال التنمية عون إلى تخطيط جاد وإلى التحول الزراعىConvergence بما يعنى التحول إلى نشاطات اقتصادية اخرى.

وبينما يتنوع سبب استخدامات التكنولوجيا الحيوية فإن هذه لاينطبق على الانتاج القائم على الانسان الآلى. ومتطلبات مثل هذا الانتاج يوحى أن بلادا مثل تايوان وكوريا سوف تتبع نموذج ـ اليابان من باب القلق أن صناعة اليابان المدارة ذاتيا

سوف تجعل انتاجهم غير قادر على المنافسة. من ناحية أخرى فإن المصانع التى تدار ذاتيا وتجمع السلع بشكل اسرع واكثر انتظاما واقتصادية سوف تفرض تحديا على الاقتصاديات ذات الحجم المتوسط والتى سوف تقتطع من الميزات النسبية التى تتمتع بها. وبالنسبة للبلاد التى ليس لديها قاعدة انتاجية فإنه من الصعب رؤية كيف يمكن أن يكون لثورة الانتاج.. القائم على الانسان الآلى أى معنى اللهم إلا زيادة الانتقاص من قيمة المورد الذى يمتلكونه بوفرة وهى اعداد البشر الفقيرة المتخلفة التعليم.

ويتساءل كنيدى فى النهاية عما اذا كان ثمة سبيل لاحداث تحول فى هذه الاتجاهات ويجيب بأنه من الواضح أن مجتمعا يتأثر بقوة بنفوذ الاصوليين والملالى وكراهية التحديث ليس من المحتمل أن يلحق بالاقتصاد العالمى ولن يلحق بالعالم الذى تتلاشى حدوده اذا مكان شعبه يعتقد أنه سيكون اكثر صحة واكثر نقاء روحيا إن لم يكن أفضل له اقتصاديا أن يظل خارج هذا العالم، كما انه ليس لنا أن نتوقع أن بلدا تسيطر عليه نخبة وتتحكم فيه فى السلطة وتدعم قوتها العسكرية - حيث انفقت الدول - النامية حوالى ١٥٠ مليون دولار على السلاح والجيوش عام ١٩٨٨ وحدها سوف تندفع فى تقليد اليابان أو سنغافورة.

ولكن ماذا عن هذه المجتمعات التى تريد أن تحسن نفسها ويعيقها فى هذا ظروفا صعبة؟ هناك فى ذلك العديد من الدول النامية التى تعتمد غالبيتها على تصدير الطعام والمواد الأولية تواجه انخفاض اسعار هذه المواد فى السوق العالمى وزيادة على ذلك ورغم أناالكثير من المساعدات الدولية توجه إلى العالم النامى، تتدفق فى الحقيقة أموالا أكثر بكثير من البلدان الفقيرة فى افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية إلى الدول الغنية فى أوروبا والولايات المتحدة واليابان بما قيمته ٤٣ بليون دولار سنويا على الاقل، من هذه الاموال التى تتدفق فى شكل تسديد الديون واعادة الارباح وهروب رأس المال والرسوم ومصاريف براءات الاختراع وخدمات المعلومات تجعل من الصعب على البلدان الفقيرة أن تقف على قدميها وحتى لو استطاعت أن تزيد من إنتاجها الصناعى فإن النتيجة يمكن أن تكون ارتفاعا فى نفقات الاعتماد التكنولوجى تضاف إلى اعتمادها على الجنوب فى امدادات الغذاء والمعونة الطبية.

هذا وفيما ينتهى كنيدى، تدخل الدول المتقدمة القرن المقبل وهى تمتلك كل الأوراق الرابحة.. رأس المال الفائض ومواد الطعام المواصلات الشركات المتعددة. القوميات فى الوقت الذى تتآكل فيه المزايا التقليدية التى كانت تتمتع بها الدول

النامية مثل العمالة والمواد الأولية الأمر الذى يجعلها أكثر اعتمادا على أوروبا والولايات المتحدة عما كانت عليه منذ قرن مضى.

وفى مواجهة هذه الفجوة التى تتزايد بشكل مزعج بين الاغنياء الفقراء فى عالم اليوم - يناقش كنيدى الاتجاهات التى مازالت تعتمل داخل دول العالم الثالث حول مناهج ادارة مجتمعاتها واقتصادياتها فيشير إلى الاتجاه الداعى إلى تدخل الدولة وعدم المنافسة المفتوحة فيذكر بخبرة هذه التجربة والتى وإن كانت قد حافظت على الانتاج الوطنى فى المدى القصير إلا أنهما جعلته اقل كفاءة وأقل قدرة على استيعاب التكنولجيات الجديدة التى يمكن أن تجعل السلع أكثر قيمة وتقدما أما من يدافعون بشكل مطلق عن قوى السوق فإنهم يتجاهلون الصعاب السياسية التى ستواجهها حكومات الدول النامية فى رفع الاسعار وبيع الصناعات الوطنية وخفض الدعم على السلع الرئيسية كما يتناسون أن التوسع التجارى المشهود لليابان والدول الصناعية الجديدة فى شرق آسيا قد اجرته دولا قوية تحاشت الأخذ حرفيا بنظام الاقتصاد الحر وهكذا وبدلا من تبنى صورة مطلقة للنظام الاشتراكى أو السوق الحر فإن البلدان النامية فى تقدير كنيدى يمكن أن تأخذ بالاستراتيجيات

المختلطة لشرق آسيا والتى تجمع بين المشروع الخاص والاشراف الحكومى.

على أية حال وأيا كانت الصورة المتشائمة التى يقدمها بول كنيدى لمعظم مناطق وشعوب العالم الثالث وهى تقدم على القرن الواحد والعشرين إلا أن القضايا التى يطرحها ضغوط السكان التدهور البيئى معانى الثورة التكنولوجية متطلبات التغيير والقوى المناهضة، الفجوة بين الغنى والفقر، الافتقار إلى نموذج اقليمى للنهضة على غرار النموذج الذى قدمته اليابان لشرق آسيا الاهتداء لنظام رشيد ومتوازن لادارة الاقتصاد والمجتمع، هذه القضايا رغم أن معظمها تمثل مادة الحديث والنقاش اليومى فى هذه المجتمعات إلا أن تفضل الاستاذ كنيدى أنه يقدمها بشكل متماسك وفى سياق من الخبرة والتجربة العالمية وبشكل يجعل لها رنينا خاصا ودافعا إلى مستوى آخر لا من مجرد الحوار.. القومى وإنما إلى العمل الذى يدرك خطورة هذه القضايا ومؤشرات الواقع ويتصرف على اساسها.

ويتساءل بول كنيدى فى القسم الذى أفرده عن الولايات المتحدة الامريكية وعن مدى استصدارها لاستقبال القرن الواحد والعشرين وعما اذا كانت مؤهله له، وكيف سنستجيب لقوى التغيير القادمة على مدى الحقب القادمة وماهى عناصر

القـوة والضـعف فى الوضع الامـريكى وحـدى اسـتـصـدادها لمواجهة التحديات العالمية الجديدة؟

وفى محاولة اجابته عن هذه التساؤلات لمايقرره بول كنيدى ابتداء أنه فى المجال التقليدى وهوالقوة العسكرية، فإن من الواضح أن الولايات المتحدة لا تجاريها إلى دولة أخرى بما فيها روسيا والصين، حقيقة أن كلا منهما تمتلك قوات أرضية ضخمة إلا أن ثمة شكوكا جادة حول نوعيتها واستراتيجيا فإن الولايات المتحدة تمتلك درعا كاملا من نظم الصواريخ الأرضية والجوية لردع أى قوة فى مهاجمة الولايات المتحدة وحلفائها وتكنولوجيا فإن خدماتها المسلحة ضرورة كل تحارب ما يسمى smart wars مستخدمة كل شيء أبتداء من التقاذفات والمقاتلات المتسللة stealth bombers وأسلحة القتال الليلى، ومن خلال الاقمار الصناعية وطائرات التحذير المبكر ونظم الرصد السمعية فى المحيطات حيث تمتلك قواتها الوسائل لرصد يطلقه خصومها واخيرا فإن الولايات المتحدة هى الدولة الوحيدة التى لديها مقدرة الوصول على المستوى العالمى من خلال اساطيلها وقذائفها الجوية وقواتها الأرضية فى كل جزء استراتيجى فى العالم مع القدرة على دعم هذه المواقع فى حالة الطوارىء..

غير أن بول كنيدى بعد رصده لهذه القوة العسكرية وماتكسبه من مكانة للولايات المتحدة فى الشئون الدولية إلا أنه يعتبر أنها ليست بالضرورة نعمة على الأمة الامريكية ككل فالاتفاق العسكرى العالى قد سبب ضررا اقتصاديا واعطى ميزة للمنافسة الاقتصادية مثل المانيا واليابان وهو الوضع الذى دفع بعض المفكرين الاستراتيجيين الامريكيين إلى مناقشة امكانية سحب قوات من اوروبا والتركيز على مناطق التهديد فى العالم النامى ودفع البعض الآخر للتساؤل حول جدوى القوة العسكرية بوجه عام طالما أن التهديد لأمريكا قد لا يأمن الاسلحة النووية وأنها من الكوارث البيئية والمخدرات وفقدان القدرة على المنافسة الاقتصادية وهكذا يبدو الارتياح لاحتفاء الاتحاد السوفيتى كعدو يظلله عدم التأكد من الدور الملائم للولايات المتحدة فى العالم.. وتدعيم منطق من يجادلون بأن القول أن على امريكا أن تقود العالم bound to lead إنما يضع اعباء على الشعب الامريكى ويحول الموارد من الاحتياجات الداخلية، فإذا كانت ميزانية التسلح الامريكى التى بلغت ٣٠٠ بليون دولار سنويا . قد ضمنت الامن لامريكا، إلا أنها أيضا حولت موارد مالية وبشرية وعمالة ماهرة ومهندسين وعلماء وسحبتهم من الانتاج المدنى.

على أن كنيدى فى استعراض للوضع الاقتصادى الامريكى وتأثره بالاتفاق العسكرى يقرر أنه بالنظر إلى حجم وتعقد هذا الاقتصاد فإنه من المستحيل تصنيفه على أساس أنه لا أمل فيه أو أنه بالغ القوة والأصح أنه مزيج من عناصر القوة والضعف غير أن الحقيقة الأكيدة وأخذا بوضع الاقتصاد الامريكى فى مجموعه فإن الولايات المتحدة لن تستطيع الاستمرار فى تمويل نفس المستوى من الأمن العسكرى فى الوقت الذى تلبى فيه الاحتياجات الداخلية وتسديد ديونها.

وفى استقصائه لحالة الوضع الامريكى يركز كنيدى على عدد من مظاهر التراجع والقصور فى البيئة الاقتصادية والعملية والديموجرافية للولايات المتحدة ويذكر فى هذا أن الاقتصاد الامريكى الذى تمتع منذ القرن ١٩ بأعلى مستوى من الانتاجية فى العالم ورغم أن مجموع ناتجه القومى فى الوقت الحاضر ماذا الأكبر من اليابان والمانيا إلا أن مصدر القلق أن أمما أخرى قد زادت من انتاجتها بمعدل أسرع منذ الستينات ويدرس كنيدى عددا من الظواهر الاجتماعية السلبية فى الحياة الامريكية مثل نظام الرعاية الصحية ودلالته الاجتماعية فالافتقار لنظام قومى كفء وفعال للرعاية الصحية هو الذى يجعل للولايات المتحدة ذات أكبر معدل وفيات اطفال بين الدول

الصناعية الكبرى واقلها فى نسب العمر والاطباء ويبدو هذا يشكل أكثر فى التباين بين البيض والسود، كذلك يرصد كنيدى من هذا الظواهر الاجتماعية للسلبية التباينات فى هيكل الثروة والدخول فى الولايات المتحدة حيث يصل دخل المديرين فى المتوسط ٩٠ مرة أكثر مما يحصل عليه عمال الصناعة وحيث تضع اجور ٢٠٪ من الامريكيين السود ٢٠٠٪ من ذوى الاصل اللاتينية تضعهم فى اقل من مستوى خط الفقرة ويرتبط بهذه ظواهر المخدرات التى تفديها الجريمة والتى أصبحت فى الولايات المتحدة اعلى من أى مكان متقدم فى العالم أما عن حالة تعليم فإن كنيدى يقر بأنه بمعايير كثيرة فإن الولايات المتحدة تمتلك أروع نظام للتعليم الجامعى فى العالم واعظم مجموعة من جامعات ومؤسسات المبحث العلمى وبأنها حققت اعلى نسبة من المكانة العالمية والتى تنعكس فى جوائز نوبل ومن هذه الجامعات ومراكز البحث تخرج كتيبة سنوية من الشخصيات العلمية الخلاقة التى يعتمد عليها الاقتصاد الامريكى. غير أنه بخلاف التعليم العالى فإن الصورة تبدو أقل تشجيعا وتجعل العديد من الامريكيين قلقون من الظاهرة المتزايدة أن المستويات العامة التعليم لعام منذ الحضانة حتى التعليم الثانوى. تبدو متوسطة القيمة نسبيا وتجعل الطلاب

الامريكيين يخسرون فى الاختيارات الدولية مع اقرانهم فى بلدان اوروبا الغربية والبلدان الاسيوية وخاصة فى الرياضيات والعلوم.

غير أنه رغم كل هذه الاتجاهات التى تدعو للقلق فإن العديد من المعلقين الامريكيين يركزون على الملامح الايجابية مجتمعهم النشط المتنوع فعندهم ما زالت الولايات المتحدة اكبر اقتصاد فى العالم (اذا لم نحسب المجموعة الاوروبية ككل، وهى تمثل مركز جذب الطلاب المهاجرين وثقافتها الشعبية ظاهرة فى العالم كله وهى تمثل النموذج والمثل للنظام الرأسمالى الذى تحداه أعداؤها الايديولوجيين وخسروا امامه وبسبب قوتها العسكرية الضخمة ونفوذها الدبلوماسى فإن الانظار تتحول إليها حين تنشأ أزمة كافية داخلية مطلوبة إلا أنهم يجاربون أن الخطر الرئيسى أن الشعب الامريكى يظن أن بلاده فقيرة وعاجزة بينما هى فى الواقع غير وقوية فإذا ما استطاعت أن تتخلص من مزاجها الحالى وتجرى بعض الموا فسوف تكون الأمة القائدة فى العالم فى القرن الواحد والعشرين ومثلما كانت خلال الخمسين عاما الماضية.

بعد هذا الاستعراض لعناصر القوة الامريكية الايجابية والسلبية يناقش بول كنيدى سؤالا مركزيا وهو كيف سيتعامل

المجتمع الامريكى الهموم بوضعه الحالى مع التغيرات العالمية العريضة إلى أى حد تقف الولايات المتحدة مستعدة للقرن المقبل؟

فى سبيل الاجابة على هذاالسؤال يبدأ كنيدى باستعراض عدد من التغيرات الداخلية الامريكية وخاصة التغيرات الديمجرافية التى ستعيد تركيب المجتمع الامريكى فمع بداية القرن الـ ٢١ ستواجه الولايات المتحدة عددا اكثر من المسنين فبينما كان هناك فى الستينيات ١٦ مليون امريكى عمره اكثر من ٦٥ عاما فإن هذا العدد قد تضاعف تقريبا عام ١٩٩٠ حيث وصل إلى مليون ومن المقرر أن يصل إلى ٥٢ مليون عام ٢٠٢٠ كذلك سوف تتأثر الولايات المتحدة بالتركيب العرفى الذى سوف يتغير كذلك فنجد السكان يبدو واثقين أن السكان البيض سوف يتناقصون وهو ما يرجع جزئيا إلى توقع زيادة واسعة فى الهجرة المشروعة وغير المشروعة خاصة من امريكا اللاتينية وآسيا وكذلك الاحتلال فى معدل المواليد بين البيض وغير البيض وتختلف تقدرات الجراء حول الاثار الاقتصادية والاجتماعية لمعدلات الاعمار الهجرة فى الولايات المتحدة ببعضهم يعبر عن القلق من أن تزايد نسبة المسنين سوف تسبب ركودا فى الاقتصاد ولذلك فهم يدعون إلى الحد من

الهجرة باعتبار أن موجات الهجرة في الماضى كانت وراء صعود الولايات المتحدة بينما يشير آخرون إلى حقيقة أن الهجرات الحديثة إلى امريكا تمتلك نسبيا مستويات تعليمية منخفضة ويتكدسون في اعماق المدن ويفرضون مطالب اضافية على الخدمات الاجتماعية.

والتعليمية ويتنبأ بعض خبراء السكان أنه ربما يصل ١٥ مليون مهاجر كل حقبة على مدى الثلاثين عاما القادمة وظهرت دعوات إلى اغلاق الباب كذلك يمكن للتغيرات الديموجرافية أن تزيد في اشتعال التوترات العرقية بين الافارقة وذوى الاصول اللاتينية خاصة حول الوظائف ومتى الآسيويين والأمريكيين الافارقة (حول التعليم) وكذلك في تغذية التوتر العنصرى من البيض الفقراء.

مستقبل القوة الامريكية

لم يكن المـؤرخ الامريكى بول كنيدى وعمله الضـخم «صعود وهبـوط القـوى العظمى» The Rise and fall of the Great Powers هو الوحيـد الذى تعـرض لأوضـاع القـوة الامريكية والمتغيرات الداخلية والدولية التى ألمت بها فى الحقب الماضية وبشكل رآه يهدد بتراجع مكانتها كالقوة الدولية الاولى فى النظام الدولى وبروز قوى جديدة تزاحمها هذه المكانة فـ بول كنيدى لم يكن إلا مـمـثلا لحركة ثقـافيـة نشـأت فى الولايات المـتـحـدة مع اوائل الثـمـانينات أصـبـحت تعـرف بمـدرسـة الاضمحلال The school of Decline وكان من رموز هذه المدرسة M. Dslon وكـتـابه الذى نشـر عـام ١٩٨٢ تحت عنوان:The Rise and Decline of Nations والـذى ركز فيه بوجه خاص على العوامل الاقتصادية التى تساهم فى تراجع القـوة الامريكيـة وايضـا D. Cello فى كتـابه Be-yond American Hegomony والذى ركـز فـيـه على العـوامل الخـارجيـة التى تؤدى إلى هذا التـراجع أمـا رمـز هذه

المدرسة الثالث فكان Wspondor فى كتابه Mortal Spendor والذى رصد فيه العوامل الداخلية والخارجية التى تصور أنها تتهدد المكانة التقليدية الامريكية ونستطيع أن نضم إلى هذه المدرسة صوت أوربى هو عام الاجتماع الفرنسى Micheal Crosier فى كتابه : The trouble with America والذى سجل فيه من خلال متابعاته الميدانية على مدى حقب تمتد من الاربعينات مظاهر التراجع الامريكى فى الميادين الثقافية والاقتصادية والسياسية بما ينبىء عن تبدد الحلم الامريكى.

أما رسالة هذه المدرسة فهى تستند إلى ثلاث افتراضات رئيسية:

- أن الولايات المتحدة تتراجع على المستوى الاقتصادى مقارنة بقوى مثل اليابان وأوروبا الغربية والدول الصناعية الجديدة، وفى هذا تركز هذه المدرسة على الاداء الاقتصادى وعلى العناصر العلمية والتكنولوجية والتعليمية المرتبطة بهذا الاداء

- أن القوة الاقتصادية هى العالم المركزى فى قوة أى أمة ومن ثم فإن هبوطا فى القوة الاقتصادية سوف يؤثر فى الابعاد الاخرى لقوة هذه الأمة.

- أن الانحدار النسبي في القوة الاقتصادية الامريكية إنما يرجع في الدرجة الأولى إلى انفاقها الكثير جدا على الاغراض العسكرية والذى هو بالتالي نتيجة لمحاولتها الاحتفاظ بارتباطات خارجية لم تعد تقوى عليها.

وفي هذا وفيما ترى هذه المدرسة - فإن الولايات المتحدة تكرر نفس التجربة وتواجه نفس المشكلات التي واجهتها قوى امبريالية سابقة مثل المملكة المتحدة وفرنسا واسبانيا.

وقد كان من الطبيعي أن تثير هذه المدرسة بمثل هذه النبوءة الخطيرة نقاشا واسعا داخل الحياة السياسية والفكرية الامريكية بل وفي أوروبا الغربية وكما حركت هذه المدرسة نقاشا على المستوى السياسي والاعلامي السريع، فقد خضعت كذلك للتحليل النقدي الاكاديمي والذى حاول تفنيد حجج وافتراضات هذه المدرسة وتقديم صورة اكثر تفاؤلا حول المستقبل الامريكي.

غياب البديل:

كان أول من تعرض لنقد هذه المدرسة على المستوى الاكاديمي هو الدكتور زيجنيور برجنسكي مستشار الأمن القومي الامريكي السابق والاستاذ الحالي بجامعة كولومبيا والذى بدأ بإقرار أنه سيكون من العمى التاريخي تجاهل علامات

التحذير التى تقدمها الخبرة التاريخية فيما يثير القلق مثلا أن نتذكر أن الفترة الاولى من اضمحلال الامبراطوريات الرومانية والفرنسية والعثمانية قد اتسمت بالتضخم الاقتصادى والعجز فى الميزانية والاهتمام بالهذب والتوسع الخارجي المكلف والتفكك الداخلى ومبدأ القوة وسيادة النزعة المادية، غير أن برجنسكى يرى اختلافات بين هذه الظروف وبين الوضع الامريكى اليوم وتبدو هذه الاختلافات فى أنه فى كل حالات اضمحلال الامبراطوريات فإن التآكل الاقتصادى والذى حدث فى الأغلب من خلال الحروب، قد أدى إلى اضمحلال سكانى بشكل كبير وتلاه انهيار فى النخبة السياسية الحاكمة الامر الذى لا يتحقق فى التجربة الامريكية المعاصرة فحتى فى التوسع الضخم فى الانفاق العسكرى الامريكى فإنه لم يرتفع فوق ٧٪ من مجموع الناتج القومى الكلى ورغم أن الحرب فى فيتنام قد أدت إلى انخفاض فى معنويات المجتمع بشكل كبير إنها لم تسبب خسائر على نطاق واسع، والواقع أن الحقب الماضية قد شهدت صبا لدم جديد وغنى وخلاق فى القيادة الاجتماعية والسياسية بأجيال المهاجرين الجدد من آسيا وأمريكا اللاتينية بعد أن كانت تسيطر عليها فى الماضى الصفوة التقليدية وخاصة من المجتمع اليهودى وهذا الدم

الجديد هو الذى مكن من استمرار ديناميكية الاحياء والتجديد الاجتماعى.

ويضيف **برجنسكى** إلى هذا الاختلاف اختلافين آخرين يراهما أكثر أهمية: فالإنحدار النسبى للتفوق الاقتصادى الامريكى العالمى إنما يحدث لا على الرغم من امريكا وإنما بسببها فقد حدث هذا نتيجة لسياسات معتمدة ومستمرة - الدعم الامريكى لأوروبا الغربية واليابان عبر عدة حقب منذ نهاية الحرب الثانية. ورغم هذا الاختلاف فإن **برجنسكى** ينه إلى أنه لا يغير حقيقة وقوع هذا التراجع النسبى وأن ما هو مهم هو حقيقة هذا التراجع لا أسبابه أو دوافعه ومع هذا فهو يعود إلى التذكير باعتبارات لا يجب تجاهلها فالتغير فى مركز امريكا الاقتصادى العالمى ليس نتيجة لسياسة تتبعها قوة منافسة أو معادية تهدف إلى أن تحل محل الولايات المتحدة في مرتبة التفوق العالمى، ولكنه نتيجة ما يعتبره سياسة تعاونية كانت الولايات المتحدة هى التى بادرت بها الامر الذى يخلق نسيجا مختلفا من العلاقات الدولية من اهم معالم هذا النسيج أنه فى الماضى كان تراجع قوة ما عن مكانة السيطرة يعود إلى بروز قوة جديدة ومؤهلة لأن تحل محلها أما هذه المرة فإن الاختلاف الاساسى الذى يراه **برجنسكى** هوغياب البديل والمنافس الذى يمكن أن

يشكل قوة تحل محل الولايات المتحدة فى وضعها الدولى.

فأوروبا الغربية لن تكون فى المستقبل القريب مركزا موحدا للقوة السياسية قادرا على أن يحل محل امريكا فى دورها العالمى كما أن تطلعات اليابان فى القوة السياسية والعسكرية تطلعات متواضعة وهكذا فإن القوتين الرئيسيتين المستفيدتين من اعادة توزيع القوة الاقتصادية العالمية لا تمثلان منافسا سياسيا فى الأولوية العالمية. أما الاتحاد السوفيتى فهو لا يمثل فى تحليل برجنسكى إلا منافسا ذو بعد واحد one Dimensional وهو البعد العسكرى هذا فضلا عن أن الثمن الذى دفعه الاتحاد السوفيتى فى بلوغ قوته العسكرية هو أنه قد أصبح فى وضع غير تنافسى على المستوى السياسى والايدولوجى والاقتصادى وهوالاعتبار الذى يقف وراء جهود وسياسات جورباتشوف فى اعادة البناء الداخلى وسياساته ومبادراته الخارجية.

اضمحلال ام تجديد؟

وكانت الشخصية الثانية التى تعرضت بالنقد لأفكار **بول كنيدى** ومدرسته هو البروفسور **صامويل هنتيجتون** مدير مركز العلاقات الدولية بجامعة هارفارد الذى شرع يناقش حجج هذه المدرسة وخاصة ماتستشهد به من عجز فى الميزانية الامريكية

وصل فى العام المالى ١٩٨٨ ما قيمته ١٥٥ بليون دولار - عن حق - على أن - التدفق الكبير فى الاموال الاجنبية قد ذهب إلى الاستهلاك لأعلى الاستثمار وأن الولايات المتحدة تعيش سعيدة فى حالة من الرفاهية لا تتفق مع امكانياتها وتسيطر عليها بيكلوجيه (كل واشرب وامرح) كل هذا يعيد إلى الاذهان نماذج اسبانيا فى نهاية القرن ١٦ وفرنسا ١٧٨٠ وبريطانيا عام ١٩٢٠ ويصدق هنتيجون على كل هذه الظواهر ولكنه يختلف فى أن العجز الذى تعانى منه الولايات المتحدة ليس نتيجة ضعف الاقتصاد الامريكى وإنما نتيجة السياسات الاقتصادية لإدارة ريجان وكما ظهر هذا العجز بشكل سريع نتيجة مجموعة سياسات فإنه يمكن عكسه أيضا وبشكل سريع بسياسات أخرى. بل إنه يعتبر أن مثل هذا التحول قد بدأ فعلا جزئيا بفعل تغيير ادارة ريجان لسياساتها وجزئيا بسبب سياسات تبنتها حكومات أخرى ومن ناحية أخرى بسبب عمل الاقتصاد الدولى الذى يولد بشكل طبيعى اتجاهات توازنية. هذا فضلا عن توقع أن تتبع الادارة التالية لادراة ريجان سياسات تهدف.. بشكل جاد إلى خفض هذا العجز.. كما يناقش حجة انخفاض نصيب الولايات المتحدة فى الانتاج العالمى - والذى كان عام ١٩٤٥ يمثل ٤٠ - ٤٥٪ من هذا الانتاج وبلغ عام ١٩٨٤ ما قيمته

٢٥,٢٪ ويتابع تطور هذا الانتاج عبر العقب الخمس الماضية ويقارنه بتطور نصيب قوى أخرى مثل اليابان واوروبا الغربية من الانتاج العالمى ويخلص إلى القول أنه بمعايير تطور الاقتصاد الدولى فى مجموعة فإن الناتج القومى الامريكى كما يمثله اليوم ما زال متماسكا وصحيا.

أما الحجة الثالثة لانصار مدرسة الاضمحلال والخاصة بانخفاض نسب المخدرات الامريكية والتى انخفضت خلال السبعينيات والثمانينات ما بين ٨,١٤ - ٨,١٩ ٪ مقابل ١,٢٧٪ - ٩,٣٢ اليابان فإن **هنتيجون** يصدق أيضا على اعتبار أن نقض الادخال والاستثمار هى مظاهر ضعف هيكلية تتطلب تصحيحا إذا ما اريد الاحتفاظ بالنمو الاقتصادى ولكنه يخطىء هذه المدرسة فى محاولتها تفسير ذلك يضعف الاداء الاقتصادى الامريكى كما يخطئها فى قولها أن المبالغة فى الانفاق لأغراض عسكرية تغطى على الاستثمار مناجل التنمية الاقتصادية الامر الذى يؤدى إلى الركود الاقتصادى وهو يستخدم فى رفضه هذا لا لمنطق ما يردده **بول كنيدى** ومدرسته من أن عبء السياسات الامبريالية يصبح ضخما حين يبلغ ١٠٪ أو أكثر من انتاج المجتمع فنصيب الدفاع من الانتاج القومى الامريكى هويقع ما بين ٧ - ٦٪ وهكذا فإن منطق **كنيدى** وزملائه كان ينطبق بشكل أكثر على الاتحاد السوفيتى الذى

يتفق ١٨ ـ ١٧٪ من مجموع انتاجه القومى هذا فضلا عن أنه وبشكل عام فإنه ليس هناك دليلا مقارنا يوحى بأن الانفاق العسكرى هو بالضرورة عبء على التقدم الاقتصادى بل أن بعض المحللين يجادلون بأن الانفاق الدفاعى يشجع على النمو الاقتصادى ويخلص **هنتجتون** إلى اعتبار أنه إذا ما تداعت الولايات المتحدة اقتصاديا فلن يكون ذلك بسبب تواجد جنودها فى مناطق مختلفة من العالم وإنما لأن رجالها ونساؤها واطفالها ينغمسون بشكل مبالغ فيه فى ملذات الحياة فالروح الاستهلاكية وليست العسكرية هى التهديد للقوة الامريكية وبعد تحليله لحجج انصار مدرسة الاضمحلال يناقش سؤاله المقابل الذى طرحه عما اذا كانت الولايات المتحدة تمر بمرحلة انحدار أم تجديد ويبدأ بما يقرره انصار هذه المدرسة من أن التوسع الخارجى وليس الركود الداخلى هو السبب الرئيسى لانحدار الأمم ويعتبر أن هذا المنطق يناقض تقليدا فى الفكر السياسى وجد منذ ايام ـ **أفلاطون و أرسطو** الذى يركز على القدرة الداخلية لمجتمع ما اذا ما اراد تجديد نفسه ووفقا للصياغة الجديدة لوجهة النظر هذه فإن المجتمع ينحدر عندما يجعل الركود البيروقراطى والاحتكار والطبقات المغلقة والجهود الاجتماعى والترهل التنظيمى وتصلب شرايين الامة حين يجعل من التجديد والتكيف

امرا صعبا أو مستحيلا وعلى النقيض من هذا فإن المجتمعات الناجحة هى تلك التى تجد وسائل لدعم ديناميكية شبابها ويشجع المنافسة والحركة والمرونة والفردية والانفتاح وجميعها صفات تمنع مجتمع ما من أن يقع في شرك شبكة من الصفقات التواطئية حيث يستفيد كل فرد على حساب الآخرين، من هذا المنظور يستخلص هنتجتون أن الولايات من بين القوى الكبرى هى أقل احتمالا لأن تنحدر ذلك أنها تتميز بإنفتاح اقتصادها وبالحركة وبتدفق الهجرة إليها.

ولايقتصر التحليل هنتيجون للعناصر التى تضمن تجديد المجتمع الامريكى على العوامل الداخلية فقط فثمة عناصر دولية للقوة فإن كان الاختيار النهائى للقوة العظمى هو قدرتها على تجديد قوتها فإن العوامل الداخلية السابقة أنها تكتمل بثلاث عناصر اساسية تميز المركز الامريكى فى الشئون الدولية.

أول هذا العناصر الدولية أنه على نقيض القوى العظمى الأخرى أن القوة الامريكية متعددة الابعاد Multi - Dimensional فإذا كان مركز الاتحاد السوفيتى الدولى كان ينبع اساسا من قدراته العسكرية واليابان من ادائها الانتاجى ومواردها المالية ودولة مثل السعودية من مواردها البترولية فإن هذه القوة التى تعتمد على عنصر واحد تصبح معرضة بشكل

كبير لهبوط هذا العنصر من القوة التى تخصصت فيه، وعلى نقيض من هذا فإن الولايات المتحدة تقف بشكل غير عادى فى وضع مرتفع فى جميع المصادر الرئيسية للقوة حجم السكان وتعليمهم الموارد الطبيعية النمو الاقتصادى المتماسك الاجتماعى، الاستقرار السياسى ، الانجاز التكنولوجى، القوة العسكرية، الجاذبية الايديولوجية والتحالفات الدبلوماسية.

وهى نتيجة لهذا قادرة على أن تتحمل أى تراجع فى أحد هذا العناصر فى الوقت الذى تحتفظ فيه بتفوقها الكلى المستمد من مصادر أخرى. ومن هذا يستخلص هنتيجون أنه فى الوقت الراهن ليس هناك دولة تستطيع أن توجه تحديا شاملا متعدد الابعاد للولايات المتحدة وربما بإستثناء واحد.

أما العامل الدولى الثانى فى رأى **هنتجتون** الذى تتميز به الولايات المتحدة فهو ينبع من مركزها الهيكلى فى السياسة العالمية والذى يضعها فى موضع القيادة والمشاركة فى المشكلات والمنازعات الدولية وعلى ما قد يبدو - يجعل وجودها مطلوبا فى عدد من المناطق.

ويناقش **هنتجتون** الاحتمال الاكثر شيوعا وهو أن تحل اليابان محل الولايات المتحدة فى المكانة العالمية فى القرن المقبل فيستبعد هذا الاحتمال فعنده أن اليابان لا تمتلك الحجم

أوالمصادر الطبيعية أو القوة العسكرية أو الانتماءات الدبلوماسية أو ما هو أكثر أهمية الجاذبية الايديولوجية لكى تصبح قوة أعظم.

أما التحدى الحقيقى والممكن الذى قد تواجهه الولايات المتحدة فهو يأتى فى نظر **هنتجتون** من اوروبا الموحدة فالمجموعة الاوروبية اذا ما أصبحت متماسكة سياسيا سيكون لديها السكان والموارد والقدرة الاقتصادية والتكنولوجيا والامكانية العسكرية الفعلية لكى تصبح القوة الاولى فى القرن الواحد والعشرين فإذا كانت اليابان والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى قد تخصصوا على التوالى فى الاستثمار والاستهلاك والسلاح فإن أوروبا توازن الثلاثة وهكذا ينتهى هنتيجون إلى أنه لم يكن القرن القادم هو القرن الامريكى فإن الاكثر احتمالا أن يكون القرن الاوروبى.

رؤية أوروبية لعناصر القوة والضعف:

ومثلما انضم إلى مدرسة الاضمحلال فى تحليلها وتوقعها للوضع الامريكى أخذ المفكرين الفرنسيين كذلك كان من بين من تعرضوا لافكار هذه المدرسة بالنقد اكاديمى فرنسى هو **دومينيك مواسى**. نائب مدير معهد العلاقات الدولية بباريس

الذى يعتبر أن بداية الشعور بالاضمحلال الامريكى ليس شيئا جديدا فالحرب الفيتنامية قد دمرت الاحساس الامريكى العميق بالتفوق كذلك وصول الاتحاد السوفيتى إلى مرحلة التعادل فى القوى الاستراتيجية والأزمة البترولية عام ١٩٧٣ وأزمة الرهائن عام ١٩٨٠ وقد جاء انتصار ريجان لكى يعكس القومية الامريكية المحيطة كما يفسر اعادة انتخابية عام ١٩٨٤.

غير أن مواسى يعتبر أن ما يميز الاحساس والنقاش حول الاضمحلال الامريكى اليوم هو ملامحه المحددة جدا فبينما كانت مظاهر الاضمحلال الامريكى فى السبعينيات نتيجة لحماقات سياسية فإنها تعود فى نهاية الثمانينات إلى حقائق اقتصادية قوية لا يمكن الهروب منها.

ويقول مواسى أنه من أجل تقييم عناصر قوة وضعف الولايات المتحدة فى المستقبل بشكل متوازن فإنه من الضرورى تحليل طبيعة الاضمحلال الامريكى والتعرف بدقة عما اذا كان نزعة عابرة أم أنه يمثل واقعا لا يمكن الرجوع عنه أو تحويله.

ويعبر مواسى أنه إذا قارنا الوضع الامريكى اليوم بوضعه فى اعقاب الحرب الثانية مباشرة فإن الاضمحلال النسبى للقوة الامريكية هو أمر لا يمكن انكاره وخاصة فى حالة الاقتصاد الامريكى إلا أن مواسى شأنه شأن زميليه الامريكيين

برجنيسكى وهنتيجون يرد هذا الوضع إلى نجاح السياسة الامريكية بعد الحرب فى نشر النمو الاقتصادى بين حلفائها الذين سيصبحون منافسيها الاقتصاديين فى المستقبل اليابان واوروبا الغربية إلا أنه على المدى الطويل فإن انتشار النمو الاقتصادى هو بالتأكيد أقل مدعاة لعدم استقرار بالنسبة للولايات المتحدة عنه بالنسبة للاتحاد السوفيتى فالعالم المتعدد الاقطاب اقتصاديا الذى اتاحه انتشار النمو الاقتصادى سيكون حافزا للولايات المتحدة عن المنافسة وللعمل بشكل شاق لكى تظل قدرتها التنافسية فى عالم اقتصاد مفتوح ويضيف مواسى إلى هذا أنه إذا نظرنا إلى المستقبل فإن الولايات المتحدة - شأنها شأن اليابان - مهيأة تماما لمواجهة الثورة التكنولوجية الثالثة - وعلى هذا يستخلص مواسى أنه من الضرورى التمييز بين الانحدار النسبى Relative Decline للقوة الامريكية والذى يماثل مرحلة الحالة الطبيعية والناجمة عن الجهود الامريكية فى الحقل الاقتصادى وبين حالة الانحدار المطلق Absolute Decline والذى يعنى أن قوة ما قد تجاوزت شبابها وهو الوضع الذى لا يراه منطبقا على امريكا اليوم.

غير أن مواسى لا يكتفى بنفى حالة الاضمحلال المطلق عن الولايات المتحدة نتيجة لأوضاعها الداخلية وإنما يدعم رأيه

بتصور لتطور النظام الدولى وقواه الرئيسية فى المستقبل. فإذا كان الاتحاد السوفيتى هو المنافس الرئيسى للولايات المتحدة على الزعامة العالمية فإن مواس يرى أنه على كل الجبهات فإن مشكلات الاتحاد السوفيتى أكثر خطورة وتعقيدا من مشكلات الولايات المتحدة وهذا الوضع هو الذى يجعل مصير الاتحاد السوفيتى وأهمية ونتائج وإمكانية استمرار نظام جورباتشوف وليس الولايات المتحدة هو السؤال المركزى اليوم فيما يتعلق بتطورات النظام الدولى.

ويخلص مواس إلى أنه حتى لو نجح جورباتشوف فى الحد من أزمات المجتمع السوفيتى فإنه من غير المحتمل أن يلحق الاتحاد السوفيتى بالولايات المتحدة حى يعد أن يصبح مركزها عاديا فى العالم وافتقادها لحالة التفوق المطلق التى كانت تتمتع به.

أما فيما يتعلق بالمرشحين الآخرين لكى يخلفوا الولايات المتحدة في الزعامة العالمية فإن مواس يعتبر أن اوروبا الغربية هى حقا فنون تجارية واقتصادية ولكن ليس لديها التماسك السياسى الكافى أو القوة العسكرية المستقلة الكافية لكى تبرز كقوة فاعلة على المسرح الدولى فى المستقبل القريب. وتواجه الصين نفس المعضلة التى كان يواجهها الاتحاد

السوفيتى فى مواءمة الاصلاح مع المبادىء الشيوعية وإن كانت يمكن أن تشكل منافسا ممكنا فقط فى المستقبل البعيد، كذلك فإن المحيط الباسفيكى لن يمثل بالنسبة للقرن ٢١ ما كان عليه البحر المتوسط فى القرن ١٦ حيث كان مركز العالم فالمحيط الباسفيكى يفتقر إلى التماسك والوحدة الثقافية والقوة العسكرية.

أما اليابان فإنها وهى تعيد تحديد دبلوماسيتها فإنها تواجه معضلة حاسمة وهى معضلة الهوية Identity فهى وإن كانت لتبنيها النظم الديمقراطية ونجاحها الاقتصادى قد رحب بها فى نادى الدول والديمقراطيات الغربية إلا أن الغرب لا ينظر إليها كجزء متكامل منه ويرى أن دور اليابان الطبيعى والسياسى والأمنى يقع فى آسيا إلا أن مشاعر الشك والقلق مازالت تحيط بوضع اليابان فى قارتها هذا المعضلة فى رأى مواسى هى التى تحد من قدرة اليابان على أن تصبح قوة سياسية كبرى.

غير أنه إذا كان مواسى قد استبعد ظهور قوة كبرى فى المستقبل القريب يمكن أن تحل محل الولايات المتحدة إلا أنه يتوقع أن وضع الولايات المتحدة سيكون فى عالم الغد وضعا عاديا Normal وسوف تكون أقل قدرة عن الماضى فى الاعتماد على تفوقها الطبيعى بل أن الاستمرار والاحتفاظ بهذا

الوضع سوف يتطلب عددا من المتطلبات من أهمها نوعية جديدة من الرئاسة فالقيادة الكفء يعتقد أن الولايات المتحدة قد افتقدتها منذ ايزنهاور - ودبلوماسية خبيرة بوقائع العالم والقوى الحقيقية الفاعلة وبشكل لا تكرر اخطاء فيتنام وايران وكذلك سياسة خارجية تبدى حساسية اكثر للاحداث - الخارجية مما تعطيه الاعتبارات سياستها الداخلية كما هو الحال فى علاقتها مع اسرائيل وجنوب افريقيا.

وينتهى مواسى لى أن الولايات المتحدة وهى تدخل مرحلة جديدة فى تاريخها كقوة عادية فإن توصل الامريكيين إلى توافق فى الرأى Consemsus سيكون أكثر أهمية من أى وقت مضى فسيكون عليهم أن يتفقوا حول أى مجتمع يريدونه فى الداخل وأى دور على بلادهم أن تلعبه فى العالم والثمن الذى سيدفعونه فى ذلك.

امريكا بعيون غربية

رؤيتان فرنسيتان لامريكا يفصل بينهما مائة وخمسون عاما. ورغم اتفاقهما فى الهدف وهو الدراسة النقدية للحياة الامريكية والمجتمع الامريكى ومؤسساته إلا أنهما يختلفان فى مراحل التطور التى يدرسانها ، وأيضا فى المنظور الاجتماعى والوضع الطبقى لكل منهما فصاحب الرؤية الأولى هو Alexis De Tocqueville وهو احد ابناء الارستوقراطية الفرنسية قام برحلته الامريكية عام ١٨٣١ حينما جذبته هذه التجربة التاريخية التى تأسست فى العالم الجديد، وجذبه اكثر اساسها ونظامها الديمقراطى الذى انصبت دراسته عليه، وقاس جميع جوانب الحياة الامريكية ومؤسساتها من منظور ومدى تأثرها به.

أما صاحب الرؤية الثانية فهو عالم الاجتماع فرنسى آخر Michel Crozier بدأ رحلاته إلى الولايات المتحدة فى نهاية الاربعينات واستمرت على فترات متقطعة حتى اوائل الثمانينات اتاحت له الدراسة المقارنة لمراحل التطور الامريكى وما واجه نظامها من متاعب وتحديات. واذا كان **ألكسيس دى توكوفيل** قد درس النظام الامريكى من موقع الارستوقراطية

الفرنسية، فإن مايكل كروزيير يعتبر نفسه ممثلا لهذا الفريق النادر من اليسار الفرنسى الذى يحب امريكا.

دى توكوفيل والديمقراطية فى امريكا

وصل توكوفيل إلى الولايات المتحدة فى مايو عام ١٨٣١ ثم عاد إلى وطنه فرنسا فى فبراير ١٨٣٢ ورغم قصر اقامته التى بلغت اقل من عام فإن خلاصة هذه المرحلة التى صدرت فى كتابه الديموقراطية فى امريكا Demporacy In America قدمت لقرائه ودارسى الشئون الامريكية وصفا صافيا تحليليا وتنبؤيا فيما يتعلق بكل جانب من جوانب الحياة الامريكية ورغم مضى أكثر من مائة وخمسين عاما على صدوره - حيث صدرت طبعته الاولى عام ١٨٣٥ - فإنه يعتبر الآن من أهم، أن لم يكن أهم كتاب كتب عن النظام الامريكى. ونستطيع أن ندرك عمق تاثيره ومدى الاحاطة التيتميز بها من أنه ما من تطور سياسى أو اجتماعى أو دستورى يمر بالولايات المتحدة اليوم إلا ويستشهد المحللون بما ورد فى الكتاب من وصف وتحليل وتنبؤ بل أنه فى فترات انتخابات الرئاسة الامريكية نجد أن المرشحين لها يضمنون بياناتهم وخطبهم فقرات من الكتاب.

ويشمل الجزء الأول من هذا العمل الكلاسيكى النقدى عرضا

مـخـتـصـرا للابعـاد المـادية للعـالم الجـديد ولأصـوله الانجلوسكسونية، ثم لأكثر خصائصه جذبا للانتباه إلا وهى النظام الديموقراطى وما يعنيه من سيادة مطلقة للشعب، وهو ما ينتهى منه إلى الفكرة المحورية لكتابه والتى يناقش من خلالها تفاصيل الحياة الامريكية إلا وهى ما يسميه باستبداد أو طغيان الاغلبية.

ويعـالج الجزء الثانى من الكتـاب اثر الديمـوقراطيـة أو حكم الأغلبية على هيكل وديناميكية المجتمع الامريكى وحلل الطريقة التى يفكر بها الامريكيين ويشعرون ويتصرفون وعلى جوهر الحريات الامريكية فى هذا المجال يقدم **توكوفيل** فى الواقع اكثر اضافاته التنبؤية الفريدة للفكر المعاصر ونظراته النافذة للقيم ومبادىء السلوك الامريكى وفى هذا يسجل **توكوفيل** كيف أن الامريكيين يخضعون اهتمامهم بالحريات الفردية لاحترامهم وربما خوفهم من الاغلبية أو ما يطلق عليه **توكوفيل** الصورة المـهـيبـة للشعب ويلاحظ أنه بدلا من أن تسير المسـاواة والديمـوقـراطية جنبـا إلى جنب مع الحرية إلا أنهمـا - وباسم الاغلبية المقسة - قد مارسا استبدادا على العقول يفوق أى استبداد ظهر فى التاريخ وذهب **توكوفيل** فى هذا إلى حد القول أنى لا أعرف بلدا فيه قدر صغير من استقلال الفكر والحرية

الشخصية للنقاش كما فى امريكا.

غير أن توكوفيل لم يكن يقصد بذلك ادانة الديموقراطية الامريكية ولكن كان تحليله اساسا ينصب على اكتشاف مواطن الضعف والقوة فيهما وفى هذا يقول لم يكن هدفى من دراسة امريكا هو اشباع حب الاستطلاع وإنما اكتشاف ما يمكن أن نستفيده من هذه التجربة واعترف أنى رأيت أكثر من امريكا،

فقد كنت ابحث هناك صورة الديموقراطية ذاتها بإتجاهاتها وطابعها وتحيزاتها وعواطفها حتى يمكن أن نعلم ما الذى نخشاه أو نأمل فيه من تقدمها.

ومن ملاحظات توكوفيل الحكيمة ما اورده من اتجاهات الامريكيين ونزعاتهم الاقتصادية وحول حبهم الحاد للثروة وتفضيلهم للتجارة والصناعة وقدراتهم وامكاناتهم على النجاح المادى ويفسر ما حققه الامريكيين فى هذا بطموحهم البالغ وتكرسهم وتركيزهم على النشاط القائم على الربح، وفى هذا تنبأ بظهور ارستوقراطية صناعية لا ترحم Ruthless ومع هذا فقد تنبأ بملامح الاقتصاد الامريكى الذى لم يستطع من جاءوا بعده من النقاد الماركسيين أن يستوعبوه فقد اعتبر أنه فى الوقت الذى تعتبر فيه الارستقراطية الانتاجية التى تنمو أما اعيننا واحدة من اقسى الارستوقراطيات التى ظهرت فى العالم.

إلا أنها فى نفس الوقت اقلها خطرا... ويفسر توكوفيل هذا بأن ثروة هذه الارستوقراطية الانتاجية ليست قاصرة عليها وأن نجاحها ليس مصحوبا بانتشار الفقر الزائد، أو باستقطاب المجتمع بين الأغنياء جداً والفقراء جدا.

وفى فصل آخر يحلل **توكوفيل** ويتنبأ بإمكانيات التطور السلمى داخل النظام الامريكى بشكل يستبعد التطورات العنيفة والثورات ويعتبر أن الثورات إنما تقوم لتنظيم المظاهر الصارخة لعدم التكافؤ، ورغم أنه فى امريكا الديمقراطية التى تقوم على المشروع الفردى وحب الثروة سوف تنتج طبقة تمتلك ثروات ضخمة إلا أن الفقراء جدا سيكونون أيضا قليلى العدد وسوف تتميز الأغلبية بعدم الغنى وعدم الفقر بحيث سيكون فى يدها الميزان الذى سيقيم التوازن الاجتماعى، فالثروات ستكون موزعة بشكل حسن فى امريكا وليست مركزة، كما سيتميز الهيكل الطبقى بالمرونة Fludity والتداخل لا بالجمود والثبات الطبقى Startification .

ويواصل **توكوفيل** تنبوه بالوضع الطبقى والعلاقات الاجتماعية فى المجتمع الامريكى بقوله أن هذه الاغلبية سوف تمتلك الثروة الكافية التى تجعلها حريصة على المحافظة على النظام وعدم اثارة الضغينة واستقرار السلام الاجتماعى. وابناء

هذه الأغلبية هم الاعداء الطبيعيين للعنف وأهم ما يميزها هوالحرص على توازن نسيج المجتمع.

كذلك توقف توكوفيل فى مسحة للحياة الامريكى عند ولع الشخصية الامريكية بالعلوم.. العملية لا النظرية واهتمامها بالعمل لا فى بلوغه حد الكمال ، وإنما فيما يحققه من فائدة ونفع سريع وهى فى هذا تفضل المفيد على الجميل وإن تطلبت أن يكون الجميل مفيا أما ما يميز الشخصية الامريكية من طموح وقلق وعدم استقرار فهو ما يجعل حياة الامريكيين كلها تمر مثل لعبه الحظ أو كأزمة ثورية أو معركة فذلك الذى كرس قلبه إلى السعى إلى الرفاهية المادية فقط هو دائما متسرع وفى عجلة أمرة وليس لديه إلا وقت محدود لكى يحقق ما يريد ويستوعب ويستمتع .

ومن الفوارق التى سجلها توكوفيل فى الموضع الامريكى هى الحدود التي تتوقف عندها الحرية الكاملة، فمثل هذه الحرية قائمة كانت الأغلبية آخذة فى الطريق الذى سيسلكه ولكن تحزم الأغلبية أمرها فعندئذ يجب على كل معارض أن يتوقف وأن ينبذ كل خلاف ولا يتم بفعل ارهاب أو خوف من عقاب وإنما خوفا من ألم لا يحتمل وهو أن يبدو المرء منبوذا من المجتمع أو معزولا عن اقرانه لذلك فإنه مع الفردية الملحوظة فى المجتمع

الامريكى فإن ثمة ضربا من التوافق بل ربما التوحد والتشابه الذى يبلغ حد الرتابة.

ويتطرق **توكوفيل** من هذا إلى تحليل الديموقراطية الحديثة فيستخلص أن سعى الناس فى الأصل إلى الحرية كان لكسر اغلال عدم المساواة التى فرضتها الملكيات والارستقراطيات فى الماضى إلا أنه ما أن أصبحت ظروف الناس متشابهة وتحققت لهم المساواة النظرية والعملية فإن أهمية المجتمع واقداره قد زادت عن أهمية الفرد وأدى هذا إلى أنه فى مجتمع الديمقراطية القائم على المساواة أصبح الناس معرضين لأن يقعدوا فى الزحام بين اقرانهم ويتناقض الاحترام الحترام لحرياتهم الشخصية وفرديتهم ويصبحون غير مبالين بالتعبير الحر عن الفكر الفردى أو بأذواق أو رغبات الآخرين . وهكذا تتحول الديمقراطية والمساواة إلى عوامل توحيد ويصبح من المستحيل على رجل واحد أوبضع رجال قهر الكثرة، وفى نفس الوقت يصبح من المستحيل أيضا على فرد واحد أن يتحرر من قهر الأغلبية ومن هنا يصل **توكوفيل** إلى فكرته المحورية والتى مفادها أن الأغلبية الديموقراطية يمكن أن تصبح أكثر اشكال الاستبداد المطلق.

ويوجه **توكوفيل** نظرة فاحصة للحياة السياسية الامريكية -

والقوى التى تحكمها وتكوين الرأى العام فيها والدور الحاسم الذى تلعبه الصحافة فلاحظ أنه اذا كانت الحياه السياسية الامريكية تتميز بالنشاط بل والاثارة إلا أنها نادرا ما تتأثر بالمشاعر العميقة التى لا تثور إلا حين تتعرض المصالح المادية للضرر ويكفى القاء نظرة على جريدة امريكية وأخرى فرنسية لكى يتضح الفارق فى هذا الشأن بين الأمتين فى فرنسا نجد أن الساحة المخصصة للاعلانات التجارية محدودة جدا فى الوقت الذى يخصص الجزء الرئيسى من الجريدة لمناقشة سياسات واحداث اليوم أما فى امريكا فسنجد أن ثلاثة ارباع الجريدة تمتلأ بالاعلانات ولا يبقى للمناقشات الجادة مثل تلك التى تقدمها صحافة فرنسا لقرائها إلا ركن صغير ومن ناحية أخرى نجد أن الروح الطبقية للصحفيين الفرنسيين واضحة فى مناقشاتهم لمصالح الدولة الكبرى أما الصحفيين الامريكيين فهم يخاطبون بشكل مكشوف فج عواطف قرائهم وغرائزهم وهم فى هذا يتخلون عن المبادىء لكى يهاجموا شخصيات الافراد ويتابعون حياتهم الخاصة والكشف عن ضعفهم ورذائلهم غير أن هذه الجوانب السلبية فى الصحافة الامريكية لاتجعل توكوفيل يغفل عن النفوذ والتأثير الضخم الذى تمارسه على الحياة السياسية الامريكية فهى التى تنشر وتغذى هذه الحياة

السياسية عبر القارة الامريكية وعيونها دائما مفتوحة لكى تتحرى المنابع الخفية للخطط السياسية واستدعاء قادة الاحزاب السياسية وشخصياتها إلى محكمة الرأى العام وتجميع اهتمامات المجتمع حول عدة مبادىء وعقيدة كل حزب وحين يتبنى عددا منها نفس الخطط نفس القضية فإن نفوذها على المدى الطويل يصبح لا يقاوم وينتهى الأمر بالرأى العام إلى الاستسلام لهذا التأثير وهكذا فإن كل صحيفة منفردة، قد لا تمارس إلا نفوذا صغيرا أما قوة الصحافة مجتمعه فهى تتلو فقط قوة الشعب.

على أنه على الرغم من نظرات **توكوفيل** النافذة فى جوانب الحياة الامريكية إلا أن ثمة موضعين مال فيهما إلى التعميم ويفشل فى ادراك قوى التغيير التى تحدث فيهما، أما الموضع الأول فهو رؤيته لقوة وسلطة الرئاسة الامريكية حيث اعتبرها تقريبا بلا وظيفة وبلا سلطة ووصف بشكل مطول القوى التى تضعف الرئيس وتحد بشكل خطير من نفوذه واستخف بإمكانية أى رئيس على اتخاذ مواقف تتسم بالجراء والقدرة على القيادة وقد اصدر توكوفيل هذا الحكم فى وقت كان فيه رئيس امريكى هو أندرو جاكسون يتحدى المحكمة العليا ويفرض بقوة ارادته الكونجرس ويؤسس نمطا من الرئاسة القوية التى سيتبعها بعده

رؤساء مثل لينكولن و ثيودور روزفلت و ودرو ولسون و فرانكلين روزفلت .

أما المجال الآخر الذى فشل توكوفيل فى ادراك التغييرات التى تحدث فيه فهو فى تقديره لسلطة الولايات حيث بالغ فى تقريرها واعتبرها نقطة ضعف كامنة فى النظام الاتحادى. غير أن ما يشفع لـ توكوفيل أن زيارته لأمريكا قد جاءت فى وقت توافق مع بروز النزعة القاطعية وظهور صرخة الجنوب عن حقوق الولايات كما جاءت فى وقت كان العداء بين الشرق والغرب والشمال والجنوب مريرا بوجه خاص وعلينا ولهذا كان طبيعيا أن يتصور توكوفيل مزيدا من التدهور فى سلطة ومكانه الحكومة الوطنية وتزايد الولاء للولايات ومع هذا فإن النقاد يأخذون على توكوفيل أنه قد فاته الانتباه إلى قوى التماسك التى سوف تربط بين المائتى مليون امريكى فى القارة بأكملها ومن هذه القوى الثورة الصناعية ونظام المصنع وانتشار الواسع وشبكة المواصلات والسكك الحديدية المنتشرة عبر القارة والطرق التى لا نهاية لها بل أن نظام الغذاء والمسكن والافكار كانت من عناصر التوحيد التى ربطت ووحدت بين الامريكيين.

والواقع أن دراسة توكوفيل النقدية والتنبؤية لم تقتصر فحسب على جوانب امريكا الداخلية وإنما ايضا لمستقبل

الوضع الدولى للولايات المتحدة وكيف ستقاسم المكانة الدولية مع أمة قوية أخرى هى روسيا ففى الوقت الذى وضع فيه توكوفيل كتابه وحيث لم تكن أوضاع امريكا وروسيا تنبىء عن ما سوف تتطور أن إليه بعد فترة من الزمن كأقوى قوتين على المسرح الدولى يكتب توكوفيل.

هناك فى الوقت الراهن امتان عظيمتان فى العالم بدأتا من نقاط مختلفة ولكنهما تتجهان إلى نفس الوجهة إنى أشير إلى الروس والامريكيين فكلاهما قد نما دون أن يلحظهما أحد بينما كان انتباه البشرية متجها إلى وجهة أخرى وفجأة وضعا انفسهما فى مقدمة الصفوف بين الأمم وعلم العالم عن وجودهما وعظمتهما وفى وقت واحد تقريبا.

وتبدو كل الأمم وقد وصلت تقريبا إلى حدودهما الطبيعية ولم يعد أمامهم فقط إلا الاحتفاظ بقوتهم أما هاتان الأمتان فهما مازالتا فى مرحلة النمو وبينما توقف كل الآخرين أو استمرار في التقدم بصعوبة بالغة فإن كل من روسيا وامريكا يتقدمان بسهولة ووضوح عبر طريق لا يمكن تصور حدوده ويناضل الامريكى ضد عقبات وضعتها الطبيعية أمامه أما خصوم الروس فهم الرجال ويحارب الأول الفقر والوحشية بينما يحارب الآخر المدنية بكل أسلحتها ولهذا فإن مكاسب الامريكى تتحقق

عن طريق المحرات أما الروسى فإن مكاسبه يحققها السيف ويعتمد الانجلو سكسونى على المصلحة الشخصية لتحقيق غاياته وينتج نطاقا حرا للقوة التى لا يوجهها أحد ولإدراك الشعب أما الروسى فهو يركز كل السلطة في يد واحدة..

وبعد هذا التحليل لخصائص ومناهج الامريكى والروسى فى الحياة يطلق **توكوفيل** نبؤته العجيبة حول مستقبل ادوارهما فى الحياة الدولية ورغم أن نقاط بدايتهم مختلفة وطريقهم ليس واحدا ومع هذا فإن كلا منهم يبدو وكأن العناية الآلهية قد اختارته لكى يقرر مصائر نصف البشرية.

مايكل كروزيير ومتاعب امريكا:

على عكس **توكوفيل** الذى زار الولايات المتحدة مرة واحدة تمت زيارات كروزيير على فترات ولمدد متباعدة نسبيا اعطته الفرصة لكى يسجل ويقارن بين مراحل وتطور الحياة والمجمع والفرد الامريكى ويراقب القيم والمثل والدوافع التى وجهت اتجاه المجتمع الامريكى فى كل مرحلة ـ ومثلما سجل **توكوفيل** تجربته فى كتابه عن الديمقراطية فى امريكا سجل كروزيير تجربته فى مراحلها المختلفة فى كتابه.

فقد بدأ كروزيير اتصاله بالحياة الامريكية عام ١٩٤٧ حيث

قضى عاما ونصف بناء على منحة دراسية لكى يضع كتابا عن اتحادات العمال الامريكية ثم عاد إليها أعوام ١٩٥٦ ثم ١٩٦٠ فى هذه الفترات بدت له امريكا كأرض سعيدة وبين للتقدمَ والثقة ولا يملك الفرد الفكاك من جاذبيتها التى لا تقاوم وكان ما خرج به من هذه الفترة هو الأمل الذى لا حدود له وهو أمل كان خاليا من العنف ولا حركة إلا الحوار المخلص الخلاق وكانت قطاعات المجتمع التى يتصل بها يحكمها جميعا ويسيطر عليها نفس الحماس والكرم والمثل العليا الباحثة عن الكمال وفى هذه الفترة أيضا اكتشف وتعرف على امريكا الاكاديمية وبجامعاتها المتميزة ومراكز البحث فيها والدور الذى تلعبه فى بناء التقدم والقيم والمعايير العملية والاكاديمية الخالصة التى كانت تتوج حياتها حيث توفرت حرية البحث بلا شروط أو قيود الا شرط واحد هو احترام معايير العمل العلمى وكان اكثر الناس احتراما فى حقل دراستك ويستمعون إليك بلا تردد ويدعونك إلى مكاتبهم لا لكى يبهروك أو يحتالوا عليك - مثلما كان يفعل الاكاديميين فى هذا الوقت وإنما على أمل أن يكونَ لديك شىء تخدم به الحقيقة وبفضل هذه القدرة على الاتصات جمعوا من هذه الثورات المتفرقة حول الحقيقة رصيدا يعتمد عليه.

فى هذه الفترة أيضا شاهد كروزيير ظهور دور ومكانة ما

سوف يعرف فى الحياة الفكرية والثقافية الامريكية بمراكز البحث Think Tanks التى قامت على اساس اكتشاف عددا من المتفقين الذين اثبتوا انفسهم وجمعهم معا وتحريرهم من القيود الادارية والاجتماعية بقدر الامكان.

والانفاق عليهم بوفرة وتركهم يفكرون بحرية وانتظار ما سوف يخرجون به وكان نتيجة هذا هوالمكانة الفائقة التى أضفتها هذه المراكز على عملية التفكير وكانت النماذج التى تطورت عليها هذه المراكز هي نموذج معهد برنستون للدراسات المتقدمة والذى كان أينشتين من نجومه المتألقة ثم معهد بروكنجز Brookings ثم حيث بدأ هرمان خان حياته الاكاديمية وأصبح بالتفكير فيما لا يمكن التفكير فيه اسطورة عصرة وبعد فترة انقطاع امتدت من ١٩٧٠ - ١٩٨٠ عاد كروزيير إلى زيارتها فى ربيع عام ١٩٨٢ للتدريس فى جامعة هارفارد وهي الزيارة التي يقول انه واجه فيها تجربة مرعبة فمع ان كل شيء كان كما هو إلا أن الوضع قد اختلف فى جانب خطير وهام وكان الذى اعتراه التغير هو معنى وهدف الوجود الامريكى حيث تبدد الحلم ولم يخلف وراءه إلا البلاغة المنسقة والخالية من أى مضمون وحيث انخفضت معنويات الاوساط الجامعية والشباب ودخلت اتحادات نقابات العمال مصيدة

المفاوضات العقيمة وفقد صناع القرار سيطرتهم وادراكهم للواقع وبات الاقتصاد تحت رحمة الريح المتغيرة وعاقت البيروقراطية تقدم المؤسسات الكبيرة بل أن احصاءات مكتب الاحصاء لم يعد يعتمد عليها وبدت امريكا وكأنها قد فقدت اتجاهها.

وفى اوساط هارفارد ابرز المراكز الاكاديمية وجد الطلاب - على السطح - كما كانوا دائما منكبين على العمل متفتحين واذكياء إلا أنه لمس فيهم الحزن وكان المستقبل يبدو أمامهم موصدا لا يوصل إلى شيء وربما كان فى الامكان اقامة نوع من الحوارمعهم واقناعهم أن فى بلادهم لا يكفى فيها أن يكون المرء مثقفا ولكن هناك دائما مكان للقادر على أن يحارب غير أن هذا لا يعنى أنهم سوف يستجيبون إليك تلقائيا فإذا اعتمدت على ذلك فلن تصل إلى شيء فقد شبوا فى عالم ران عليه القدم ومن ثم فقدوا اقدامهم بل تعداه إلى اللامبالاة وفتور الشعور وربما إلى الاحساس بالفشل وطعم السخرية كما لاحظ كروزيير رد فعل معاكس الشباب يتجه بهم إلى تحطيمهم الرموز التى عبدتها امريكا يوما وإلى أن يطلوا صورها الايجابية وأن يتبنوا بدلا منها وجهات نظر تقوم على العداء والاشمئزاز تجاه كل شيء من ناحية أخرى وجد أن الطلاب

الموهوبين لم يعودوا ينجذبون إلى مجالات البحث وهؤلاء الذين بقوا فيه فقدوا الشعور القديم بالإثارة أما الأساتذة الكبار فقد اعتزلوا فى أبراجهم العاجية وشغل مناصب مساعديهم مرشحين متوسطى القدرات وكان نتيجة هذا ان انخفض المستوى الخلاق للبحث ولم يعد يجذب إلا القدر الضئيل من الدعم المادى الأمرالذى ابعد كثيرا من العقول المبشرة بعيدا عن الجامعات.

ويقول كروزيير أنه كان يتابع هذا التطور بإدراك للمشكلات الجديدة التى واجهت المجتمع الامريكي فقد عاش تجربة فيتنام بكل اضطراباتها وتفاعلاتها في المجتمع الامريكى وكذلك تجربة ووترجيت ورغم هذا فقد استمر ينظر إلى الولايات المتحدة على أنها قوة لا يصيبها الاجهاد ولا ينضب معينها وقادرة دائما على أن تولد طاقات جديدة إلا أنه فجأة بدا يدرك أن امريكا وصلت إلى حدودها القصوى وأنه من الآن فطالع سوف تصبح بلدا قديما شأنها شأن الآخرين تحاول أن تجد طريقها وبدأ هذا يحدث فى وقت أخذت فيه قوى مثل أوروبا الغربية واليابان تستعيد قواها التى كانت قد تصدعت بفعل الحرب الثانية ورغم ما كانت توحى به المظاهر أخذ النفوذ الامريكى فى الشئون الدولية يتراجع ويضعف وقدمت الارقام

معانى بليغة فى هذا الشأن ففى عام ١٩٥٠ كان متوسط المعيشة الامريكى اعلى مرتين ونصف من مستوى المعيشة الفرنسيوالالمانى واعلى خمس مرات من اليابان أما فى نهايات السبعينات فقد لحقت بها أوروبا وحققت ذلك اليابان بعد هذا بوقت ضئيل.

ويتوقف كروزير لكى يتساءل ويفحص كيف كان هذا التحول ممكنا؟ وقد ركز كروزير فى بحثه هذا بوجه خاص على الحياة الثقافية والفكرية الامريكية وخاصة فى قطاع الشباب واكتشف أن ما يسيطر على الشباب الامريكى هو افتقاد الدافع والالهام وغياب هذا البريق والتطلع فى العيون والاحساس العام بالعجز فخلال السنوات الطويلة من عدم الاستقرار والاضطرابات الطلابية والغليان الثقافى، حارب الشباب الامريكى من اجل قضايا ليبرالية ضد القهر فى كل مكان وكذلك من اجل حرياتهم الشخصية أما اليوم فإن خلفائهم يستمتعون بنتيجة هذا النضال إلا أنهم بلا قضية أو حركة وليس هناك رابطة حقيقية بينهم وحيث لكل فرد الحرية فى أن يفعل أى شىء يخصه ولكن دون اهتمام بالآخرين ويفسر كروزير هذه الظاهرة المحافظة بين الشباب الامريكى بأنها ليست ظاهرة سياسية وإنما هى ظاهرة ثقافة وأزمة فى القيم فرغم أن الشباب الامريكى استمر

يبحث عن الثروة واستمرت صيغة المشروع الفردى الا من القيم الاساسية التى كانت وراء ازدهاره من احترام المجهود وارادة الانجاح والانجاز الشخصي والتطلع لأن يذهب الانسان إلى أبعد من حدوده كل لتطوير العالم وقد يتهم الليبراليون فيهم لاختفاء النزعة الامبريالية ولكن معها ايضا اختفت المشاعر الغيرية لمساعدة الآخرين والاحساس بالخير العام والكرم الانسانى غير أنه وسط هذه الغيوم التى تحيط بالحياة الامريكية يرقب كروزير علامات تبشر بإمكانية استيقاظ الروح الامريكية فيسجل أنه مع وضوح هذا الاتجاه العام نحو اللامبالاة والأنانية والروح الانهزامية فإن الأمر لا يعدم هنا وهناك علامات على التفانى والأعمال المشبعة بالروح العامة وقد لا يمتلك هذا الاتجاه جذور عميقة في المجتمع الامريكى فهو الموجة الثقافية الأولى التى تنشأ عادة بين النخبة شأن كل الحركات الطليعية ويلاحظ أن الاتجاه الثقافى المتمثل فى الافكار والعادات التقليدية الذى ساد حتى السبعينات يتراجع الآن مخليا السبيل إلى مزاج ثقافى يأخذ وجهة أكثر واقعية ولم يعد ينظر إلى ذاته كما اصبح أقل شكوى وادانة مبتعدا عن النمط الانهزامى كما بدأت الافكار التقليدية حول المؤسسات والمبادىء تتعرض للتساؤل ففى مشكلات التعليم بدأ الكتاب يتساءلون عن النظم

الفعالة والتى يمكن أن تعمل وبشكل افضل وفى الساسات الاجتماعية فإن الاتجاه الآن يبتعد عن الجوانب النظرية ويركز على النتائج والآثار ويرمز على هذه الروح بكتابين هامين صدر الاول عام ١٩٨٣ تحت عنوا ن: In search of excellence ويقدم حالات من النجاح لا يعتمد فيها اصحابها على النموذج التنافسى التقليدى للمدير وإنما يقدم نماذج تكرس جهودها للمنفعة العامة أما الكتاب الثانى والذى لاقى اقبالا واسعا ويبحث الاساليب والطرق الامريكية فى الصناعة فهو كتاب إزرا فوجلThe Japanes Number one فروايته المتعاطفة لأسباب نجاح اليابان تشير بوضوح لعوامل الفشل الامريكى فى هذا المجال فاليابان تحترم المعرفة والتعليم ونظامها فى المعلومات وانشغالها الدائم بالمدى الطويل ففى صناعة السيارات مثلا تمكن اليابانيين من انشاء اكثر الصناعات كفاءة فى العالم خلال عشرين عاما بسبب قدرتهم على وضع الاعتبارات طويلة لاجل فى قرارتهم بينما ركدت صناعة السيارات الامريكية لأن صناعة القرارات المتعلقة بها كانت تتجه إلى المدى القصير.

وعلى هذا يتصور كروزير أن ثمة حرية جديدة للفكر نشأت فى هذا الجزء الحساس من الثقافة الامريكية ذلك الجزء الذى

ينبع منه الافكار وانماط السلوك في العمل ويبدو معه أن شيئا ما في العقل الامريكي قد تحرر أخيرا ويعود إلى حياته الطبيعية.

فيتنام البداية والنهاية:

على أن مثل هذا الامل الجديد في تحرير العقل الامريكي ما زال يواجه مشكلة اساسية وسؤال جوهري يحاول تفادى الوصول إلى الاجابة الصحيحة عليه هذا السؤال هو: كيف أن يختار الشعب الامريكي والقادة الامريكيين بوجه عام الطريق الخطأ مرة بعد أخرى وحول نفس المشكلة؟

وتقدير كروزير أنه في هذا فإن كل شيء يبدأ وينتهي بحرب فيتنام فقد كان هذا هو التحدى الحقيقى الاول الذى امتحنت فيه الامة الامريكية ولم تكن فيه على المستوى المطلوب والقضية الحقيقية هنا كيف يمكن لأمة وهي في قمة قوتها وتدعى أنها تمتلك افضل الاساليب والعقول أن تقحم نفسها في مثل هذه المغامرة العبثية من المنظور الأوروبي فإن الحرب الفيتنامية هي بكل المعايير سقطه في الذكاء وبعد النظر، فرغم امكانياتهم الضخمة المكرسة للبحث والتخص لم تستطيع الولايات المتحدة الوصول إلى تحليل اساسي حول التكلفة والعائد وحين يكر البعض بالاخطار الفرنسية فيتنام يثور الرد بأن الفرنسيين

كان لديهم على الاقل العذر فى أن مصالح مادية ومعنوية فى المستعمرة وكانوا مرتبطين بممتلكاتهم وعلى هذا كان من المفهوم صعوبة نسيان هذا أو التكيف مع حقائق عالم ما بعد المستعمرات وقد تجاهل الامريكيون الدرس الذى استخلصه الفرنسيون من أن فيتنام ليست هي المكان الذى يحارب فيه من اجل وقف تقدم الشيوعية بل أنهم استخلصوا أن الفرنسيين فشلوا لأنهم استعماريون ولأنهم عجزوا عن شن حرب عصرية وقد تصور الامريكيون خطأ فى التجربة الفيتنامية وفى مواضع أخرى كثيرة أنه بإمكانهم حل المشكلات بمجرد أن ينثروا ملايين الدولارات لحلها على أنه اذا نظر المرء إلى تجارة دول متقدمة مثل المانيا وايطاليا وفرنسا واليابان.. فإن جميعهم قد تعلموا الكثير من اخطائهم وسقطا وتعلموا كثيرا فى الوقت الذى اكتشفوا فى ماضيهم الطريق لتأكيد هوية اقوى، ويستخلص كروزير ان هذا هو الوقت الذى امام امريكا لكى تتعلم من جديد ولكى تفعل هذا عليها أن تنسى احلامها فى التفوق وأن تصبح متواضعة بما فيه الكفاية وأن تتقبل أن هناك دروسا عليها أن تتعلمها من بقية العالم ومن الحقائق ولكى تفعل فإن الأمة الامريكية يجب أن تكون مستعدة لأن تعمل بشكل أكثر علي فهم طريقها الخاص.

هل انتهت الحروب

عرضنا للنقاش الواسع الذى ساد الحياة الثقافية والفكرية الامريكية والأوروبية وهو النقاش الذى حركته المدرسة التى بشرت وتنبأت بإنقضاء ثلاث ظواهر من حياة الأمم: ظاهرة الحرب الباردة التى حكمت الوضع الدولى منذ انتهاء الحرب الثانية وظاهرة الحروب وخاصة بين الدول المتقدمة الديمقراطية أما النبوة الثالثة لهذه المدرسة والتى كانت مركز الجدل والحوار فهو توقعها ليس فقط انقضاء حقبة معينة من التاريخ وإنما انتهاء التاريخ ذاته ببلوغه نقطة حاسمة ونهائية من تطور البشرية الايديولوجى انتصرت فيها الليبرالية الديمقراطية الغربية كشكل نهائى من اشكال الحكم. وقد تناولنا بالتفصيل النقاش الذى دار حول انتهاء الحرب الباردة ونعرض اليوم لتصورات هذه المدرسة وتوقعها لاختفاء ظاهرة الحروب وعن فكرة نهاية التاريخ ولدوائر النقاش التى حركتها.

هل ستنتهى الحروب؟

ويستند توقع هذه المدرسة لانقضاء ظاهرة الحروب بين

الدول الديمقراطية إلى التزايد الملحوظ للنظم الديمقراطية منذ منتصف السبعينات وإلى أنه تاريخيا كانت ظاهرة الحرب بين النظم الديمقراطية قد غابت منذ نشوء هذه النظم فى القرن ١٩ ذلك أن حالات النزاع المسلح قد نشأت منذ هذه الفترة قد قامت بين النظم الديمقراطية وتلك التى تتبنى نظما شمولية كما استمدت هذه المدرسة منطقها من ان غياب الحروب بين النظم الديمقراطية يبدو متسقا مع طبيعة الديمقراطية التى تساعد وتسهل الحل السلمى للمنازعات من خلال التفاوض والتراضى والحلول الوسط ومن خلال تأثيرات الرأى العام وعمليات الانتخابات والتصويت، وأنه فى النظم الديمقراطية يشعر الزعماء أنهم مسئولون أمام شعوبهم على أن يستنفذوا كل الوسائل السلمية لحل المنازعات سلميا وقبل اللجوء إلى القوة المسلحة وتذكر هذه المدرسة بأنه منذ نهاية الحرب الثانية مثلا فإن عددا من الصراعات التى كان يمكن أن يؤدى إلى الحرب بين اقطار قد اتجهت إلى التضاءل حين تتحول هذه الاقطار إلى الديمقراطية - وضربت على - ذلك مثلا الصراع بين بريطانيا والارجنتين وبين جواتيمالا واسبانيا حيث خف هذا الصراع حين تحولت الدول الثلاث(اسبانيا والارجنتين وجواتيمالا إلى الديمقراطية) كما تنبه هذه المدرسة أيضا إلى

أن الصراع بين تركيا واليونان بدأ يخف بعد أن أخذ كل البلدين بالديمقراطية.

وتستمر هذه المدرسة فى افتراضاتها اختفاء ظاهرة الحروب فتفيد أنه إذا ما استمرت هذه العلاقة بين غياب ظاهرة الحرب وبين النظم الديمقراطية واذا ما استمرت الديمقراطية فى الانتشار فإن الحروب سوف تصبح أقل فى المستقبل عما كانت عليه فى الماضى، وما يبدو مبشرا فى هذا الشأن أنه منذ عام ١٩٧٤ وقد بدأت النظم الديمقراطية تكتسب مواقع فى عدد من الاقطار بلغت العشرين تقريبا على أن هذه المدرسة إن كانت قد اعتبرت أن الحرب أصبحت أمرا لا يمكن التفكير فيه بين الدول المتقدمة سواء كانت - رأسمالية ام اشتراكية إلا أن توقعها هذا لم ينسحب على البلدان النامية حيث توقعت الحروب ستظل ملازما لعلاقاتها.

وقد تصدى بعض المفكرين لهذا التصور بالتحليل والتفنيد وقدموا من الملاحظات على هذا التوقع أولها اعتبار أن الديمقراطية ما زالت اقليمية فى نظم العالم، فبين ١٦٧ دولة فإن النظم الديمقراطية فيها وفقا لمعايير الديمقراطية الصارمة - هى ٦٠ دولة فقط، وعلى هذا فثمة امكانيات متعددة للحروب بين الـ ١٠٧ دولة التى لا تتمتع بنظم ديمقراطية وبين الدول

الديمقراطية والملاحظة الثانية أنه اذا كان عدد الدول الديمقراطية حقا فى نمو إلا أنه غير منتظم وعلى نمط خطوتين للامام وخطوة للخلف ويؤكد سجل للتطور نحو الديمقراطية هذا النمط فقد حدثت موجة كبيرة من الديمقراطية فى القرن الـ ١٩ اعقبها تراجع إلى النظم الشمولية ما بين ١٩٢٠ ـ ١٩٣٠ كذلك حدثت موجة ثانية من الديمقراطية بعد الحرب الثانية اعقبها انتكاسات فى الخمسينات والستينات تلاهما موجة ثالثة منذ عام ١٩٧٤ حيث تحولت ما بين ١٥ ـ ٢٠ دولة إلى الديمقراطية فإذا ما استمر هذا النمط السابق فإن بعضا من هذه الديمقراطيات الجديدة من المحتمل أن تتحول إلى الشمولية ومن ثم فإن ظاهرة الحروب يمكن أن تزداد أكثر مما تقل فى المستقبل أما الملاحظة الأخيرة فهى أن السلام بين الدول الديمقراطية قد يكون راجعا إلى عوامل عارضة جاءت عن طريق الصدفة لا إلى الطبيعة الديمقراطية ففى القرن ١٩ مثلا كانت الحروب تقع بين الدول المتجاورة جغرافيا . فى هذا الوقت كانت الدول الديمقراطية قليلة العدد ونادرا ما كانت تتجاور ومن ثم فإن غياب الحرب يمكن أن يكون نتيجة غياب القرب الجغرافى.

حدث أن محرر مجلة The National Interest وهي مبير التيار المحافظ المتشدد الذى عرف بـ New Conser-vative وهو التيار الذى نما واشتد فى السبعينات وكان له دور بارز فى اسقاط **جيمى كارتر** وفى تكوين رؤى وتصورات **ريجان** وخاصة فى العامين الأولين من حكمه - كان يبحث عن موضوع كبير يربط التاريخ بالتقاليد العظيمة للفكر السياسى وقد عثر على ضالته فى محاضرة كان قد القاها مؤخرا مفكر شاب أمام جامعة شيكاغو هو **فرانسيس فوكوياما** (٣٦ عام) وهو امريكى من اصل يابانى، درس وتعلم فى جامعات بيل و هارفارد وباريس، وعمل بعد دراسة فى مؤسسة راند واستعارته ادارة التخطيط بالخارجية الامريكية فى بداية الثمانينات ثم عادت فاستدعته مؤخرا كتائب لمدير هذه الادارة وكان **فوكوياما** قد شعر أنه يريد أن يقدم شيئا يتجاوز به معالجاته الجزئية للأحداث وأن يقدم مسحا للمسرح الدولى يعالج من خلاله المسائل الكبيرة فكانت هذه المحاضرة التى قدمها فى جامعة شيكاغو ونشرتها المجلة فى عدد صيف ١٩٨٩ وأثارت ومازالت تثير كل هذه الضجة والتعليقات والمناقشات فى الدوائر الاكاديمية والفكرية وعلى المستوى الامريكى والاوروبى فما الذى

قاله فوكوياما فى محاضرته أو مقالته.

يعتبر فوكوياما أنه فى القرن العشرين قد بدأ العالم المتقدم يخوض صراعا عنيفا بين الليبرالية الديمقراطية وبين بقايا الحكم المطلق ثم مع النازية والبولشفية ثم انتصف ما تنبأ به البعض من عملية تلاقى أو تقارب بين الرأسمالية والاشتراكية غير أن القرن ينهى دورته بالنصر الواثق لليبرالية الاقتصادية والسياسية ويرى فوكوياما أن هذا النصر يبدو ولا قبل كل شىء فى الاستبعاد الكامل لأي نظم بديلة لليبرالية الغربية تكون صالحة للحياة ويستدل فوكوياما على هذا بما حدث فى الحقبة الماضية فى اكبر قوتين شيوعيتين هما الاتحاد السوفيتى والصين من حركات اصلاحية لم تقتصر فقط على القضايا السياسية الكبرى وإنما انتشرت لتشمل التأثر بأساليب الحياة والثقافة الغربية ولكى تتصل حتى لقطاعات الفلاحين منها وعلى هذا يستخلص فوكوياما أن ما نشهده ليس مجرد انتهاء الحرب الباردة وانقضاء فترة من فترات ما بعد الحرب وإنما نهاية التاريخ نفسه ووصوله إلى نقطة نهائية فى الطور الايديولوجى للبشرية ولعالمية الديمقراطية الغربية لليبرالية كشكل نهائى من اشكال الحكم.. غير أن هذا لايعنى فى نظر فوكوياما أنه لن يكون ثمة أحداث تعلق عليها الدوريات

المتخصصة فى الشئون الدولية ذلك أن انتصار الليبرالية قد تحقق فى الدرجة الاولى فى عالم الافكار أوالوعى وهو لم يتحقق بعد فى العالم الواقعى والمادى ومع هذا فإن هذا لا ينفى أن ثمة اسبابا قوية تدعو إلى الاعتقاد أن المثالى هو الذى سيحكم العالم المادى فى المدى الطويل..

ولم تكتسب مقالة فوكوياما قيمتها من مجرد تحليلها للوضع الدولى أو لتنبؤاتها حول مستقبله وإنما أيضا من الاساس التاريخى والفلسفى التى استندت إليه فهو يعتقد أن فكرة نهاية التاريخ ليست جديدة وإنما يرجعها إلى كارل ماركس الذى اعتبر أن اتجاه تطور التاريخ كان دائما اتجاه هادف حكمه التفاعل بين القوى المادية وأنه سوف يصل إلى نهاية اليوتوبيا الشيوعية التى سوف تحل فى رأيه بشكل نهائى التناقضات السابقة ويضيف فوكوياما أن مفهوم التاريخ كعملية دياليكتيكية ذات بداية ووسط ونهاية قد استعارها ماركس من فردريك هيجل الذى اعتقد أن التاريخ يبلغ ذروته عند نقطة مطلقة وهى اللحظة التى ينتصر فيها نهائيا بشكل عقلانى من اشكال الحكم والمجتمع وعلى هذا الاساس الفلسفى اعتبر يجب أن التاريخ قد بلغ نهايته عام ١٨٠٦ فى انتصار نابليون فى معركة بينا ولأنه عند هذه النقطة فإن طليعة البشرية قد حققت مبادىء الثورة

الفرنسية.

وقد يبدو انتهاء التاريخ عند النقطة التى تنتصر فيها الليبرالية الديمقراطية الغربية أمرا يدعو للابتهاج بالنسبة لفوكوياما إلا أنه يعتبر أن الزمن المقبل زمن حزين يدعو إلى الملل. لماذا لأن الصراع من أجل إثبات الذات واستعداد المرء للمخاطرة بحياته من أجل أهداف مجردة والصراع الأيديولوجى العالمى يدعو إلى الجسارة كالاقدام ويثير الخيال والمثالية سوى تحل محله الحسابات الاقتصادية ومحاولات حل المعضلات التكتيكية والاهتمام بشئون البيئة والرضا بإشباع الحاجات الاستهلاكية المتقدمة ويذهب فوكوياما ابعد من هذا فى تصور عصر ما بعد التاريخ.. فلن يكون هناك فن أوفلسفة مجرد رعاية لمتحف التاريخ الانسانى.. وهو وضع يجعله يشعر ويرى الآخرون من حوله يشعرون بحنين قوى للزمن الذى كان التاريخ قائما فيه ومثل هذا الحنين فى الواقع هو الذى سيظل يحرك المنافسة والصراع حتى فى عصر ما بعد التاريخ.

وقد اثارت نظرية **فوكوياما** ردود فعل عارمة وحمل نفس العدد من المجلة التى نشرت مقالته فقط عشر تعقيبات من فلاسفة ومؤرخين وساسة وأساتذة علوم سياسية تناولها بالنقد والتحليل وكان من أبرز هذه التعقيبات ما قدمه الاستاذ

صامويل هنتجتون مدير مركز الدراسات الاستراتيجية فى جامعة هارفارد الذى سجل الملاحظات التالية على نظرية فوكوياما ، كانت أول ملاحظاته أن تراجع مجموعه من المثل والأفكار لا يعنى اختفاؤها نهائيا فقد تعود إلى الظهور بقوة متجددة بعد جيل أو جيلين وضرب مثلا على ذلك بأن التيار الذى سيطر من الاربعينات والستينات على الفكر الاقتصادى كان هو المفكر الكينزى حيث دولة الرفاهية والديمقراطية الاجتماعية والتخطيط وكان من الصعب أن نجد مثل هذا التأييد لليبرالية الكلاسيكية فالاقتصاديين والمؤسسات التى كانت تركز على الخطة فى الخمسينات عادت تركز على سياسات السوق فى الثمانينات وبشكل مشابه فإن علماء الاجتماع الذين جادلوا فى الحقب التى أعقب الحرب الثانية فإن الدين والوعى القومى سوف يختفى بالتقدم الاقتصادى والتحديث إلا أنه فى الثمانينات رأينا الانبعاث الدينى كظاهرة عالمية والملاحظة الثانية التى أوردها هنتجتون فقد انصبت على أن انتصار عقيدة ما لا معنى انتفاء وعدم توقع ظهور خلافات داخل صفوفها فتاريخ الايديولوجية هو تاريخ الفرق والانشقاقات الايديولوجية كما أن الصراع بين هؤلاء الذين يقدمون من تفسيرات مختلفة للايديولوجية الواحدة غالبا ما تكون أشد قسوة من الصراعات

بين هؤلاء الذين يتبنون ايديولوجيات مختلفة تماما فبالنسبة للمؤمن المرتد يعتبر اسوأ من غير المؤمن وتقف الخلافات التى نشزت تاريخيا داخل الديانات المختلفة وكذلك بين أصحاب العقائد العلمانية أما الملاحظة الثالثة فهى أن انتصار ايديولوجية ما لا عينى تجمد التطور الايديولوجى وعدم ظهور ايديولوجيات جديدة وسوف تتعرض أهداف البشرية فى الرفاهية والسعادة لتحريات مستمرة تدفع المجتمعات إلى أن تطور مفاهيم ومذاهب جديدة لمواجهة هذه التحديات.

ويعتبر هنتجتون أن نظرية فوكوياما تعانى من وهم خطير وهو تصورها لإمكانية التنبؤ بالتاريخ ومسيرته ذلك أن سجل التنبوءات هو سجل غير مشجع ثم من الذى كان يستطيع أن يتنبأ بعمق وشمول التحولات التى حدثت فى العالم الاشتراكى أما الوهم الآخر الذى تعانى منه نظرية نهاية التاريخ فهو أنها تميل إلى تجاهل ضعف ولا عقلانية الطبيعة البشرية وهى تفترض أن البشرية سوف تتصرف دائما على أساس عقلانى فما دامت ترى أنه من الحكمة والتركيز على رفاهيتها الاقتصادية فلن تتورط فى حروب غير مجدية أو فى صراعات ايديولوجية جوفاء إلا أن حقيقة الامر أن البشر يتصرفون أحيانا بشكل عاقل وكريم وخلاق ولكنهم غالبا ما يتصرفون

بشكل أحمق وأناني كما كان من بين من تحدوا نظرية فوكوياما فى أسسها الفلسفية والتطبيقية هو جرترود هملفارب الاستاذ بجامعة نيويورك فقد اعتبر أن هيجل لم يقل ابدا إن التاريخ سوف ينتهى بالمعنى الحرفى ذلك أن التاريخ هو عملية مستمرة Process تظل فيها حركة الديالكتيك لا تنتهى وبشكل تبقى على دراما التاريخ قائمة .

ويتساءل هملفارب : وماذا عن الفقر الاسود وفقرالطبقات الدنيا وحيث يموت الشبان السود كل ليلة في الخطوط الامامية لحرب المخدرات أن التاريخ بهذا المعنى لا يبدو وقد انتهى بل ربما يبدو أنه قد بدأ فعلا ويستشهد بما ذكره مفكر امريكى محافظ هو إرفنج كرستول من أن قد نكون قد كسبنا الحرب الباردة وهذا شيء جميل ولكن هذا لا يعنى أن العدو الآن هو نحن وليس هم. كذلك أخذ عدد من الذين عقبوا على فوكوياما تسرعه فيما استخلصه عن نهاية التاريخ فعندهم أن التغيرات التى حدثت فى الاتحاد السوفيتى لم تستقر بعد بشكل نهائى ولا يستطيع أحد أن يتنبأ بما سيحدث إذا ما فشلت اصلاحات جورباتشوف وعلى المستوى الأوروبى لا يمكن التنبؤ بما يمكن أن تطلقه الوحدة الألمانية من تنافس بين الأمم الأوروبية وكذلك الوحدة الاقتصادية التى تخطط لها المجموعة الأوروبية مع عام

١٩٩٢ كما يضيفون إلى هذا أن صراعات القوى الكبرى لم تتبع دائما من الايديولوجية فالحرب العالمية الأولى والحرب الفرنسية الروسية والحرب البروسية اليابانية من الصعب القول أنها كانت حروبا ايديولوجية.

كذلك أثارت نظرية **فوكوياما** جدلا على النطاق الأوروبى وكان من بين من تعرضوا لها بالنقد الكاتب البريطانى **بيتر مانسفيلد** الذى وصف النظرية بأنها تبسيط مخل للأمور فعند **مانسفيلد** أن التطلع لمزيد من الديمقراطية والحرية الفردية قد يأخذ اشكالا مختلفة كذلك يمكن الوصول إليها من خلال أساليب مختلفة أيضا فإذا كانت اليابان تتبنى الديمقراطية والرأسمالية إلا أن ديمقراطيتها ورأسماليتها مختلفة عن الرأسمالية والديمقراطية الامريكية كما أن الاتجاهات الأوروبية الآن تؤكد أن أوروبا لا يمكن أن تتبنى رأسمالية للولايات المتحدة، ويستشهد **مانسفيلد** بالعالم الاسلامى ويعتبر أنه رغم أن قطاعا من مجتمعاته تعتقد أن يكون دستورهم ونظمهم الاجتماعية والاقتصادية نسخة من الدستور أو النظم الامريكية فأكثر المسلمين ميلا إلى الغرب لا يعتقدون أن هذا يمكن أن يحدث يوما ما ويريدون أن يقيموا نظمهم المتميزة.

ازاء هذه العاصفة أو هستيريا النقد والتعليقات وبعد ما

أسماه **فوكوياما** جالونات الحبر التى سكبت على مقالته» كان لابد له أن يقدم رده عليها حيث اعتبر بدءا أن الانجاز الحقيقى الذى حققه هو هذا الاجماع العالمى الفريد الذى ضم أقصى اليمين وأقصى اليسار لا حول الوضع الراهن لليبرالية وإنما حول إثبات أنه مخطىء وأن التاريخ لم ينتهى بعد ثم يعتبر **فوكوياما** بعد هذا أن سوء الفهم المشترك بين نقاده هو فشلهم فى فهم وقبول استعمال **هيجل** لكلمة التاريخ فكثير من الناس يشعرون بالانزعاج حين يعجز فرد فى استخدام التعريف التقليدى للتاريخ كتعاقب عشوائى للأحداث حيث ليس هناك محاولة للتميز بين ما هو أكثر وأقل أهمية ولهذا فإن فكرة أن التاريخ قد يأتى لنهايته إنما ندهش فقط هؤلاء الذين ليسوا على دراية بالتقاليد الماركسية الهيجلية فالتاريخ بالنسبة **لهيجل** يمكن أن يفهم بالمعنى الضيق لتاريخ الايديولوجية أو تاريخ الفكر حول المبادىء الأولى بما فيها تلك التى نحكم النظام السياسى والاجتماعى فنهاية التاريخ تعنى ليس نهاية الاحداث العالمية وإنما نهاية تطور الفكر البشرى حول هذه المبادىء الأولى ويذهب **فوكوياما** أن قراء مقالته لم يكونوا أول من أدهشتهم فكرة نهاية التاريخ فقد أثار **هيجل** نفسه صيحات احتجاج بإعلانه نهاية التاريخ فى بداية القرن ١٩ وخاصة من

جانب ماركس الشاب الذى يشعر أن مظاهر عدم عدالة المجتمع فى زمنه يكذب تأكيدات هيجل أن كل شىء حقيقى هو شىء عقلانى والواقع أن ماركس قد صرف حياته يحاول أن يظهر أن هيجل كان مخطئا ليس حول امكانية انتهاء التاريخ وإنما حول اعلان هيجل النهاية قد حلت بالفعل.

ويجادل فوكوياما نقاده بالقول أنه لكى يرفضوا افتراضه فإنه لا يكفى القول بأن المستقبل يحمل فى جعبته احداثا كبيرة واسعة وإنما على المرء أن يظهر أن هذه الاحداث مدفوعة بفكرة متماسكة حول العدالة السياسية والاجتماعية التى تدعى أنها يمكن أن تحل محل الليبرالية فوقوع حرب نووية بين الهند والباكستان رغم رعبها بالنسبة للبلدين إلا أنها لن تكتسب أهمية إلا إذا أجرتنا بشكل ماعلى أن نعيد النظر فى المبادىء الرئيسية التى تميز نظامنا الاجتماعى.

ويرد فوكوياما على النقد الذى اشترك فيه معظم من تناولوا مقالته وهو أنه تسرع فى استبعاد الاشتراكية كقوة فى العالم أو كفكرة وعلى ما اشاروا إليه من عدم اكتمال ورهافة عملية الاصلاح الجارية فى الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية فيقول أنه أول من يعترف أن الاصلاحات الجارية اليوم فى العالم الاشتراكى لم تكتمل بعد وأن القهر الذى حدث فى بكين فى

قد انتكس بقضية الحرية لعدة سنوات وسيكون المرء أحمق إذا ما تجاهل أن مثل هذا الارتداد لن يحدث فى إحدى البلدان التى تجرى فيها عملية الاصلاح الان ومع هذا فإن فوكوياما يشك فيما إذا كان مثل هذا الارتداد إذا حدث سوف يعيد بشكل كامل الاتحاد السوفيتى الذى عرفه الغرب وخشى منه خلال الاربعين عاما الماضية وعنده أن التهديد السوفيتى التقليدى للغرب لم ينبع فقط من القوة العسكرية والمصادر المادية وإنما من حقيقة اعتبار الاتحاد السوفيتى أنه يجسد فكرة وعقيدة عالمية معادية لمثل الغرب واسلوبه فى الحياة مثل هذا الاحساس بالرسالة التبشرية هى بالتحديد ما يعتبر فوكوياما أنه أقل احتمالا أن يبعث من جديد.

كذلك يعتقد فوكوياما أنه حتى لو عاد نظام محافظ جديد للاتحاد السوفيتى فإنه من المستبعد أن يعود إلى أساليب القهر القديمة فى محاولة منه لاستفادة السلطة المعنوية لحزب أو اصلاح مشاكل الاقتصاد الملحة.

هل سينتهى التاريخ حقا

يبدو أن الحياة الثقافية والفكرية الامريكية قد استطابت أن تثير كل عام قضية كبرى تحرك بها جدلا واسعا وتجتذب تيارات تتصارع حول جوانب هذه القضية السياسية والتاريخية والفلسفية ولخطورة مثل هذه القضايا وتعلقها ليس فقط بالواقع والمستقبل الامريكى وإنما بمستقبل العالم والقوى المؤثرة فيه فإن هذا الجدل والنقاش لا يلبث أن يمتد ويجد صداه فى الدوائر الثقافية والفكرية والأوروبية فتفرد له المجلات والدوريات الثقافية والفكرية الجادة ابوابا واسعة وتعقد له مراكز البحث المتخصصة مؤتمرات وندوات لمناقشته ويشترك فى هذا كتاب واساتذة فى شتى فروع الانسانيات وذلك لخطورة ما يناقش وتشعبه وتعدد ابعاده.

وهكذا كانت قضية عام ١٩٨٨ الرئيسية هى القضية التى أثارت وناقشت واقع ومستقبل القوة الامريكية وتساؤلات عما إذا كانت الولايات المتحدة تتجه إلى نفس الطريق الذى سلكته قوى عظمى سابقة نحو الافول وإلى أى مدى كان ذلك يفعل الضعف النسبى لقاعدتها الاقتصادية والانتاجية والتكنولوجية

مقارنة بقوى أخرى والانفاق المبالغ فيه على التسلح وعلى الاستهلاك، أما قضية عام ١٩٨٩ فقد ناقشت وبشرت بإنتهاء عدد من الظواهر والأوضاع التى حكمت حياة الأمم على مدى الجيلين الماضيين بل ربما قبل ذلك غير أن ما اعطنى هذه القضية خصوصيتها وبعدها الهام هو أنها فى اعلانها لهذه الظواهر قد سجلت انتصار الغرب والعقيدة الليبرالية الديمقراطية فى صراعه السياسى والايديولوجى مع الايديولوجية الماركسية كانت أول الظواهر التى اعلنت هذه القضية انتهاءها هى ظاهرة الحرب الباردة التى سيطرت وحكمت الحياة الدولية بأسرها على مدى الجيلين الماضيين أما النهاية الثانية التى بشرت بها هذه المدرسة فهو توقعها لانتهاء ظاهرة الحروب بين الأقطار الديمقراطية وسجلت فى هذا تعدد النظم الديمقراطية منذ عام ١٩٧٤ كدليل على أن احتمال الحرب بين هذا النمط من الدول سوف يختفى من حياة البشر مثلما اختفت ظواهر كالعبودية والمبارزة فى المجتمعات المتقدمة، غير أن هذه المدرسة إن كانت قد افترضت أن ظاهرة الحرب أصبحت أمرا لا يمكن التفكير فيه بين الدول إلا أنها استثنت الدول المتخلفة وبلدان العالم الثالث من ذلك وتوقعت أن ظاهرة الحرب ستظل ملازمة لها .

أما الصيغة الثالثة والأكثر تطرفا لهذه المدرسة فهى تلك التى أعلنت نهاية التاريخ The End of History والتى احتفلت ليس فقط بنهاية الحرب الباردة وبإنتهاء الحروب بين الدول المتقدمة وإنما ذهبت ابعد من هذا إلى نهاية التاريخ نفسه وأن هذه النهاية هى النتيجة المنطقية والتاريخية للنصر الواثق لليبرالية الاقتصادية والسياسية وغياب أي نظم بديلة أخرى صالحة واستنفاذها لنفسها.

وهكذا نجد تناقضا واضحا بين رسالة وافتراضات قضية عام ١٩٨٨ وتلك التى حاولت أن تبشر بها قضية عام ١٩٨٩ فبينما كانت الأولى تشاؤمية - وأن تشاؤمها مشروط - وتستمد اصولها من دراسة التاريخ وتعتمد على التشابهات بين الولايات المتحدة فى نهاية القرن العشرين وبين بريطانيا فى نهاية القرن ١٩ وفرنسا واسبانيا ابان قرون أخرى، فإن قضية عام ١٩٨٩ ومدرستها إنما تتجه إلى المستقبل أكثر من رجوعها إلى الماضى وهى تنظر إلى الامام بشكل واثق وبلا تردد كما أنها فى أكثر صورها تطرفا مثل تلك التى تعلن نهاية التاريخ إنما تجد جذورها فى التأمل الفلسفى أكثر من التحليل التاريخى وهى تستند فى جانب كبير منها لاعلى شهادة التاريخ وإنما على الافتراضات حول الوجهة التى يأخذها، وبينما تتسم النظرية

التى سادت عام ١٩٨٨ وهى نظرية الانحدار والاضمحلال رغم انكار أصحابها لذلك بالحتمية التاريخية حيث تتطور الأمم بشكل طبيعى بل ربما بشكل حتمى عبر فترات الصعود والتوسع والاضمحلال وحيث تقع فى قبضة التاريخ التى لا ترحم، فإن الفطرية الثانية تدعى أن الأمم - أو بالتحديد النمط المتقدم منها - إنما تهرب من هذا التاريخ وتتجاوزه.

وحيث تبدو رسالة نظرية الاضمحلال للامريكيين أنهم يخسرون، تبشرهم النظرية الثانية بالانتصار على أنه ربما بسبب قسوة النظرية الأولى والتحذير الذى تحمله فإنها تؤدى لمجتمعها وظيفة مفيدة من حيث حثه على العمل والتجديد وتجاوز عوامل القصور والتآكل وهى نفس الوظيفة التى أدتها تحذيرات ظهرت فى مرات مماثلة فى التاريخ الحديث الامريكى فى الخمسينات والستينات والسبعينات على أنه على النقيض من هذا فإن النظرية المستبشرة الثانية التى أشاعت نوعا من النشوة إنما تقدم فى رأى البعض كما سنرى من النقاش الذى اثارته وهما حول الانتصار وهى فى هذا لا تدعو إلى عمل تصحيحى وإنما إلى حالة من الاسترخاء والرضى عن النفس سوف نعرض فى هذا المقال وفى مقال تال لهذه الافتراضات الثلاث: حول نهاية الحرب الباردة وتوقع انقراض ظاهرة

الحروب بين الدول المتقدمة وأخيرا حول ما سُمى بنهاية التاريخ بوصوله إلى النقطة التى خرجت فيها العقيدة الليبرالية الديمقراطية منتصرة فى صراعها الطويل مع العقيدة الخصم وسوف نعتمد فى نقاشنا لها على الجدل الواسع والحوار المتعدد الروافد الذى ولدته هذه الافتراضات.

هل انتهت الحرب الباردة؟

مع مطلع الثمانينات وبعد حقبة من المحاولات الجادة التى بدأتها القوتين العظميتين لترشيد علاقاتهما والعلو بها من مستوى الصراع والتنافس إلى مستوى الحوار والتفاوض عادت من جديد غيوم الحرب الباردة تظل علاقاتهما ومعها الوضع الدولى فى مجموعة وفى الايام الاخيرة من عقد السبعينات - ديسمبر عام ١٩٧٩ - جاء التدخل العسكرى السوفيتى فى أفغانستان لكى يقدم زادا جديدا للقوى المعارضة لعلاقات الايجابية بالولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى واستخدمته لعلاقات الوفاق وترتيباته لخدمه مصالحه وتوسيع دوائر نفوذه وانهى رئيس امريكى هو **جيمى كارتر**، من الانصاف أن نقول إنه جاء إلى الحكم بأهداف سليمة وبالرغبة فى البناء على سياسة الوفاق وخاصة فى مجال التسلح النووى والتحكم فيه

انهى هذا الرئيس ولايته بإجراءات اعادت إلى الأذهان ترتيبات وتصـورات الأيام الأولى من الحـرب البـاردة وربطتـه برئيس امـريكى هو هارى ترومان كـان اول من أرسى بفـة ومـبـادىء ومؤسسات الحرب الباردة فقد اقدم كارتر على وقف التصديق على معاهد هامة كانت القوتين قد توصلنا إليها منذ شهور هى المعاهدة الثانية للحد من الاسلحة الاستراتيجية Salt 1 واوقف بيع القمح للاتحاد السوفيتى وقاطع دورة الالعاب الاوليمبية فى موسكو ثم صاغ نظرية عرفت باسمه هدد فيها باستخدام القوة المسلحة إذا ما تعرضت ما اعتبره مصالح الولايات المتحدة فى منطقة الخليج للخطر وانشأ ما يعرف بالقوة السريعة الانتشار R.D. F. للتدخل وقت اللزوم فى هذه المنطقة.

غير أن هذا لم يكن إلا مقدمات لعودة الحرب الباردة من جديد واندفاعها واكتسابها ابعادا اخطر وخاصة فى مجال التسلح النووى .فقد توافق هذا التطور مع معركة انتخابات الرئاسة الأمريكية وصور الجانب الجمهورى فيها العادلة الاستراتيجية بين القوتين على أنها مالت فى اتجاه الاتحاد السوفيتى عسكريا ودوليا واطلق مرشحهم للرئاسة رونالد ريجان حملته على اساس من شعارات استعادة الهيبة والمكانة

الامريكية فى العالم والتزم بأنه لن يدخل فى أية مفاوضات جادة مع السوفييت إلا من موقع القوة وبعد أن يعيد بناء القوة العسكرية والاقتصادية للولايات المتحدة والواقع أن ريجان الذى كان انتصاره فى جانب نتيجة اهتزاز صورة الديمقراطية فى ادارة علاقات الولايات المتحدة الدولية - ظل يطبق فى السنوات الأولى من حكمه هذه الشعارات وإذا كانت الحرب الباردة قد عادت فى اشكالها السياسية والعسكرية فقد عادت أيضا في صورة لغة الحوار والتخاطب المستخدمة وربما بشكل أكثر عنفا وبدأ هذا على الجانب الامريكى بشكل خاص فوصف ريجان الاتحاد السوفيتى بأنه امبراطورية الشر Evil Empire ووصف قادته بأنهم لا يتورعون عن الكذب والغش والخداع من أجل تحقيق أهدافهم.

وفى خلال عام ١٩٨٣ أعلن ريجان عن تطور جديد فى سياسته التسلح النووى وهو برنامجه عن الدفاع الاستراتيجى SDI والذى عرف بحرب الكواكب ومع نهاية العام فشلت المفاوضات التى كانت تجرى لوقف نشر الصواريخ الامريكية برشنج و كروز فى اوروبا مقابل سحب الصواريخ السوفيتية SS20 وهو ما قابله الاتحاد السوفيتى بالانسحاب من مفاوضات الحد من التسلح بكل مستوياتها وهكذا وصل الوضع

فى علاقات القوتين إلى درجة لم تصلها منذ أحلك لحظاته فى أزمة الصواريخ الكوبية عام ١٩٦٣ وقد كان من الطبيعى أن تحرك هذه الحالة مخاوف الامريكيين والحلفاء الضربيين بل والرأى العام الدولى وكانت هذه المخاوف من المحاور الرئيسية لمعركة انتخابات الرئاسة الامريكية عام ١٩٨٤ واستخدامها الديمقراطيين فى حملتهم وتصويرهم سياسات الجمهوريين بأنها جعلت الـ ... قل أمنا ورغم أن ريجان قد كسب معركة الرئاسة الثانية إلا أنه كان قد استوعب الرسالة وأدرك أن الوقت قد حان للبدء فى اتصالات جادة مع الاتحاد السوفيتى لوقف هذا التدهور وبشكل خاص للبدء فى مفاوضات حقيقية حول خفض التسلح. والواقع أن ريجان وادارته لم تحركهم فقط المخاوف التى ثارت وإنما لإدراكهم أنهم قد استكملوا أو كادوا سياسة بناء القوة العسكرية الأمريكية واعادوا ترتيب علاقاتهم مع حلفائهم وفاخر ريجان بأنه فى سنواته فإن السوفيت لم يتقدموا بوصة واحدة فى العالم غير أنه إلى جانب هذا كانت المشكلات الامريكية الداخلية بدأت تطفو وكان بعضها بفعل سياسات وتضخم ميزانيات التسلح وبدأت تناقش على نطاق واسع أثر ذلك على القوة الفعلية الامريكية وبدأت تظهر بوضوح فى أرقام العجز فى الميزانية وفى إهمال البرامج الاجتماعية.

أما الاتحاد السوفيتى فإن قادته الذين كانوا قد توصلوا إلى نهاية عام ١٩٨٣ إلى استحالة التعامل مع ادارة ريجان بعد أن بات فوز ريجان برئاسة ثانية مؤكدة إلى تجديد الاتصالات والاستجابة إلى بعض الاشارات التصالحية التى بدأت تظهر عن الادارة الامريكية ومع اوائل عام ١٩٨٥ كانت مفاوضات الحد من التسلح قد بدأت بالفعل وبدأت المياه تتحرك من جديد بعد ركود طويل.

غير أن التغيير الحقيقى على المستوى السوفيتى جاء مع تولى زعيم جديد هو ميخائيل جورباتشوف فى مارس عام ١٩٨٥ (٥٤ عاما عندئذ) وكان مجيئه وسط احساس عام بأن البلاد تمر بحالة من الركود والترهل وأن الأوضاع الاقتصادية والتكنولوجية والقيم الايديولوجية للاتحاد السوفيتى تتراجع ومعها امكانياته ومستقبله كقوة عظمى ومكانته الدولية ليس فقط ازاء الولايات المتحدة بل ربما تجاه قوى جديدة صاعدة وقد استخلص الزعيم السوفيتى الجديد من قراءاته للواقع السوفيتى ومؤشراته أن تدارك هذه الأوضاع المتراجعة والتعامل معها . بشكل فعال يطلق طاقات المجتمع السوفيتى ويحدد امكانيات النظام وادواته لا يصلح معه الاجراءات العادية التى سبق لزعماء آخرين أن حاولوها بل هى تحتاج إلى

اصلاحات جذرية تعيد النظر فى أركان النظام ومفاهيمه وآلياته وبشكل تتجاوب مع المرحلة التاريخية التى يجتازها وباختصار اكتشف أنه فى حاجة إلى ثورة جديدة ولكنها ثورة من داخل النظام وليس من خارجه أو ضده ومن هنا شرع **جورباتشوف** فى سياسه اعادة البناء الاقتصادى والاجتماعى وكانت أدواته فى هذا هى العلانية Glasnost التى أراد بها أن تجىء إعادة البناء فى مناخ منفتح يناقش جوانب القصور والأخطاء ويكشف عنها ولا يخفيها، أما الأداة الثانية لإعادة البناء فكانت الديمقراطية وقصد بها أن يتم الاصلاح من أسفل لا من أعلى وبمشاركة الجماهير وتفاعلها واقناعها وليس بتجاهلها أوسلبيتها.

غير أن بروسترويكا **جورباتشوف** أن كانت اساسا لإعادة بناء الداخل إلا أن لها وجها آخر يرتبط بها ارتباطا عضويا وهو السياسة الخارجية وتوجهاتها حيث ادرك **جورباتشوف** أن بناء الداخل وخاصة فى ظل الأوضاع الإقتصادية والتكنولوجية العالمية الجديدة وترابطها من الصعب أن يتم فى بيئة دولية أو اقليمية متوترة أو فى ظل مواجهات مع القوى الدولية الرئيسية وفى ظل سياسات سباق التسلح بأبعاده الجديدة وما تفرضه من اعباء ضخمة ويمكن أن نقول أيضا فى ظل مؤثرات وأزمات

اقليمية يرتبط بها الاتحاد السوفيتي وتفرض قيودا على اهتمامات الوسع وتلقى عليه اعباء لم يعد يستطيع تحملها ومن هنا جاء ما عرف بالتفكير السوفيتي الجديد فى الشئون الدولية والذى أراد به أساسا خلق مناخ دولى مساعد ومتجاوب مع عملية اعادة البناء الجذرية فى الداخل وباختصار شديد ووفقا للتفكير الجديد فقد استبدل جورباتشوف مفهوم الصراع الطبيعى بين الرأسمالية والاشتراكية بمفهوم الاعتماد المتبادل : Inter Dependence والتعاون الدولى وعقد الأولوية للقيم البشرية العليا والقضايا العالمية وبدلا من مفهوم الأمن الذى يعتمد على تكديس الأسلحة اعتبر أن الأمن يمكن أن يتحقق من خلال اتفاقيات متبادلة للحد من التسلح والتحكم فيه ومن مفهوم أن أمن جانب لا يمكن أن يتحقق على حساب جانب آخر.

غير أن التفكير السوفيتى الجديد نحو العالم لم يقتصر على الكلمات بل تعداه إلى سياسات عملية فقد أقدم جورباتشوف على الانسحاب من افغانستان التى سممت علاقات الاتحاد السوفيتى ليس فقط مع الولايات المتحدة والغرب بل ومع العالم وانهى الخصام الطويل مع الصين وساهم فى تحقيق تقدم فى عدد من المنازعات الاقليمية مثل الحرب العراقية الايرانية والوضع فى الجنوب الافريقى غير أن المجال الخطير الذى بدت

فيه المبادرات السوفيتية الجديدة كان هو مجال الحد من التسلح وهى المبادرات التى ساعدت على التوصل إلى اتفاق هام هو اتفاق الصواريخ المتوسطة المدى يفتح الطريق إلى اتفاقيات أكثر اتساعا فى مجال الحد من التسلح الاستراتيجى وتجاه منطقة كانت البؤرة التى انطلقت فيها الحرب الباردة وهى منطقة شرق أوروبا فإن الاتحاد السوفيتى الذى كان يقاوم بالقوة احيانا عمليات التغيير والتجديد فى نظمها أصبح فى عهد **جورباتشوف** يشجع هذه العملية ويتسامح مع ذهابها إلى ابعاد خطيرة مثل التخلى عن سيطرة الاحزاب الشيوعية ودورها القيادى.

مثل هذه التغيرات العميقة سواء فى السياسات الامريكية أو السوفيتية - هى التى سمحت بعقد أربع مؤتمرات قمة بين ريجان و **جورباتشوف** وضعت الاساس لعلاقات نوعية جددة بين القوتين لم تشهدها منذ الحرب العالمية الثانية.

هذا التغيير فى مجرى واتجاه العلاقات بين القوتين وفى الواقع الداخلى لكل منهما وخاصة فى الاتحاد السوفيتى أدى إلى نشوء تيارين ومدرستين فى التفكير وفى تفسير ما يجرى وتوقع ما سوف تتصف به علاقات القوى الرئيسية فى العام. فى هذا ذهبت المدرسة الأولى إلى أن تعلن بثقة واستبشار أن ما

نراه هو نهاية الحرب الباردة بما عرفته من صراع ايديولوجى وتنافس حول عقول وقلوب البشر وتواترات سياسية ووقوف على حافة المواجهة العسكرية ثم الصراع على النفوذ والمكانة فى العالم ومناطقه المختلفة، وقد اعتمدت هذه المدرسة اساسا على عمق وشمول التحولات التى تجرى فى الاتحاد السوفيتى وإعادة جورباتشوف صياغة عدد من المفاهيم والأساسية التى دارت حولها الحرب الباردة سواء كان ذلك فيما يتعلق بالبناء الداخلى السوفيتى أو تصور العالم واعتمدت هذه المدرسة بشكل خاص على ما يجرى فى منطقة شرق أوروبا باعتبارها البؤرة التى انطلقت منها الحرب الباردة واتجاهها نحو التعددية السياسية وصياغة نظام اقتصادى جديد وقيام حكومات لا ينفرد الحزب الشيوعى بالسلطة والموقف المتسامح بل وربما المشجع للاتحاد السوفيتى من هذه التطورات كل هذه التحولات راعتها هذه المدرسة تفرض الاسس والقواعد التى نشأت وتطورت عليها الحرب الباردة.

أما المدرسة الثانية فهى التى تحفظت تجاه افتراض انتهاء الحرب الباردة واعتبرت أن ما يجرى لا تقدم اساس كافيا لكى يغير بشكل جذرى طبيعة العلاقة التنافسية التى قامت بين القوتين بفعل عوامل موضوعية تاريخية وحضارية مصالحهما

القومية المتباينة الناجمة عن حجمها الدولى واوضاعهم الجغرافية وتكوينهم الديموجرافى وعناصرالقوة لدى كلا منهما .

وقد بدأت هذه المدرسة مع ظهور **جورباتشوف** وسياسته الاصلاحية بالتشكيك فى اخلاص هذه السياسات وبأنها لا تقدم أفكارا جديدة وأنها ليست إلا تغييرا فى التكتيك، والتماسا لفترة لالتقاط الانفاس ولكى يكسب بها جورباتشوف بالدبلوماسية والسياسة وأنها ليست إلا تغيرا فى التكتيك والتماسا لفترة لالتقاط الانفاس ولكي يكسب بها **جورباتشوف** بالدبلوماسية والسياسة ما لم يستطع أسلافه تحقيقه بالدبابات كما اثارت هذه المدرسة فترات سابقة فى علاقات القوتين من التصالح بل والوفاق التى ما لبثت أن تراجعت وعادت علاقاتهما من جديد إلي طابع الصراع والتوتر وهو ما لا يستبعد تكراره.

على أن أنصار هذه المدرسة بعد أن تبين لهم اخلاص **جورباتشوف** وسياساته التى لم تعد مجرد بيانات أو نوايا وإنما دعمها بالافعال تحولوا من التشكيك فى اخلاص **جورباتشوف** إلى التساؤل حول حظه من النجاح والاستقرار فى وجه حجم المشاكل والضغوط التى تواجهه داخليا ومن ثم فقد اعتبروا من الخطأ التسرع فى افتراضات وبناء سياسات دائمة مادام الواقع السوفيتى الجديد قابل ومعرض للانتكاس .

أما الوضع فى شرق أوروبا والذى اعتبرته هذه المدرسة الامتحان الحقيقى لإنتهاء الحرب الباردة فإنها رغم اعترافها بالتطور الحادث فيها وتسامح الاتحاد السوفيتى معه إلا انهار إن هذا التطور قد يذهب إلى المدى الذى يشعر معه الاتحاد السوفيتى لاعتبارات تتعلق بمصالحه الأمنية، أنه لا يستطيع التسامح معها ويتجه إلى التدخل فيها على نمط ما فعل فى الخمسينات والستينات الأمر الذي يمكن أن يقوض كل الظواهر التى توحى للبعض بإنتهاء الحرب الباردة ومصادرها.

ما بعد الحرب الباردة؟

إلى جانب هذين التيارين المتعارضين فى تفسير ما يجرى على الساحة الدولية وبين قواها الرئيسية ثمة تيار حاول أن يمد بصره إلى أبعد من التطور الراهن ويتصور أوضاع وعلاقات القوى المقبلة وثمة فريق فى هذا التيار أخذ طريقا وسطا ويذهب إلى أنه حتى لو انتفت مظاهر العلاقات المتوترة إلى مرحلة الحرب الباردة إلا أن حقائق القوة القومية ستظل ملازمة للقوى العظمى وأن انتفاء هذه المظاهر لا يعنى أن المنافسة السياسية والايديولوجية وحتى العسكرية قد انتهت كما أن لنتعنى نهاية النضال من اجل القوة والنفوذ أما الشيء الجديد

فى هذا الصراع فهو أنه سوف يحل من خلال التراضى والحلول الوسط وتغلب المصالح المشتركة.

وكان خير من عبر عن هذا الفريق الدبلوماسى والمؤرخ الامريكى جورج كينان الذى درس ومارس الشئون الروسية والسوفيتية منذ العشرينات وتحول من منظر لسياسات الاحتواء إلى اكثر الدعاة اليوم لعلاقات ايجابية وبناءة مع الاتحاد السوفيتى وقد وقف مؤخرا يدلى بشهادته أمام مجلس الشيوخ الامريكى ويستشرف فى هذه اللحظات الفاصلة مستقبل العلاقات بين القوتين فقال يبدو لى أن أيا كانت الاسباب التى بدت من قبل للنظر إلى الاتحاد السوفيتى فى المحل الأول كخصم عسكرى فإن زمن مثل هذا الاحتمال قد مضى وأن الاتحاد السوفيتى يجب أن ينظر إليه اليوم بشكل أساسى كقوة عظمى شأنها شأن أى قوة عظمى أخرى والتى تتحدد آمالها وسياساتها بموقعها الجغرافى وتاريخا وتقاليدها ولهذا فإن آمالها لا تتطابق مع آمالنا ولكنها أيضا ليست فى صراع خطير معنا بشكل يبرر أى افتراض أن الخلافات الرئيسية لا يمكن التكيف معها بالوسائل السلمية من حلول وسط وموائمه واعتقد أنه فى الوقت الذى لا يجب أن نهمل فيه أمننا العام يجب أن نصفى بأسرع وقت ممكن عناصر التوتر غير الطبيعى التى

سيطرت حتى وقت قريب على العلاقات الامريكية السوفيتية وأن نحول اهتمامنا بدلا من هذا إلى تطوير الامكانيات الممكنة لهذه العلاقة والتى ليست بأية حال قليلة الأهمية.

أما الفريق الآخر من هذا التيار فهو يرى أن هذا التطور قد يحمل معه زيادة فى عدم الاستقرار حيث سنفتقر البيئة الدولية إلى التنبؤ واليقين وهو تصور يدفع اصحابه إلى أن ينظروا بالحنين إلى الايام القديمة للحرب الباردة والتى يرون أنها رغم ما اتصفت به من تواترات إلا أنها وفرت أطول فترة سلام وانتفاء للحروب بين القوى العظمى بل وشهدت فيها أوروبا مرحلة رخاء وازدهار.

غير أنه إذا كان لنا من تعقيب على أصحاب هذا الرأى الأخير فهو أنهم يتجاهلون أن الحقب التى أعقبت الحرب الثانية وإن كانت قد وفرت سلاما للقوى العظمى وللغرب إلا أنها ضاعفت من ميزانيات التسلح بشكل فإن التصور وتكدست ترسانات الاسلحة ووصلت إلى مستويات تدميرية تبلغ مئات المرات أسلحة الحرب العالمية الثانية أما الحقيقة التى تغافل عنها هذا الفريق فهى أن فترة ما بعد الحرب الثانية قد شهدت اندلاع أكثر من ١١٠ حرب أهلية ومنازعات اقليمية فى أقطار العالم الثالث راح ضحيتها قرابة ١٥ مليون نسمة وبدون أن

نخوض فى أصول ودوافع هذه الحروب والمنازعات إلا أنه من غير شك كان لمصالح وتنافسات القوى العظمى دورا فى نشوئها واذكائها وهى حقيقية يجب أن تتوقف عندها شعوب العالم الثالث وأن تدفعها إلى أن تدرس وتستوعب بدقة ما يجرى أمامها من تحولات فى أكان النظام الدولى الايديولوجية والسياسية والاقتصادية وهى التحولات التى أيا كانت الوجهة النهائية التى ستأخذها سيكون لها تأثير بالغ على مصائر شعوب العالم الثالث وقضاياها الحيوية.

روسيا والعالم

ظلت نظرة روسيا إلى نفسها والعالم وعلاقتها معه وكانت فيه موضع نقاش وجدل وبحث عميق على المستوى الحضارى والتاريخى والفلسفى والسياسى بين تياراتها القومية والفكرية مثلما من جانب المؤرخين وفلاسفة الحضارة وعلماء السياسة والشئون الدولية ويصدق هذا الاهتمام بالوضع الروسى ويجرى على عهود القيصرية وكذلك العهد السوفيتى مثلما يصدق ويثار اليوم بعد تصدع الاتحاد السوفيتى والامبراطورية الداخلية والخارجية التى بناها - حول روسيا مستعيدا بذلك بمعنى ما ، صورة ومكانه روما الثالثة التى تصورتها لنفسها الدولة المسكوفيه بعد سقوط الامبراطورية البيرنطية وغياب روما الثانية.

غير أن فهم وتتبع هذا النقاش حول مكانة روسيا وعلاقاتها بالعالم قد لا يتحقق بشكل موضوعى وشامل دون الالمام أولا على المستوى التاريخى والفلسفى بجوانب أساسية فى الحياة الروسية وبما يتسم به التاريخ الروسى والروح الروسية من تعقيد وبيئتها الطبيعية وامتدادها غير المحدود وللقوى الداخلية

التى تتجاذبها ما بين تراثها الاصيل والاغتراب عنه وكذلك حول ما تتصف به الشخصية الروسية من تناقضات وثانيا وعلى المستوى الحضارى والتفاعل مع الحضارات الأخرى بما واجهت به روسيا منذ القرن ١٧ وبعد مقدم الحكم السوفيتى تحديات الغرب العلمية والتكنولوجية وثالثا وعلى المستوى السياسى لأدوار روسيا منذ أن دخلت الساحة الدولية.

فعلى المستوى التاريخى والفلسفى وكما عبر المؤرخ والفيلسوف الروسى نيقولا برديائيف فإن التناقض الذى تتسم به الروح الروسية إنما يرجع إلى ما يتصف به التاريخ الروسى من تعقيد وإلى الصراع الناشب بين العنصرين الشرقى والغربى فيها فضلا عن العنصر الثابت والمستقر فى الروح الروسية وهو اتساع رقعة روسيا والسهل الروسى الذى لا تحده حدود.

ومن هذا ظل الروسى الصميم يتنازعه دائما عنصرين متعارضين وثنية طبيعية بدائية تتسم بها روسيا وزهد دينى أرثوذكس - مصدره بيزنطه وهو زهد يتطلع إلى العالم الآخر وفى جانب الطبيعة الروسية فإن منظر الروح الروسية يقابله منظر الارض الروسية فكلاهما يتصف بإنعدام الحدود والافتقار إلى الشكل والانفتاح على اللانهاية والرحاية أما على الجانب

الدينى فإن التكوين الدينى للروح الروسية إنما يتميز بصفات ثابتة هى القطعيــة والزهد والقدرة على تحمل الآلام وبذل التضحيات فى سبيل ما يؤمن به أيا كان والتطلع إلى التعالى الذى يتمثل تارة فى علاقتها بالابدية وبالعالم الآخر وتارة أخرى فى علاقتها بالمستقبل وبهذا العالم.

أما القوى والتيارات الفكرية الداخلية التى تجاذبت علاقة روسيا بالعالم وخاصة مع الغرب فقد تبلورت فى القرن ١٩ فى النزعتين السلافية والغربية فقد رأى دعاة السلافية أن السلافية أن الاصلاحات والتحديث التى بدأها بطرس الاكبر هو خيانة للاساس القومى الاصيل الذى تقوم عليه الحياة الروسية أما اصحاب النزعة الغربية فقد اعلوا من قدر نمط الحضارة الغربية واعتبروه النمط الوحيد ومن ثم عالميته وعلى هذا فإن بطرس بتنبيه لهذا النمط يكون قد اوضح سبل التنوير أمام روسيا وربطها بالمدنية الغربية.

ومثلما يستخلص بردياييف فإن الخصائص المميزة لروسيا والشعب الروسى لا يمكن وصفها بالمتناقضات والتى على أساسها يمكن وصف الشعب الروسى بأنه امبراطورى مستبد ومحب للحرية حبا يصل إلى حد الفوضى وأنه شعب ميال للقومية والغرور القومى ذو روح عالمية شعب قاس ولكنه ذو نزعة

انسانية غير عادية ميال للتعذيب ولكنه متعاطف تعاطفا لا حدود له وهذا التناقض نجده فى التاريخ الروسى بأسره ويوضح الصراع الأبدى بين غريزة القوة الامبراطورية وغريزة حب الشعب للحرية والعدالة.

روسيا وتحديات الثورة التكنولوجية الغربية

فى استعراضه لعلاقة العالم خاصة حضاراته ومناطقه الرئيسية بالعرب اختار المؤرخ البريطانى **آرنولد توينى** روسيا عبر مراحلها التاريخية كأحد النماذج الدالة على تعامل الحضارات غير الغربية مع الغرب وكذلك تطبيقا لنظريته حول: التحدى والاستجابة Challenge and Response وكان التحدى الذى واجهته من الغرب وركز عليه توينبى هو الثورات الصناعية والتكنولوجية وقد فصل توينبى ذلك فى كتابه.

فاعتبر أنه اذا كانت روسيا قد شعرت عبر القرون بالتهديد من الغرب ومنذ القرن ١٢ فإن التهديد قد أصبح أكثر خطورة بظهور الثورة الصناعية والتكنولوجية فى الغرب وقد كان رد روسيا على ما تعرضت له من تهديد من البولنديين والسويديين فى القرن ١٧ هو تبنى التكنولوجية الغربية بل واسلوب الغرب فى الحياة اعتقادا أن هذا الاسلوب ليس شيئا منفصلا عن

التكنولوجية الغربية ومن هذا كانت الثورة التكنولوجية والاجتماعية التى فرضت على الروس فى نهاية القرن ١٧ وبداية القرن ١٨ من اعلى بواسطة بطرس الاكبر وقد قدمت شخصية بطرس وعملية التحديث التى فرضها المفتاح لفهم علاقات الغرب ليس فقط فيروسيا بل وفى كل مكان. فإصلاحات بطرس لم تكن تخص روسيا وحدها بل أنه يتبنيه لها انقد العالم من الوقوع كلية تحت السيطرة الغربية بإجباره على تهيئة وتدريب نفسه لمقاومة العدوان الغربى بأسلحة غربية وقد ألهمت خطواته - بوعى أوبغير وعى - شخصيات مثل السلطان سليم الثالث ومحمود الثالث وكمال اتاتورك فى تركيا ومحمد على فى مصر ورجال الدولة اليابانيين اللذين قادوا ثورة التحديث اليابانى فى ستينيات القرن ١٨ وقد وضع بطرس روسيا فى سباق تكنولوجى مع الغرب وهوالسباق الذى استمر حتى اليوم وخلال هذا السباق لم تكن روسيا تستطيع أن تركن إلى الراحة لأن الغرب كان دائما يقدم تحديا جددا وقد مكن بطرس بإصلاحات روسيا من مجاراة الغرب فى هذا الوقت وبشكل مكنها من هزيمة السويديين عام ١٧٠٩ والغزاة الفرنسيين عام ١٨١٢ إلا أن ثورة الغرب التكنولوجية المتجددة فى القرن ١٩ وضعت روسيا من جديد فى المؤخرة وأدت إلى هزيمتها فى

الحرب الأولى من الغزاة الألمان مثلما هزمت من قبل من الغزاة البولنديين والسويديين وكانت هذه الهزيمة أحد الأسباب الرئيسية فى أن تحل حكومة شيوعية محل الحكومة القيصرية وأن يشرع النظام الشيوعى مرة أخرى فى أن يحقق لروسيا مرة أخرى ما حققه لها بطرس الاكبر منذ ٢٣ عاما مضت، فقد هزمت تكنولوجيا الثورة الشيوعية فى روسيا الغزاه الالمان فى الحرب الثانية مثلما هزمت ثورة بطرس التكنولوجية الغزاة البولنديين عام ١٧٠٩ والفرنسيين عام ١٨١٢ أما الثورة التكنولوجية الثالثة التى واجهها الروس فهى تلك التى اطلقها حلفائهم الامريكيين والغربيين وتمثلت فى القائهم قنبلة ذرية على اليابان وقد استمرت هذه المواجهة التكنولوجية وحكمت إلى حد كبير علاقات الحرب الباردة التى دامت لقرابة خمس عقود بين النظامين الرأسمالى والشيوعى ممثلين فى الولايات المتحدة وحلفائها الغربيين وروسيا كنواة ومركز الاتحاد السوفيتى وبمعنى من المعانى فإن هزيمة الاتحاد السوفيتى وانسحابه من صراع الحرب الباردة أمام الغرب هو هزيمة له على جبهة التحدى العلمى والتكنولوجى.

روسيا والساحة الدولية:

منذ أن دخلت روسيا الساحة الدولية أنشأت لنفسها وضعا مسيطرا وبسرعة مدهشة ففى مؤتمر السلام فى «وستفاليا» عام ١٨٤٦ لم يكن لروسيا أهمية كافية لكى تمثل فيه، ولكن منذ عام ١٧٥٠ أصبحت روسيا مساهما نشاطا فى كل الاجتماعات الأوروبية الهامة.

ورغم أن عنصر الامن الأوروبى والشعور العميق بالتهديد كان هو نفسه الدافع إلى التوسع ومرادفا له، إلا أنه ، وكماعبر **هنرى كينسجر** فى عمله الضخم Diplomcy يجب الاعتراف بأنه على مدى ٢٠٠ عاما الماضية فإن المحافظة على توازن القوى الأوروبية فى عدة مناسبات حاسمة قد تم بالجهد والبطولة الروسية فبدون روسيا كان **نابليون** و **هتلر** سوف ينجحون إلى حد كبير فى اقامة امبراطورية عالمية ويلاحظ **كيسنجر** أن وجهة نظر روسيا الممجدة لنفسها نادرا ما شاركها فيها العالم ورغم الانجازات غيرالعادية فى الأدب والموسيقى فإن روسيا لم تكن ابدا مصدرا للجاذبية الحضارية للشعوب التى سيطرت عليها كما فعلت قوى عظمى أخرى فى بعض مستعمراتها كما لم ينظر إلى الامبراطورية الروسية كنموذج لأمن مجتمعات أخرى ومن رعاياها وقد ظلت روسيا بالنسبة للعالم المحيط بها قوة أساسية

تنطوى على الاسرار ويكتنفها الغموض وتجنح إلى التوسع ومن ثم يجب أن تخشى وتحتوى من خلال التعاون أو الاحتواء.

وارتباطا بالاحساس الحقيقى بالكبرياء وبوضع القوة العظمى وهو الاحساس الذى لازم الانسان الروسى على مدى ثلاثمائة عاما كانت روسيا خلالها قوة عظمى سواء كمركز للامبراطورية القيصرية أو الاتحاد السوفيتى - جاء سقوط الاتحاد السوفيتى وتفكك الامبراطورية الروسية وكما عبر زيجنيو برجنسكى فى عمله الاخير: out of controle صدمة عنيفة حتى بالنسبة لهؤلاء اللذين لم يكونوا يؤمنون بالماركسية ويدركون ثغراتها الفكرية وعدم كفاءة النظام الذى اقامته.

واليوم وخلال عملية التفاعل التى تجرى فى روسيا اليوم فأية رؤية للمستقبل حول مكانة روسيا وعلاقاتها بالعالم وخاصة الغرب يمكن أن تكون ذات جاذبية وتأثير وتعرض فى نهاية الأمر نفسها فى تقدير برجنسكى أن أقلية فقط من الشعب الروسى هى التى تعتقد أن روسيا يجب أن تكون دولة طبيعية Normal ودولة أوروبية وهم فى هذا يدافعون فى الواقع عن ادماج روسيا وفيما بعد فى المجموعة الاوروبية وكجزء متكامل من حضارة أوروبية أوسع وأن كانت هذه الدعوة تعترف أن هذه ستكون عملية بطيئة بسبب الفجوات الموضوعية والذاتية التى

تفصل روسيا عن الغرب ورغم هذه العقبات فإن أصحاب هذه الدعوة يعتبرون ـ كما اعتبر اسلافهم دعاة التغريب فى القرن ١٩ ـ انه ليس هناك طريق آخر أمام روسيا لكى تصبح حديثة وديمقراطية ومثلما انكر السلاف فى القرن ١٩ على دعاة التغريب اتجاههم إلى الغرب معتبرين أن هذا يؤثر على الطابع الحضارى الأصيل لروسيا فإن تيارا قوميا يناهض اليوم دعوة الغربيين ويعتبرونها غير عملية بل ومنحرفة فهى عملية لأنه ولحقب عديدة لن تستطيع روسيا أن تقرب الفجوات ومستويات المعيشة وطريقة التفكير التى تفصل روسيا عن اوروبا وهى دعوة ضالة ومنحرفة لأنها تعنى نبذ روسيا عن اوروبا وهى دعوة ضالة ومنحرفة لأنها تعنى نبذ روسيا لحضارتها وتاريخها المتميزة فإن تصبح روسيا جزء من أوروبا يعنى توقفها عن أن تصبح نفسها ذلك أن روسيا ليست مجرد دولة ولكن طريق بديل ومتميز للحياة فهى حضارة فى ذاتها وهوية يجب الاعتراف بها بنفس الدرجة التى يعترف بها لاوروبا وآسيا كهويات متميزة.

وتفسر هذه النظريات المتعارضة حول مستقبل روسيا النقاش الذى احتد منذ عام ١٩٩٢ فقد جاء انهيار الاتحاد السوفيتى لكى يغزى الاتجاه الغربى وبدأ أصحابه يسيطرون على الخطاب العام حول مستقبل روسيا ففى مرحلة ما بعد

الشيوعية نجد أن الصعوبات التي ظهرت امام الاصلاحات الاقتصادية والسياسية على أساس النموذج الغربي حركت شكوكا تزايدت حول الصيغة الليبرالية والوصفة الغربية وابرزت بالتالى الاتجاه الذى يدعو إلى أن يجهه روسيا الداخلية والخارجية يجب أن تكون مختلفة وأكثر تميزا واتفاقا مع التقاليد والمصالح الروسية من هذه النظرة البديلة فرضت وتطورت فى الواقع صيغتين أحدهما معتدلة تؤكد أن رسالة روسيا فى العالم هى أن تبدأ وتريد حوارار متعددا للثقافة والمدنيات والأمم وبذلك تكون روسيا هى رابطة العقد والأمة التى تتشرب الغرب والشرق والشمال والجنوب وهذه الصيغة فى الواقع هى تعبير وامتدادا للاحساس الخاص برسالة روسيا فى العالم وتفردها أما الصيغة الثانية فهى التى أخذت شكلا متطرفا ومهاجما للاتجاه الغربى المتزايد لقادة ما بعد الشيوعية وعند أصحاب هذه الصيغة فإن سياسة روسيا الداخلية والخارجية يجب أن تتجه إلى إعادة خلق الاتحاد وهو ما يعنى الامبراطورية وقد عبرت هذه الصيغة عن نفسها وتبلورت فى انتخابات عام ٩١م وحين حصل ممثلها جيرونفسكى على ٧ ملايين صوت.

غير أن ما يجب توضيحه أن مثل هذه الدعوات القومية لاتتضمن عودة إلى الشيوعية ولكن ما تؤكد عليه هو مفهوم

الدولة القوية التى تجسد التقاليد الفريدة لروسيا والتى تفرض النظام باسم المثل الاعلى وتنشد إستعادة الاعتراف العالمى بامبراطورية قوية تحدد لنفسها رسالة جديرة بها فى علاقتها بالعالم وعند هذا التيار فإن مثل هذه الدولة هى التى تستطيع أن تتغلب على حالة التشويش الفلسفى والتى سادت عقب انهيار النظام السوفيتى وظلت عقل وروح الروسى العادى.

غير أن ما يتخوف منه اللذين يراقبون بدقة وفى ضوء خبرات تاريخية سابقة مع مثل هذه التيارات القومية هو امكان أن يتطور هذا التيار الروسى القومى وتوجيهه إلى بناء اسطورة جددة على غرار النظام الفاشى أو النازى ومن استغلال الجانب غير العقلانى فى الطبيعة البشرية والعواطف التي يمكن أن تتكشف من خلال رموز قومية تستغل جاذبية القوة القومية والمجد وتستجيب إلى التطلع للنظام والتوحد.

بل إن تخوف هؤلاء المراقبين يذهب إلى أن هذا النمط من التفكير الروسى يمكن أن يمتد إلى أجزاء أخرى من الاتحاد السوفيتى السابق والتى يسود فيها بشكل أصعب وأكثر تعقيدا الصعوبات الاقتصادية وحيث يبدو الخيار الديمقراطى أكثر اظلاما كما أنها يمكن أن تغذى بعض أجزاء أوروبا الوسطى خاصة إذا فشل فيها البديل الديمقراطى والاصلاح الاقتصادى.

على أية حال أيا كانت نتيجة التقلصات والتفاعلات التى تجرى فى روسيا اليوم حول واقعها ومستقبلها فسوف تظل ملاحظة تبنى التاريخية حول مستقبل روسيا ومحدداته ذات معنى تستطيع أن تتوقع أن قرار روسيا النهائى سوف يتأثر بشكل عميق بالاحساس بكنيستها الشرقية ووعيها بالمصير الذى ورثته ايضا من تاريخها البيزنطى وفى ظل المطرقة والسندان مثلما كان فى ظل الصليب ظلت روسيا هى روسيا المقدسة وموسكو هى روما الثالثة.

مفارقات النظام الدولى الجديد

فى اعقاب انقضاء الحرب الباردة بصراعاتها وتهديداتها واهم من هذا بالطريقة التى انتهت بها والسقوط المدوى للاتحاد السوفيتى كنظام ودولة وامبراطورية سادت حالة من النشوة فى اجواء التحالف الغربى الامريكى بخروجه منتصرا من صراع الحرب الباردة الذى دار على مدى خمسة عقود على الاصعدة الايديولوجية والعسكرية والسياسية وكانت ساحته العالم كله بمناطقة وقاراته المختلفة وبحثا عن المكانة والنفوذ وصاحب هذه النشوة وما كانت فى الواقع انعكاسا لها وتعبيرا عنها نظريات حول نهاية التاريخ وعن خروج الغرب وقيمه ونظمه السياسية والاقتصادية منتصرا بشكل نهائى وحاسم وبلا منافس وتوقع توافق عريض واهداف مشتركة بين القوى الكبرى وباختصار كما عبر ويليم هايلاند William Hayland تصورت معظم الشعوب فى الولايات المتحدة وغرب اوروبا أنها تستطيع أن تمد اقدامها وتسترخى.

غير أنه سرعان ما تكشف أن الأمر ليس بهذه البساطة وأنه

اكثر تعقيدا وأن التاريخ لا يتوقف ابدا وأنه قد لا يعيد أحداثه ويعيد تحريك قوى كانت كامنة تحت السطح أو أنه على الأقل يغري اتجاهه ويجد طريقا آخر للتعبير عن اضطراباته.

وما لبث أن ظهر عدد من المفارقات بين التوقعات التى أوحت بها النهاية التى انتهت بها الحرب الباردة وبين ما بدأ يتكشف ويصاحب تفاعلات تشكيل النظام الناشىء الجديد فللمفارقة فإن أول الغيوم التى ظهرت لكى تعكر من السماء التى بدت أنها قد صفت جاءت من المناطق التى تجاهلتها نظريات نهاية التاريخ واعتبرت أنها تقع خارجه أو على الاكثر على حواشيه وعلى اطراف عصرنا الجديد الشجاع وهى مناطق العالم الثالث حيث صدرت أول التحديات التى واجهها عالم ما بعد الحرب الباردة من هذه المناطق حين أقدم العراب على غزو الكويت بكل معانى هذا الحدث الذى تعدى نطاقه المحلى والاقليمى كما لم يكن هذا الحدث إلا مؤشرا على سلسلة الأخطار والتحديات التى تواجه النظام الجديد وقواه المنتصرة بالانتشار النووى والأصوليات الاسلامية وموجات الهجرة، تفجر الاقليات والحروب الاهلية وتفكك هياكل دول ومجتمعات..

أما المفارقة التاريخية الأكثر وقعا التى واجهت الغرب بعد خروجه المنتصر من الحرب الباردة فقد بدت حين بدأت تظهر

تفاعلات وآثار الانهيارات التي وقعت في الاتحاد السوفيتي وامبراطوريته الداخلية والخارجية فنتيجة لانهيار النظام السياسي للحكم السوفيتي وقبضته المركزية تفككت وحداته وأعلنت جمهورياته الخمسة عشر استقلالها كدول مستقلة بما يكمن فيها من خلافات حول الحدود ونزعات عرقية سواء بين هذه الجمهوريات بعضها البعض أو في داخلها وكذلك وضع الاقليات الروسية فيها.

وفي المعاني البعيدة لهذا التفكك قارنها بعض المؤرخين بتأثير اتفاقية فرساي عام ١٩ بالنسبة لالمانيا بعد الحرب الاولى وبالنسبة لفرنسا حين خسرت شمال افريقيا في الخمسينات والستينات مشيرين إلى أن الشعور بالمهانة الذي نجم عن اتفاقيات فرساي كان من العوامل الحاسمة لظهور الاشتراكية القومية في المانيا ولعل ما يشهده المسرح الروسي حاليا من بروز التيارات القومية المتطرفة(جيرفوفسكي) بل واحتمال عودة الشيوعية ما يعطي معنى ومصداقية لهذه المقارنة.

وقد امتدت لمخاوف التي بدت من تصدع الاتحاد السوفيتي إلى أكثر مكوناته خطورة وهي ترسانته النووية وتوزعها على أربع وحدات من كيانه القديم وهي روسيا واوكرانيا وكازافستان

وروسيا البيضاء وقد بدت خطورة مصير هذه الترسانة وسط الانهيار الاقتصادى والظروف المعيشية لآلاف العلماء والباحثين الذين يديرون ويمتلكون اسرار التكنولوجيا النووية ومن بروز مخاوف حقيقية من امكان تسرب مواد نووية إلى أيدى قوى تتطلع لبناء قدراتها النووية ورغم الاجراءات التى اتخذتها الولايات المتحدة والغرب لمواجهة هذا الوضع إلا أنه ما زال يشكل تحديا حقيقيا.

أما المفارقة التى ارتبطت بانهيار الاتحاد السوفيتى فقد تمثلت فى التداعيات التى نشأت نتيجة لغياب السيطرة السوفيتية على بلدان شرق أوروبا وانهيار النظم الاشتراكية فيها، فقد اظهرت التطورات أن عملية الانتقال إلى النظام السياسى والاقتصادى الجديد لم تكن امرا سهلا حيث ارتبطت بتقلصات عنيفة عبر عنها الزعيم التشيكى فأسلاف هافل بقوله إن مجتمعنا مازال فى حالة صدمة وهو وضع كان يمكن تصوره ولكن أحدا لم يتوقع أن تكون بهذا العمق أن النظام القديم قد انهار ولكن النظام الجديد لم يولد بعد ولسنا متأكدين أى نوع من النظام نريده وكيف نبنيه وعما اذا كنا نمتلك وسائل وادوات بنائه ولعل هذه الحيرة وعدم التأكد من الاتجاه الذى عبر عنه هافيل تفسر عودة الاحزاب الشيوعية القديمة وشخصياتها إلى

الحكم فى عدد من دول شرق اوروبا ورغم الصيغ الجديدة التى قدمت بها نفسها.

وباختصار أصبح من المعضلات أمام المنتصرين فى الحرب الباردة هو كيفية معالجة آثار الامبراطورية السوفيتية وكيفية التعامل مع تفاعلاتها وتقلصاتها الداخلية وكيفية ادخال وريثتها الكبرى وهى روسيا ضمن نظام الأمن الأوروبى لا أن تتمرد عليه من جديد وتتحداه غير أن المفارقات التى كشفت عنها تطورات تصدع النظام القديم بالنسبة للقوى التى انتصرت فى صراع الحرب الباردة لم تأت فقط من خارجها ومن القوى التى تتفاعل حولها وإنما أتت من داخل القوى التى ستشكل النظام الجديد ومن طبيعة واتجاه العلاقات بينها والعوامل التى ستكون أكثر تأثيرا فى صياغة هذا النظام، فعقب تصدع نظام القطبية الثنائية وانسحاب إحدى قوتيه الرئيسيتين بدأ نقاش عريض حول: ماهية القوة أو القوى التى ستحكم النظام الدولى الجديد وكان الافتراض الاول أن الولايات المتحدة الامريكية ستكون هى القطب الاوحد على المسرح الدولى باعتبار ما تمتلكه من تجمع فريد unique combination للقوى العسكرية والاقتصادية والعلمية والدبلوماسية والجاذبية الحضارية وهى القوى التى لا تتوفر مجتمعه لأى قوى دولية أخرى قد تتوفر لها ميزة نسبية

على الولايات المتحدة فى واحدة من عناصر القوة ولكنها لا تمتلكها مجتمعة ومن ثم نشأ التصور بأنه إذا كان القرن العشرين قرنا أمريكيا فإن القرن المقبل سيكون امريكيا كذلك.
غير أن هذا الافتراض ما لبث أن تعرض للفحص والنقد الذى انتهى إلى أن الولايات المتحدة والمفارقة كذلك بفعل اجهاد الحرب الباردة لم تعد تملك مقومات القوة العالمية المنفردة باعتبارمجموعة الضغوط الاقتصادية والاجتماعية التى تواجهها داخليا وحجم المصادر والموارد التى تحتاجها لوقف التراجع فى هذه المجالات وبفعل ظهور قوى منافسة لها من بين حلفائها وحول واحد من اكثر العوامل حسما فى مكونات القوة وهو العامل الاقتصادى وعلى هذا تبين أن الولايات المتحدة ـ رغم ما زالت تملكه من عناصر القوة إلا أنها لم تعد كافية لكى تقوم ـ مثلما كانت تفعل فى الخمسينات والستينات بمبادرات عالمية وتتولى تنفيذها منفردة أو تجبر حلفائها على الاشتراك معها وهكذا نشأ الافتراض الثانى بأن عالم الغد سوف يحكمه من جديد نظام القطبين وسوف تشارك فيه الولايات المتحدة هذه المرة اوروبا الغربية أو اليابان غير أنه بتعرض هذا الافتراض كذلك للفحص والمناقشة تبين أن اوروبا الغربية أو اليابان غير أنه بتعرض هذا الافتراض كذلك للفحص والمناقشة تبين أن

اوروبا الغربية رغم ما تمتلكه من ميزات حضارية وقاعدة بشرية وعلمية وصناعية يمكن أن تشكل بها قوة دولية مؤثرة إلا أن ذلك مشروط بتحقيق اوروبا لاندماجها ووحدتها الاقتصادية والسياسية غير أن التطورات منذ ماستريخت ـ ديسمبر ١٩٩١ وما صادف خطوات الوحدة النقدية والاقتصادية من عقبات وما اظهرته تجربة اوروبا المهينة فى يوغوسلافيا من غياب الارادة السياسية الموحدة قد كشف عن ان اوروبا ما زال امامها شوط بعيد نقطة لتحقيق هذه الوحدة.

أما افتراض بروز اليابان كقوة ذات وزن ودور قيادى فى العالم فقد أدى فحص امكانياتها الشاملة إلى أنه رغم ما اصبحت عليه اليابان من قوة اقتصادية عملاقة تقف بها كاكبر دائن فى العالم وتمثل بنوكها اكبر عشر بنوك عالمية وتمتلك فائضا يبلغ ٢٠ بليون دولار ويبدو من الصعب هزيمة أو منافسة شركاتها وتقدم اكبر نسبة من المساعدات الخارجية على الرغم من ذلك فقد تبين أن القوة الاقتصادية اليابانية يرد عليها عدد من القيود تجعل من الصعب أن تمتلك عناصر القوة الشاملة التى تؤهلها لقيادة العالم.

هذا الفحص للافتراضات التى نشأ حول عالم تحكمه قوة واحدة هى الولايات المتحدة أو تحكمه قوتان قاد إلى الافتراض

الثالث والذى أصبح أقرب إلى التحقيق وهو أن النظام الجديد سوف يتشكل حول قوى ومجموعات متعددة تتداخل فيها عناصر القوة العسكرية والاقتصادية والتكنولوجية وهو الوضع الذى يجعل الخريطة الجيوبولوتيكية للعالم اكثر تعقيدا أو تقلبا يمكن أن يصبح فيه صديق اليوم هو عدو الامس والعكس وتصبح فيه التحالفات القديمة مثل حلف الاطلنطى غير ذات موضوع Ir-relevant وما قد يكتسب أهمية هى الائتلافات المؤقتة Aohoc حول قضايا مثل حرب الخليج وفى مثل هذا الاطار فإن العلاقات بين الأمم سوف تتسم بالغموض والعالم الذى كان يتكون من الطيبين والاشرار سوف يحل محله ومأديا وتتحول فيه علاقات القوى الرئيسية إلى خليط ردىء من التعاون والتنافس وحالة العلاقات بين القوى التى كان يسهل تعريفها بالحرب الباردة سوف يصعب التوصل إلى تعريف دقيق لها وتتأتى الصعوبة لأمن عدم امكان التوصل إلى تعريف وإنما من كثرة وتعدد ما يمكن أن تتصف به من حروب باردة جددة.

وهكذا فإن حالة النشوة والاستبشار التى سادت فى الاجواء وصاحبت انعقاد الحرب الباردة وتصور تراجع الصراعات ـ على الاقل الرئيسية فيها ـ بين قوى العالم الجديد ـ قد استبدلت بتوقع اكثر قتامه ينبىء عن أن العالم مقدم ولفترة العشرين

عاما القادمة على الاقل على أكثر فتراته تعقيدا فى علاقات قواه وأنه بعد المواجهة الصريحة المباشرة الواضحة الحدود والمعالم بين تحالف فترة الحرب الباردة يدخل العالم إلى المناورات الاخطر لنظام تعدد القوى وبشكل يجعل القرن القادم شبيها بعالم القرن التاسع عشر أكثر من بعالم القرن العشرين بما هو معروف عن ما يتميز به العالم المتعدد القوى من عرضه للاتجاه فى الطريق الخطأ وبما يحتاجه صناع القرار فيه من أن يضعوا فى الاعتبار ردود الفعل الممكنة لأمن قوة واحدة فقط ولكن لعدة قوى والتى قد تكون متصادمة مع بعضها بل أن عالم القرن الواحد والعشرين قد يثبت أنه أكثر خطورة من القرن التاسع عشر. حيث كانت القوى العظمى فيه (بريطانيا ، فرنسا، المانيا ، روسيا ، النمسا، المجر) أوروبية تشترك فى تراث ثقافى وحضارى وأحد أما المنافسين المحتملين للقرن المقبل سواء منفردين أم مجتمعين. فلا يجمعهم إلا القليل المشترك الامر الذى يجعلهم ومما يزيد من تعقد هذا الاحتمال أم تنافسى القرن الواحد والعشرين سيمتكلون من القدرات التكنولوجية وما يجعلهم أكثر قدرة على انزال اضرار أكبر ببعضهم البعض بأكثر مما كانت تفعله الدول القومية الاوروبية للقرن التاسع عشر.

هذا التصور يدلل على المفارقة الختامية فى سلسلة المفارقات التى ولدها تصدع النظام القديم والتوقعات الكبير التى صاحبته مقابل ما كشفت عنه التطورات على مدى الخمس سنوات الماضية.

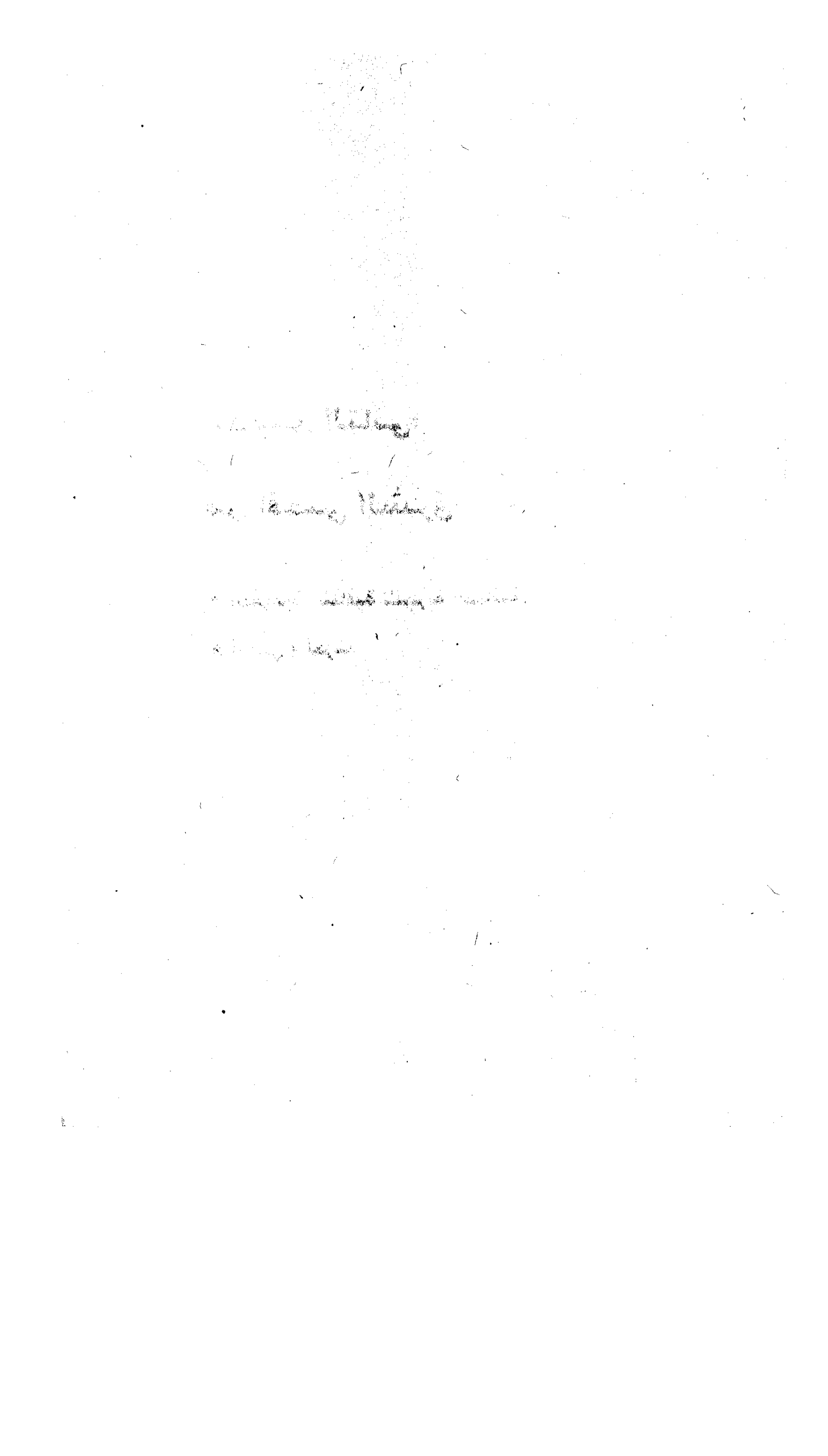
إن القوى التى جمعها التحالف ضد الاتحاد السوفيتى بوجه خاص قد تجد نفسها فى حاجة إلى نظرية احتواء جديدة Contaiament شبيهة بتلك التى صاغتها بعد الحرب الثانية لتواجه بها الاتحاد السوفيتى إلا أن نظرية الاحتواء الجديدة ستكون ذات طابع جديد ومصممة لكى تحتوى اخطاراربعضها يأتى من داخلها ومن طبيعة العلاقات فيما بينها وتدور اساسا حول التنافس الاقتصادى والتجارى والبعض الآخر يأتى مما تفرضه قوى جديدة من تحديات.

القسم الثانى:

من أقصى الشرق:

★ المقومات الثقافية للتجربة اليابانية.

★ الصين والغرب.



عن المقومات الثقافية فى التجربة اليابانية

فى عام ١٩٤٥ وبعد هزيمتها النهائية فى الحرب العالمية الثانية. كانت اليابان تقف وسط الحطام فقد محيت إمبراطوريتها القوية من الخريطة وتقلصت إلى ما كانت عليه عام ١٨٦٨ حين بدأت خطواتها الثابتة نحو التحديث والمكانة ودمرت مدنها ومراكزها الصناعية وبدأ شعبها الذى انهارت معنوياته مشرفا على المجاعة وباختصار ظن العالم أن اليابان قد انتهت.

إلا أنه فى عام ١٩٥٠ - أى بعد خمسة أعوام من الانهيار- بدأت اليابان تستعيد استقرارها المالى وتعيد بناء الجزء الاكبر من مدنها ومؤسساتها الصناعية وتوفر الطعام لشعبها وتوسع من تجارتها وتزيد من انتاجها الصناعى مرتين عما كانت عليه فى الثلاثينات وترفع من دخل الفرد فيها إلى مستوى ما قبل الحرب ومع عام ١٩٥٥ وكانت اليابان قد حققت هدفها الاول فى أن تستعيد تماما قوتها الاقتصادية توجهت جهود اليابان كلية إلى تحقيق الهدف الثانى والذى تاقت له منذ زمن طويل وهو

اللحاق بالغرب وفى الحقبة ما بين ١٩٥٠ - ١٩٦٠ بلغ معدل النمو السنوى للدخل القومى ٥ ,٩٪ وكان بذلك أعلى معدل نمو فى العالم وبلغ فى الستينات ١٠٪ ومع عام ١٩٦٨ وصلت اليابان إلى العملاق الثالث فى العالم من حيث القدرات الاقتصادية والصناعية بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وتشير التوقعات انه مع نهاية هذا القرن سوف تتجاوز اليابان الولايات المتحدة فيما يتعلق بالانتاج الصناعى ودخل الفرد.

وقد أثار هذا الانجاز الذى حققته اليابان عددا من الاسئلة المتصلة بالمقومات التاريخية والحضارية ويدور السؤال الأول عما اذا كان هذا التقدم متصلا أو مقطوع الصلة بالتاريخ والتطور اليابانى ويتساءل السؤال الثانى عن كيف حقق اليابانيون هذا الانجاز وبعبارة آخر ماذا لديهم من مقومات وخصائص روحية وثقافية وحضارية جعلت هذا الذى حققوه ممكنا.

أما السؤال أو القضية الثالثة التى أثارتها الظاهرة اليابانية فتدور حول أزمة الشخصية اليابانية والتى نشأت عن الصراع بين ما تبينه اليابان من اساليب وأسس الحضارة الذاتية للشخصية اليابانية.

الأصول التاريخية للتجربة اليابانية:

ولمناقشة السؤال الأول فسوف نجد أن الانطباع الخاطيء عن هذا الانجاز اليابانى أنه نتيجة عمل وأداء الفترة التى تحقق فيها والحقيقة هى أن هذا التقدم الاقتصادى والصناعى والعلمى الذى بلغته اليابان أخيرا هو النتيجة الطبيعية لعملية تحديث تذهب بعيدا فى التاريخ اليابانى برغم حقيقة أنه حتى وقت حديث جدا تطور المجتمع اليابانى والثقافة اليابانية فى عزلة نسبية فإن هذا لا يعنى بأية حال أن الأمة اليابانية قد بزغت من فراغ غير متأثرة بقوة أجنبية فمع بداية القرن السادس كان أحد ساسة اليابان المرموقين (شوتكو) يرسل البعثات للصين لدراسة امجاد الثقافة الصينية ويستورد التكنولوجيا والمؤسسات الاجتماعية والسياسية الصينية المتقدمة ورغم الموقف الصارم الذى وقفه الحكام اليابانيون من بعثات التبشير الغربية وممن نجحت فى تحويلهم إلى المسيحية ومنع أى يابانى من السفر إلى الخارج وعدم السماح لأى من الاوروبيين بالعيش فى اليابان اللهم إلا حفنة من الهولنديين انحصروا فى جزيرة صغيرة فى ميناء نجازاكى، رغم هذه العزلة المفروضة على النفس، فإنها لم تعن أن اليابان بقيت

على جهل تام بالتطورات فى الخارج، فقد قدم هذا المركز الهولندى نافذة على العالم وأصبحت الهولندية لغة التعلم الغربية، فى اليابان ومن خلال كتب أحضرت من هولندا تمكن الدارسون اليابانيون من أن يبقوا جزئيا على الاقل مسايرين للتقدميين العلمى والثقافى فى الغرب ونتيجة لذلك وحين التحقت اليابان بالعالم وتعرضت لعناصر التحديث كانت تمتلك مجموعات صغيرة من الرجال قادرين على تناول التكنولوجيا الغربية ومفاهيم غير أن عملية الاندفاع نحو بناء أمة حديثة بدأت بشكل جاد مع عهد الامبراطور ميجى (١٨٥٢ - ١٩١٢) وخلال عهده الذى بدا عام ١٨٦٨ وتؤرخ بنهضة اليابان الحديثة واستمر اربعا وأربعين سنة بدأت اليابان فى الانفتاح أكثر فأكثر على العالم الغربى، وسافرت بعثات يابانية إلى الخارج والتحقت بالجامعات وعملت فى المعامل والمعاهد وقدم البناء الصناعى المتقدم لفرنسا وبريطانيا نموذجا للمصنع اليابانى وأصبح جيش اليابان الحديث تكرارا للجيش الالمانى والاسطول البحرى اليابانى على نموذج الاسطول البريطانى أقوى الاساطيل البحرية فى العالم وهكذا يمكن أن نستخلص أن الظاهرة اليابانية ليست شيئا مستجدا أوعارضا وإنما هى شىء مستمر ومتصل ولها جذورها فى التاريخ اليابانى .

والقضية الثانية التى تثيرها التجربة اليابانية تتصل مباشرة بالفرد اليابانى بخصائصه الذاتية وقيمه الروحية والثقافية بعلاقاته بذاته وبيئته بمؤسسته التي يعمل فيها وبمجتمعه كما تتصل بالمجتمع والأمة اليابانية ومقوماتها العرقية والثقافية وجميع هذه الخصائص سواء المتصلة بالفرد أو المجتمع إنما تقدم مفاتيح نلج بها إلى الفهم والاجابة عن التساؤل عما مكن اليابانيين من تحقيق ما حققوه فى هذا يتفق رجال التاريخ والاجتماع ودارسو الحضارة اليابانية على عدد من الخصائص المميزة للشخصية والكيان اليابانى الاهتمام بالجوانب الروحية رغم كل مظاهر التغيير فى الحياة اليابانية ثمة شيء يبدو مستمرا وصامدا فى الحياة والشخصية اليابانية وهو الاهتمام بالأمور المتصلة بما يسمى باليابانية seishien وهو ما يترجم تقريبا بالروح spirit ويرتبط هذا العامل بالقدرة على تحمل المعاناة والألم والثبات والجلد كما يشير إلى حالة عقلية لا تحتوى على تناقضات أو مؤثرات داخلية والاهتمام بأمور الروح إنما يستهدف اهدافا عملية فالتأمل لساعات طوال وتحمل المشاق الجسدية واتباع نظم روحية أخرى إنما يقصد لأهداف الدنيوية من تحسين الاداء فى العمل أو الدراسة ويحكم هذا

الاتجاه الاعتقاد بأن الانسان يستطيع أن يحقق غير المتوقع وما هو فوق طاقة البشر حين يعمل قواه الروحية ووفقا لهذا الاتجاه فإن الصعاب لا تحمل بشكل سلبى أو من أجل ذاتها وإنما من أجل تهذيب النفس وتدريبها على التعامل مع مشاق الحياة ويصور مثل يابانى قيمة المعاناة بقوله ليس هناك شىء أجمل فى الشخصية الإنسانية من الملامح التى تعكس المعاناة العظيمة غير أن التأكيد على المعاناة ومعانيها لا يعنى استبعاد المسرات الجسدية فهى شىء مقبول ولكن يجب أن تكون فى موضعها والشخص الجاد الناجح هو الذى يوائم بينها وبين مطالب الروح أو يخضعها لها فلكى يسيطر الانسان على أى موقف أو عمل يجب أن يسيطر أولا على نفسه ويتجه مفهوم الروح إلى تأكيد فكرة السلطة والتدرج الرئاسى فالشخص الذى يقبل هذه الفكرة هو الذى يتصرف فى عمله بولاء وهو نفس الشخص الذي يصبح فى الوقت المناسب قائدا صالحا وفى سياق هذا النظام يتعلم الفرد التغلب على الرغبات الشخصية التى تعوق انجاز الجماعة وفي موقف احترام السلطة فإنه لا يطلب من الفرد أن يتخلى عن حياته كما كان الحال فى نموذج «الساموراى» وإنما يطلب منه أن يتخلى فى موقف ما عن مسراته الشخصية وآرائه الفردية وامتيازاته إذا ما تناقضت مع

انجاز اهداف وواجبا عظيمة هذا العنصر إنما يقف على النقيض من المادية والفردية الغربية وأصبح من العوامل الفريدة التى تمتلكها الشخصية اليابانية وأصبح التقدم اليابانى الحديث شهادة على روح اليابان الخاصة وطابعها القومى بحيث أنه إذا ما تراجعت هذه الروح وهذا الطابع القومى وهوما يخشاه اليوم كثير من اليابانيين فربما تهدد ما حققته اليابان .

ب. **تجانس المجتمع اليابانى** رغم أن اليابانيين نادرا ما يعترفون بذلك فإن مجتمعهم مغلق مقصور عليهم والطريقة الوحيدة لاكتساب القبول الكامل من اليابانيين هى أن تولد فى قبيلتهم فهى اذن عملية طويلة من الانصهار الثقافى والعرقى التى جعلت اليابان من اكثر الامم تجانسا فى العالم وهو السبب الرئيسى وراء قدرة اليابانيين على الأخذ بالأساليب والقيم الغربية ومع هذا ما زالوا محتفظين بإحساس حاد بشخصيتهم الخاصة إن هذا الاشتراك فى خلفية عريضة مشتركة يفسر قدرة اليابانيين على قراءة عقول ووجود بعضهم البعض ولهذا فإنه ليس من الممكن لمهاجر أو لأبناء المهاجرين أن يصحوا يابانيين أو لأبناء المهاجرين أن يصبحوا يابانيين بالطريقة التى يصبحون بها امريكيين فالطريقة التى تصبح بها يابانيا هى نفس الطريقة التى تكون فيها من قبيلة الزوكوا أو الشئونا فى

افريقيا: أن تولد في القبيلة فإن شعب اليابان أو على الاقل ٩٧٪ منه هم حقا أعضاء قبيلة عظمى واحدة متوحدون ليس فقط بالمواطنة المشتركة أو اللغة المشتركة إنما برابطة الدم الواحد والذاكرة المشتركة والقواعد القبلية المشتركة والتى يرجع بعضها إلى ما قبل التاريخ وعلى هذا فحين يقول أحد اليابانيين أننا نحن اليابانيين ١٠٠ مليون من الاشقاء فإن هذا ليس من قبيل المبالغة أو الخيلاء أنه فقط يحاول أن يفسر ماذا يعنى أن يكون المرء يابانيا.

ـ الاحساس بالمسئولية وروح الجماعة

يسيطر على اليابانى احساس بالمسئولية تجاه المجموعات المختلفة التى ينتمى إليها شركته مؤسسته ومجتمعه وهكذا ومع هذا الاحساس المسيطر بالانتماء لدى اليابانى ثمة ادراك حاد بتعرضه وتعرض مجتمعه للخطر واليابان التى تبدو الآن قوية بشكل يدعو لحسد العالم الخارجى وتمتلك أكثر اقتصاديات العالم تقدما وكفاءة تبدو بالنسبة لليابانيين معرضة للخطر بشكل مستمر. فثمة اعتقاد دائم بالخطر الكامن. ربما كان مدفوعا بالزلازل والاعاصير التى تخرب الجزر اليابانية عبر كل تاريخها المعروف وهو الاعتقاد الذى تدعم بحقيقة أن اليابانيين

عام ١٩٤٥ كانوا هم وحتى الآن الامة الوحيدة التى تعرضت لهجوم ذرى.

وقد يجادل البعض بأنه رغم أن المخاوف التى يخشاها اليابانيون قائمة فإن أحدها لن تقع أو على الاقل فى صورة كارثة ومع هذا فثمة اقتناع بأن الضغوط التى تفرضها هذه المخاوف على اليابانيين هى ضغوط حقيقية وهى تساعد على دعم مظاهر أخرى فى الشخصية اليابانية : القيم القبلية الاخلاق الكونفوشيوسية والتركيز القوى على تدرج السلطة والولاء كل هذه العوامل أنتجت مجتمعا تأخذ فيه مسئولية الفرد نحو الجماعة أولوية لا تتقهقر فى أية أمة شرقية أو حتى فى التى تأخذ بالنظم الجماعية مثل الاتحاد السوفيتى.

وبينما يميل الامريكيون مثلا إلى النظر إلى العمل والتفكير الجماعى كشىء يعوق المبادرة ويؤخر التقدم فإن اليابان تقدم نموذجا حيا على أن هذا ليس بالضرورة كذلك فثمة فارق مهم بين الأمر اليومى للادميرال البريطانى نلسون إلى جنوده أن انجلترا تتوقع أن يؤدى كل رجل واجبه وبين امر الاديمرال اليابانى توجو لجنوده خلال الحرب الروسية اليابانية أن مستقبل امتنا وامبراطوريتنا يعتمد على اداء كل فرد منكم فهنا نجد أن الادميرال اليابانى أكثر بكثير فيما يطلبه ويتوقعه من جنوده

مجسدا لمبدأ أن لا حدود لما يدين به الفرد اليابانى لمجتمعه.

د- العمل وفقا لتوافق الآراء

يبغض اليابانيون اسلوب المواجهة المباشرة ولتفادى ذلك فإنهم غالبا ما يعملون على اساس من توافق الآراء ورغم ما قد يسببه هذا من عوائق فإنه فى النهاية يمثل مصدر قوة ويترتب على هذا الاسلوب فى العمل أن الفرد الذى ينشد تحقيق مصلحته الشخصية على حساب الرفاهية الجماعية إنما ينظر إليه كشىء مكروه لا يلقى أى تشجع ووفقا للسلوك اليابانى العادى فإنه قبل أن ترتبط أية مجموعة بعمل جديد فإن كل اعضائها أو على الأقل هؤلاء الذين لهم اختصاص بالموضوع يجب أن يدرسوه ويوافقوا عليه وهذا المبدأ والاسلوب الذى يتم إنما ينظر إليه كشىء مفيد فى تجنب الصراعات الشخصية.

أزمة الهوية اليابانية:

أما القضية الثالثة التى أثارها التطور اليابانى والتى بدأت تظهر بحدة فى أوائل السبعينات فهى اتجاه اليابانيين إلى البحث فى ذواتهم وعن هويتهم حدث هذا أولا بفعل وطأة الاحساس بأن اندفاعهم وراء اساليب وقيم الحياة الغربية قد

يؤدى إلى طمس شخصيتهم القومية ومقوماتها والتى كانت فى نهاية الامر اساس ما حققته اليابان. كذلك شهدت بداية السبعينات ظهور آلاف الكتب تحاول أن تجيب عن سؤال من هو اليابانى كما تسود اليابان اليوم موجة من التطلع إلى الماضى وتأخذ مظاهر عدة فى الحياة اليابانية وقد عبر أحد الكتاب اليابانيين أخيرا عن هذا الاتجاه بقوله أن اليابانيين يريدون أن يعودوا إلى زمن كانت فيه اليابان أكثر يابانية.

وفى بحث علماء الاجتماع اليابانيين عن تفسير لظهور هذه الموجة من البحث عن الذات والاحساس بأزمة الهوية اليابانية .يعتبرون أن أكثر التفسيرات شيوعا هو أن اليابان عبر تاريخها الحديث قد احتاجت واتبعت عمليا ..نموذجا لسياستها الداخلية والخارجية وفى هذا قد قدمت غرب أوروبا وبدرجة اقل الولايات المتحدة هذا النموذج فى سنوات ما قبل الحرب.

وقد جاهدت اليابان لكى تلحق بهذا النموذج بل وتتجاوزه وبعد الحرب كانت الولايات المتحدة هى البلد الوحيد الذى قدم النموذج لليابان وخاصة فى مجالات الدفاع والعلاقات الخارجية حيث اتبعت الحكومة اليابانية بشكل متماسك قيادة الولايات المتحدة للعالم الغربى غير أنه فى نهاية الستينات تجاوزت اليابان الغرب المتقدم فى التكنولوجيا والانتاج القومى.

ونتج عن هذا أن الغرب لم يعد يقدم نموذجا صالحا لتقليده.. وجاءت الهزيمة المعنوية للولايات المتحدة فى الهند الصينية وتراجع الديمقراطية الامريكية لكى تجرد اليابان من نموذجا الاخير وهكذا بقيت اليابان بدون نموذج خارجى لتقليده وأصبح على اليابان إلا أن تخلق رؤيتها الخاصة لماهيتها وإلى أين تتجه.

وإذا كان تراجع النموذجين الغربى والامريكى من دوافع اليابان للبحث فى التراث والبحث عن هويتها الخاصة فإن دافعا أكبر لذلك جاء من الصين فمنذ عهد الميجى حتى نهاية الحرب العالمية الثانية حاولت اليابان بشكل متزايد الابقاء على الصين ضعيفة واستمر هذا ليكون حجر الزاوية فى السياسة اليابانية حتى فترة ما بعد الحرب غير أن تطبيع الولايات المتحدة لعلاقاتها مع الصين وتطبيع اليابان أيضا للعلاقات معها جعل اليابان للمرة الاولى فى تاريخها الحديث تواجه «صينا» موحدة ومتقدمة عسكريا وكان هذا بمثابة صدمة حضارية لليابان فبعد فترة طويلة من العيش على النموذج الغربى واجهت اليابان فجأة عملاقا لم يحتفظ فقط بقيمة الشرقية وتكامله وإنما انجز أيضا اصلاحا اجتماعيا بعيد المدى وهكذا اجبرت حقيقة الصين الجديدة اليابانيين على أن ينظروا إلى الماضى وإلى

تراثهم الحضارى واعادة تقييم اسلوب التحديث لا فى ضوء المستويات الغربية وإنما من خلال تقييم قيمهم الذاتية.

ومن مصادر أزمة الهوية اليابانية وضع اليابان ومكانتها ونظرتها إلى نفسها فى محيطها الاسيوى فمنذ بداية عملية التحديث زجت اليابان بنفسها فى عالم يسيطر عليه الغرب ولم تكن آسيا وافريقيا جزءا من هذا العالم وكانت القيم الغربية هى المعايير العالمية وقد ولد هذا لدى اليابان البلد الاسيوى احساسا بالنقص تجاه الغرب إلا أنها فى نفس الوقت شعرت بتفوقها على جيرانها الاسيويين لأن اليابان قد نجحت فى تبنى التكنولوجيا الغربية وهو الاحساس الذى اقامت عليه اليابان آسيا المتخلفة تعود الآن وبعد أن أصبحت غير اسيوية وقوة صناعية وعسكرية لكى تدعى أن عناصر تفوقها تؤهلها لأن تقود آسيا وهكذا فإن اليابان الحديثة ليست غربية تماما ولا اسيوية كلية ومع هذا فهى تتطلع لأن تكون عضوا وعضوا بارزا على الاقل فى كلا العالمين وهنا يكمن أحد عناصر أزمة الهوية اليابانية.

الصين .. والغرب
الوطن واحد ... والرؤى متعددة

الصين هذا الكيان الجغرافى والبشرى والتاريخى والحضارى الضخم. كيف تصوره وراء الغربيون منذ البدايات الاولى لعلاقة الغرب بالصين وما هى المصادر التى صاغت هذه الصورة من رحلات وأسفار وكتب ودوائر معارف وروايات وأدوات ووسائل الرأى العام واهم من هذا كيف تغيرت وتأثرت صورة الصين لدى الغرب بتغير البيئة السياسية والثقافية فى الغرب ودوافعه نحو الصين وبحيث بدت الصين لبعض المذاهب الفكرية كنموذج وبدت للبعض الآخر كتحدى للحضارة الغربية وحيث جاءت الصورة ايجابية حساسة متفهمة وانسانية حين كانت الدوافع هى مجرد اكتشاف الصين وجاءت سلبية مثيرة الشكوك والمخلوف وتركز على كل ما هو سلبى مع بروز الامبريالية فى القرن ١٩ وتوجيهها نحوالصين وإلى أى حد ينطبق على صياغة صورة الصين نظرية المعرفة والقوة والتى تضيغ بمقتضاها القوة المسيطرة دوليا الصورة الحضارية لغيرها من المجتمعات.

هذا ما يناقشه هذا الكتاب المهم الذى كتبه بوضوح وموضوعية وتجرد استاذ استرالى عاش وعمل وحاضر فى الصين منذ الستينات.

ماركو بولو والمصادر الاولى:

لم يكن ماركو بولو (١٢٥٤ - ١٣٢٤) الاوروبى الاول الذى يزور ويعيش فى الصين ولكنه كان الاول الذى يعود لبلاده لكى ينتقل رؤيته وخبراته وانطباعاته وبفضله يمتلك التاريخ الاوروبى رؤية تفصيلية عن الصين ومجتمعها تقوم على اكثر من مجرد التخمين، وتجعل منه بذلك أول من صاغ الصورة الغربية عن الصين. فى عام ١٥٨٣ قرر البابا **جورجى الثالث عشر** وضع تاريخ شامل عن الصين واختار لهذا القس: **خوان دو مندوثا** الذى وضع كتابة الذى نشر فى روما بالاسبانية عام ١٨٨٥ تحت عنوان «تاريخ مملكة الصين العظيمة» حاول فيه وبنجاح كبير جمع كل ما عزف عن الصين فى الغرب ومثل **ماركو بولو** وغيره من الكتاب الاوائل تاثر بحجم الصين ووصفها أنها أكثر بلدان العالم مساحة وسكانا - كما كتب عن مدنها بعبارات تمجيدية مركزا على عظمة وفخامة مبانيها وروعة شوارعها والتى كانت ممهدة جدا وعريضة بحيث تسع ١٥ حصانا

يجرونها في وقت واحد كما وصف الصينيين في شوارعهم ومنازلهم بأنهم على قدر رائع من الثقافة وكتب بالتفصيل وبإعجاب عن النظام الحكومي والاداري وقال إن كبار الرسميين كانوا على قدر كبير من الفضائل الاخلاقية والصبر على الاستماع للشكوى كما تحمس لنظام الامتحان الذي يدخل به الفرد الخدمة العامة ولكنه من ناحية أخرى انتقد بشدة النظام القضائي ولاحظ العقوبات الوحشية التي تصدرها المحاكم ووصف بالتفصيل ألوان التعذيب التي تستخدم لاستخلاص الاعترافات.

وشأن غيره من كتاب عصره تأثر مندونا بنظام العائلة الصينية وبفضائل النساء وأمانتهن وناقش بالتفصيل نظام ربط اقدام النساء دون نقد.

هكذا كان معظم الكتاب والقراء عن الصين في القرن ١٦ مهتمين بشكل حقيقي بالصين واكتشافها لكنهم كانوا يتخذون منها موقفا ايجابيا موضوعيا غير متحيز ورغم أن هدفهم الذي ثبت عقمه كان تحويل الصين إلى المسيحية فإن الامبريالية واهدافها لم تكن بعد قد وجهت نظراتهم.

أعجب معظم فلاسفة القرنين السابع والثامن عشر بالعقلية الكونفوشيسية حيث تتناقض بشكل قوى مع الصراع الدينى الذى كان يسود أوروبا ففى المانيا كان ما أفزع ليبنز (١٦٤٦ - ١٧١٦) اللااخلاقية السائدة فى بلده وزمنه واعتبر أن الصين يجب أن ترسل البعثات لكى تدرس لنا هدف استخدام اللاهوت الطبيعى بنفس الطريقة التى بعثتناإليها ببعثات تطعهم الوحى اللاهوتى وكان يعتقد أن الصين واوروبا وهما على طرف قارة آسيا هما اعظم مدينات العالم ولذلك فقد شغل معظم حياته بالتبادل الثقافى بين الصين واوروبا.

كذلك كان فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) من اكثر مفكرى عصر التنوير الفرنسى نفوذا واتجاها ايجابيا نحوالصين وقد اثنى على حكومة الصين واعتبرها استبدادية متنورة بل انكر انها استبدادية على الاطلاق. واعتقد فواتير أن حكم الصين يقوم على القانون والاخلاقيات واحترام الابناء لآبائهم وكان من أكثر ما استوقف فواتير ما اعتبره الطابع العلمانى للكونفوشيسية واثنى على كونفوشيوس لأنه لم يعتبر نفسه نبيا وإنما قاضيا وحكيما يعلم القوانين القديمة وقد انكر فواتير أن الصينيين ملحدون رغم أنه رأى عقيدتهم مهمته بالمفكر الاول بالعالم

الدنيوى لا يتتبع الموت ويبدو أنه اعتبر نظرتهم هذه نقطة فى صالحهم كذلك عقب فولتير على ازدهار البلد الملحوظ وعلى كمية الطعام والفاكهة المتاحة للناس، كما سجل أن الصينيين كانوا يعملون الطباعة قبل اوروبا بوقت طويل.

أما مونتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥) قد كانت نظرته للصين مختلفة وسلبية فقد رأى أن الصين دولة استبدادية إلا أنه اعجب كثيرا بنظم العائلة القوى فى الصين فالعلاقة بين الحكام والشعب كانت كالعلاقة بين الآباء والأبناء فالمشروعون يطلبون من الشعب أن يكون خاضعا ومسالما ومجتهدا في عمله وكانوا يرون أنه حين يعمل كل فرد ويطيع حكامه فإن الدولة تصبح فى حالة سعيدة.

بلد .. من زمن الوثنية:

اذا كانت القرون السابقة قد تبنت وجهات نظر متنوعة عن الصين إلا أنها على الاقل تميزت بالتوازن بين الصورة الايجابية والسلبية أما موقف القرن التاسع عشر من هذا التوازن فقد تحول بشكل حاسم بعيدا عن الصورة الايجابية ونحو الصورة السلبية وربما كان ثمة أسبابا عديدة لذلك ولكن السبب الرئيسى كان هو حضور الامبريالية الغربية وخاصة البريطانية

منذ الثورة الصناعية وللمرة الاولى أصبحت بريطانية من أكثر مصادر صياغة الصور الغربية عن الصين وقد ظهر هذا التحول بالتحديد فى منتصف القرن ١٨ حين عاد البارون **جورج انجون** من رحلة طويلة حول العالم عام ١٧٤٤ ونشر مشاهداته عام ١٨٤٨ وتضمنت اوسع هجوم على الصورة الوردية عن الصين التى أشاعها **الجيزويت** الفرنسيون عن الصين ولأسباب داخلية ليس لها علاقة بالصين إلا بشكل ضئيل تحرك الرأى العام فى كل من فرنسا وبريطانيا بشكل قوى ضد الصين.

وقد كانت بعثة اللورد **ماكارتن** إلى الصين عام ١٧٩٣ من أهم من عبر عن هذا الاتجاه الجديد نحو الصين ففى يومياته لاحظ أن نظام الصين السياسى هدفه اقناع الشعب بأنه يعيش فى نظام كامل وعلى هذا فهو لا يحتاج أن يتعلم شيئا من الآخرين وقد انتقد **ماكارتن** هذا بشدة واعتبر أنه اسلوب غير حكيم فى الحكم فالدولة التى لا تتقدم تعود إلى البربرية والبؤس وملاحظته هذه سوف تعكس الاتجاه الذى تبناه الغرب تجاه الصين فى القرن ١٩ والقائم على اعتراف أن الصين يجب أن تتعلم من الغرب وأن التغير مرادف للتقدم وأن الصين لا يجب أن تكون بعد ذلك هى النموذج الذى رآه **فولتير** وآخرون.

وقد واصلت بعثات التبشير البروتستانتية فى بداية القرن ١٩

ما بدأته بعثة ماكارتن وكانت هى مقدمات التوغلات البريطانية وغيرها فى الصين بل أن المدفعية البريطانية هى التى قدمت لهم الدافع لفتح الطريق إلى الصين ورغم هذا فإن هذه البعثات البرتستانتية لم تترك إلا أثرا ضئيلا من حيث عدد من استطاعوا تحويلهم إلى البروتستانتية والذين يلفوا أقل من مائة عام ١٨٤٠ وتجىء المفارقة هنا من أن هذه البعثات فى الوقت الذى لم تترك إلا أثرا ضئيلا فى الصين إلا أنها تركت أثرا جوهريا فى الغرب وقد لعبت دورا كبيرا فى تغيير اتجاه اوروبا نحو الصين وشعبها هذا بالاضافة إلى أن هذا قد توافق مع أن بريطانيا كانت فى هذا الوقت تعانى مخاض الروح المحافظة والتى تتسحب جزئيا كرد فعل لنظريات الثورة الفرنسية:

من أبرز المبشرين البرتستانت الذين كتبوا عن الصين ويلز ويليامز فى كتاب: «مملكة الوسط» فقد نظر هو وغيره من البروتستانت إلى الصين على أنها بلاد الوثنيين الذين يفتقدون ضوء الله يجب أن ينقذهم أحد من اللعنة الأبدية ورغم أن ويليامز اعتبر أن الصين هى أكثر الأمم الوثنية القائمة مدنية فى مؤسساتها وأدابها فإنه اعتبرها مستعبدة وناقصة وتقوم على مبادىء خاطئة وقد يكون فيها عناصر الاستقرار ولكن لا تتقدم كى لا تلمس فى الناس الشرف أو الاخلاق أو الرحمة وباختصار

فإن هذه المدنية اسيوية وليست أوروبية وثنية وليست مسيحية.

وقد تدعمت هذه الصورة السلبية عن الصين فى القرن ١٩ بفعل الموسوعات الكبرى وخاصة البريطانية والتى جاءت نغمتها عن الصين متعالية تنظر إلى الصين كبلد غريب ومتخلف وبربرى فى بعض الوجوه.

صحفى غربى فى معسكر الشيوعيين:

لعبت الكاتبة الامريكية بيرل بيك ١٨٩٢ ـ ١٩٧٣ دورا بارزا فى صياغة الصور الغربية عن الصين فى النصف الاول من القرن العشرين وذلك من خلال روايتها «الارض الطيبة » بوجه خاص وقد عبرت بيك عن وضعها بين عالم الامريكى والصينى اللذين عاشت فيها بقولها: لقد نشأت فى عالم مزدوج العالم الامريكى الابيض النظيف الذى يمثله والدى والعالم الصينى الكبير، ولم يكن ثمة اتصال بين العالمين فحين كنت فى عالم الصين كنت أتصرف واتحدث وأكل كما يفعل الصينيون واشاركهم فى افكارهم ومشاعرهم أما حين أكون فى العالم الامريكى فإنى أغلق هذا الباب تماما.

وقد جاءت الصور التى قدمتها بيرل بيك عن الصين أكثر ايجابية عن ذلك التى سادت خلال انتفاضة «البوكسر» التى

جاءت لكى تعكس مخاوف الغربيين وشكوكهم وهى الصور التى ركزت على القسوة والخيانة والكراهية للأجنبى.

وما يجب تسجيله عن هذه الفترة ١٩٠٠ ـ ١٩٤٩ أنها قد شهدت قمة النشاط التبشيرى الغربى فى الصين وخاصة من الولايات المتحدة وبهدف فرض القيم الامريكية والغربية الخاصة على المثقفين الصينيين وهكذا انتشرت خدمات مثل المستشفيات والمدارس التعليمية غير أنه من الملاحظ أن الذين عملوا فى هذه المجالات قد تأثر كثير منهم بالحضارة الصينية وبأدب وحماس طلابهم، وكما عبر أحد المبشرين أنه جاء إلى الشركة الأقصى يحمل رسالة ولكن فى عملية التحول فإن الشرق هو الذى أبلغ رسالته، وهكذا فإن الكثيرين الذين ذهبوا إلى الصين لتغييرها هم الذين تغيروا.

كذلك لعب عدد من الصحفيين الامريكيين ذوى الاتجاهات اليسارية دورا فى صياغة صورة الصين فى عام ١٩٤٩فقد اهتمت اجنس سميدلى (١٨٠٥ ـ ١٩٥٠) بحياة الفلاحين لدرجة أنها خصصت كتابا عن تاريخ حياة أحد القادة العسكريين الشيوعيين واعتبرت أنه بروايته لتاريخ حياته يصبح أول فلاح يتحدث كذلك كتب سعيد لى عن الصين شبه الاقطاعية الزراعية على أنها فاسدة وجاهلة ومتحللة وغير قادرة على تطوير نفسها

أو اتخـاذ خطوة واحـدة يمكن أن تزيد القـوة الانتـاجـيـة أو الشرائية للجماهير الصينية كما اعتقدت حتى فى الثلاثينات أن الحزب الشيوعى هو القوة الوحيدة القادرة على تغيير المجتمع وايدته بقوة وبشكل على وتنبات بانتصاره.

أما الصحفية أنا لويس سترونج فقد جاءت زيارتها الاولى للصين فى نهاية العشرينات واصدرت عنها كتابا من جزئين ملايين الصين وكتبت حتى قبول انشاء جمهورية الصين الشعبية رسميا أن الصينيين الذين تقرر مصيرهم فى القرن الماضى على يد كل دولة أخرى سوف يمتلكون بلدهم وسوف يتقرر مستقبل الصين بواسطة الصينيين كما كان ايجلر سنو(١٩٠٥) (١٩٧٢) أكثر الثلاثة تاثيرا ونفوذا فقد ذهب إلى الصين عام ١٩٢٨ وحصل عام ١٩٣٦ على فرصة فريدة لزيارة قاعدة الثوار العسكرية وقابل ماو تسي تونج الذى حكى له قصة حياته والتى سجلها سنو وربطها بانطباعة الحية وخبراته فى قاعدة الثوار ذلك يشكل الكتاب الكلاسيكى النجم الاحمر فوق الصين والذى جاء لا لمجرد حوادث عابرة وإنما حقائق ذات تاريخ دائم وكرسالة عن الصينيين الذين يكرسون انفسهم وعملهم لتحقيق التكافل الوطنى والعدالة الاجتماعية.

الارض الطيبة وقدر الإنسان:

ومادمنا قد تعرضنا للروائية الامريكية بيرل بيك وروايتها «الارض الطيبة» كأحد المصادر الروائية فى صياغة الصورة الغربية عن الصين فإن ثمة روائيا آخر يبرز فى هذا الحقل وهو المفكر الفرنسى أندريه مالرو (١٩٠١ - ١٩٧٦) وروايته «قدر الانسان» ولم تكن هى روايته الوحيدة عن الصين فقد نشر أيضا الغزاة التى نشرت عام ١٩٢٨ وركزت على انتفاضة جوانجهو عام ١٩٢٥ وبينما كانت بيرل بيك مهمته بالفلاحين وبالريف فإن خبرة مالرو واهتمامه قد تركزتا على المدن وسكانها ومع هذا فإن الصورة التى رسمها مالرو عن الصين فى روايته الاولى هى أكثر قسوية من تلك التى قدمتها بيرل بيك.

كذلك من الكتاب الذين تفوقوا على بيرل بيك فى وصف الصين الكاتب البريطانى سومرست موم (١٨٧٤ - ١٩٦٥) ورغم أن أغلب أعماله الآسيوية تقع فى ماليزيا وبورنيو وسنغافورة فإن بعضها يخص الصين مثال : الحجاب المطبوع و شرق السويس وهو بهذا يعتبر من أكثر الشخصيات الأدبية التى صاغت الصور الغربية عن الصين وكانت مجمل رسالته التى حملها لقومه فى الغرب أن الصين رغم كل ما يبدو من

اخطائها فى نظرهم فإن لديها وجهة نظر تستحق الاهتمام والاستماع وأنها بلغت من الواقع لدرجة أنها استحوذت على الغربيين للقيمين فيها وجعلتهم سعداء أن ينظروا إليها كوطنهم.

العالم تغير بعد ١٩٧٢

فى إطار نظرية القوة والمعرفة والتى تتولى بمقتضاها القوة ذات الثقل الدولى فى عصرها صياغة الصور الحضارية السائدة عن غيرها من المجتمعات ومثلما صاغت فرنسا وفقا لهذه النظرية صورة الصين فى القرن ١٨ وصاغت بريطانيا هذه الصورة فى القرن ١٩ فإن صورة الصين فى القرن العشرين قد صاغتها إلى حد بعيد الولايات المتحدة الامريكية بفعل ثقلها ونفوذها الدوليين.

وكذلك قد لا يبدو مدى تأثر صورة الصين لدى الغرب يتأثر البيئة السياسية والثقافية مثلما بدأ من الاتجاه الامريكى نحوالصين بعد ثورتها عام ١٩٤٩ فبعد الثورة وتولى الشيوعية السلطة فإن نشر ودعم الصورة السلبية عن الصين لم يكن مجرد ضرورة أيديولوجية بل ملاحا فى المنافسة الدولية العريضة بين الغرب والشرق غير أن الصورة السلبية التى

تكونت عن الصين فى الولايات المتحدة خلال حقبتى الخمسينات والستينات والسوف تتحول إلى صورة ايجابية ،لا لأن الأوضاع فى الصين قد تغيرت وإنما لتغير الاتجاهات السياسية الامريكية نحوها.

وقد بدأ هذا بوضوح على أثر زيارة الرئيس الأسبق نيكسون لبكين فى فبراير عام ١٩٧٢ والتى أراد بها أن ينهى حالة العداء والقطيعة التى سادت منذ الخمسينات وفتح بذلك خطا استراتيجيا جددا وجعلته يصف هذه الزيارة بأنها غيرت العالم على أثر ذلك زاد الاهتمام فى الولايات المتحدة بكل ما هو صينى سواء ماديا أو ثقافيا وبمقارنة نتائج استطلاعات معهد جالوب التى قام بها للرأى العام ماديا أو ثقافيا وبمقارنة نتائج استطلاعات معهد جالوب التى قام بها للرأى العام الامريكى فى الستينات حول الخصائص الايجابية والسلبية الشعب الصينى باستطلاعات مماثلة قام بها عام ١٩٧٢ سوف نلمس صعودا ملحوظا فى تقرير الخصائص الايجابية عن الشخصية الصينية مثل العمل والأمانة والشجاعة والتدين والذكاء وهبوطا ملحوظا أيضا فى تقديم الخصائص السلبية مثل الجهل والقسوة والخيانة.

القسم الثالث:

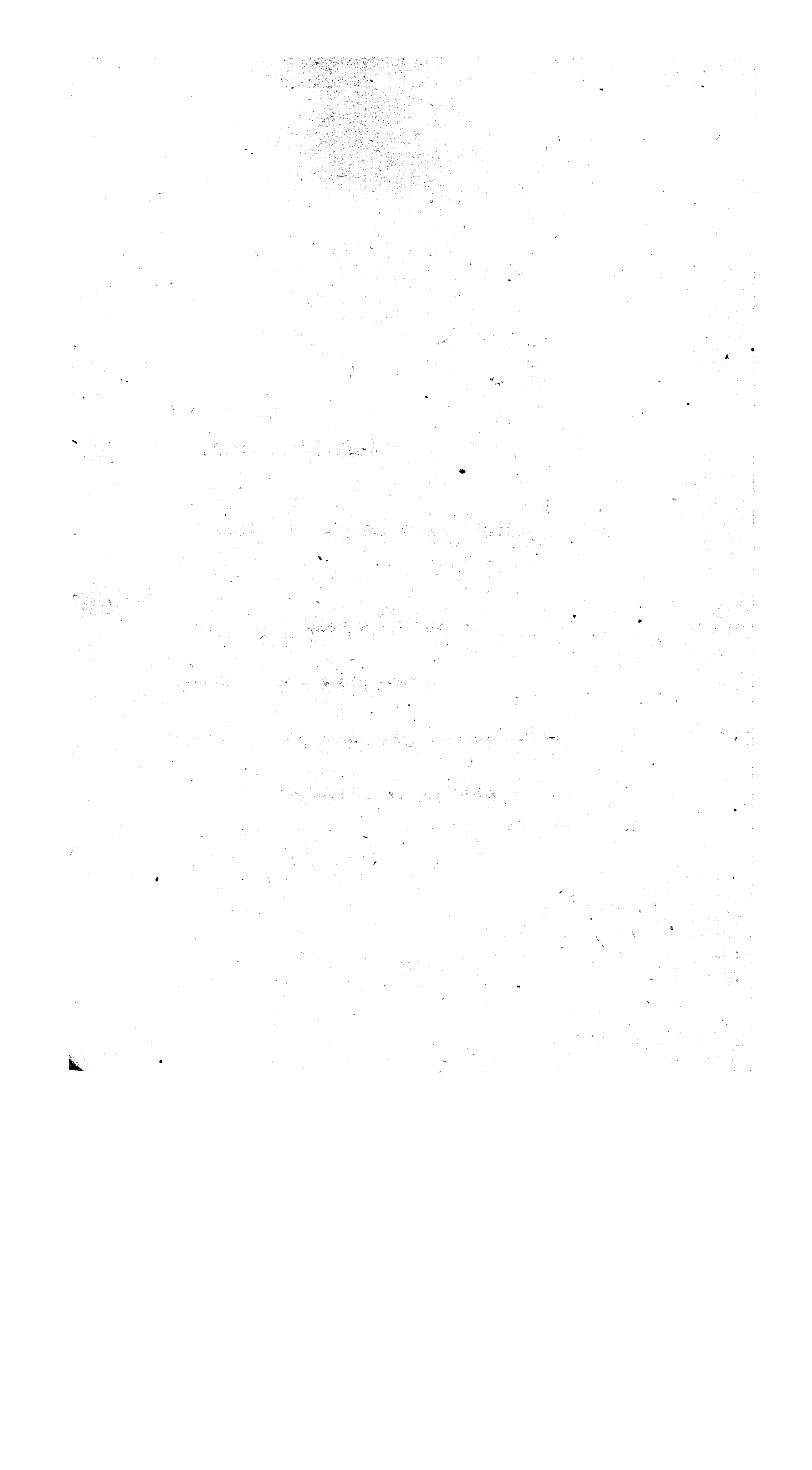
العولمة من منظور ثقافى:

★ التحليل الثقافى كمنهج لقراءة العالم

★ الحضارات : صدام أم حوار وتعاون

★ لماذا يدافع صمويل هنتجتون عن خصوصية الثقافات

★ الوسطية .. ومداخل مصر إلى القرن القادم



التحليل الثقافي كمنهج لقراءة العالم

المفكر البارز الأستاذ السيد يسين من الباحثين القلائل الذين يتابعون ويرصدون بمنهج علمي وتحليلي التحولات الاساسية التي حدثت في بنية المجتمع الدولي وقواعده والنظم والنماذج التي حكمته على مدى الحقب الاربع الماضية ويحاول بهذا المنهج التحليلي ومن خلال متابعة المناظرات الكبرى التي دارت بين مدارس الفكر المختلفة استشراف خريطة المجتمع الدولي الجديد وموشراته ومعالمه والقضايا الكبرى التي ستشغله والمناخ الفكري الذي سيسود فيه.

ويتابع الاستاذ يسين هذه التحولات (الوعي التاريخي والثورة الكونية. حوار الحضارات في عالم متغير ١٩٩٥.) منذ إرهاصاتها الاول عام ١٩٨٩ في سقوط حائط برلين بما كان يرمز إليه على العالم القديم وانقساماته الايديولوجية والسياسية وفي فورات النظم الاشتراكية في شرق اوروبا الساحة الاولى لمواجهات الحرب الباردة حتى السقوط المدوى للاتحاد السوفيتي والذي حسم ـ على المستوى ـ السياسي على الاقل ـ المعركة الكبرى بين الرأسمالية والماركسية.

عجز المناهج التقليدية عن تفسير العالم:

غير أن ما يميز قراءة الاستاذ يسين لما يجرى فى العالم من تحولات هو اختياره لمنهج التحليل الثقافى وتركيزه على نظم الافكار فى نشوئها وتحولها وتغيرها واعتبار هذا المنهج مدخلا أساسيا لفهم ما حدث للرأسمالية والماركسية ليس فقط بعد انهيار النظام السوفيتى وإنما من خلال الأزمة التى مر بها النظامان قبل هذا الانهيار والتى استطاعت الرأسمالية خلالها بنجاح أن تتكيف وتجدد نفسها مستخدمة عناصر من الفكر الماركسى والاشتراكى بينما تجمدت الماركسية وقاومت كنظم المحاولات النظرية والسياسية للتجدد وعلى هذا فهو يعتمد التحليل الثقافى باعتباره المنهجية الملائمة للدراسة وتحليل وتفسير التغييرات الكبرى التى حدثت فى العالم وتتأكد عنده قيمة هذا المنهج بعد أن تبين عجز المناهج السياسية والاقتصادية السائدة ليس فقط عن التنبوء بمصير النظام القديم وإنما أيضا عنتفسير الظواهر المصاحبة لانهيار .

المجتمع العالمى الجديد وملامحه

من هذا المدخل الثقافى يقترب الاستاذ يسين من القضايا المحورية التحولات التى جرت وتجرى فى العالم والاسئلة

الكبيرة التى تثيرها وميادين الصراع حول تشكيل النظام الدولى الجديد بل والقرن القادم ومن ابرز القضايا التى يتعرض لها والتى تصاحب عملية التغير التى تحدث فى العالم الثورة الكونية.

والتى ستكشل حولها وبتاثيرها "مجتمع عالمى جديد يتخطى المجتمع الصناعى الذى كان نتائج الثورة الصناعية الاولى ثم مجتمع ما بعد الصناعة إلى مجتمع المعلومات وتهم ملامحه هو انتاج المعلومات وتهم ملامحه هو انتاج المعلومات وتهم ملامحه هو انتاج المعلومات وتداولها وادواته الاساسية هى الحاسب الآلى وأجياله الجديدة وتكنولوجيا الاتصال والأقمار الصناعية وما تحدثه من ثورة فكرية تتجاوز الحدود القومية والجغرافية الأمر الذى يشكل الوعى الكونى والذى يتعدى صور الوعى الأخرى كالوعى الطبقى والوطنى والقومى وحول هذا الوعى ومضامينه وتشكيله وما يصاحبه وينشره من قيم انسانية عامة تدور الآن معركة فكرية كبرى بين الأقوى والثقافات سواء تلك التى تسعى لفرض قيمها الخاصة أو تلك التى تحاول الحفاظ على مقومات هويتها الثقافية أما سمات ومقومات مجمع المعلومات الكونى فهى نتائج خصائص تكنولوجيا المعلومات ذاتها والتى تتميز بأنها تقوم على اساس الاستخدام العام

والمشترك لها بواسطة المواطنين وعلى أساس التركيز على العمل الذهني العميق

ثورة متعددة الابعاد:

والثورة الكونية من منظور التحليل الثقافى ليست ثورة ذات بعد واحد ولكنها متبعددة الابعاد والجوانب فهى ثورة سياسية تشمل النظم السياسية المعاصرة والعلاقات الدولية على السواء وجوهرها هو التحول من الشمولية والسلطوية إلى الليبرالية وهى ثورة فى القيم نتيجة ما حدث فى بيئة المجتمعات الصناعية المتقدمة من ثورة هادئة تتطلع إلى الجوانب المعنوية والبحث عن المعنى والاشباع الروحى ثم هى ثورة معرفية تتلخص فى الانتقال من الحداثة والأسس التى قامت عليها من فردية وعقلانية وإيمان بالتقدم المضطرد والحتمية فى التاريخ والطبيعة إلى ما بعد الحداثة التي يعتبر منظورها أن أهم ملامح المرحلة الراهنة للمعرفة الانسانية هو سقوط النظريات والنماذج الكبرى والتى عجزت بانغلاقها وجمودها عن قراءة العالم.

وسقوط فكرة حتمية التطورالتاريخى من مرحلة إلى أخرى وكذلك فكرة التقدم فالتاريخ الانسانى مفتوح على احتمالات متعددة وهو لا يعرف الخط الصاعد ولكنه يتضمن التقدم كما

يتضمن التراجع مثلما أوضحت الحربان العالميتان.

البحث عن بديل ثالث:

أما القضية المحورية الثانية التى صاحبت عملية تغير العالم فهى المتعلقة بهذه المناظرة الكبرى التى احتدمت على مدى الحقب الأربع الماضية بين الماركسية والرأسمالية وحسمها سقوط النظام السوفيتى باعتباره تجسيدا للماركسية غير أن السؤال الرئيسى الذى يناقشه الكتاب يدور حول ما اذا كان انتصار وصعود الرأسمالية يعنى انتصارا حاسما ونهائيا للرأسمالية واختفاء وهزيمة مطلقة للماركسية ويذكرنا هذا السوال بالجدل الواسع الذى أثاره الباحث الامريكى فرانسيس فوكو ياما بمقاله أو نظريته الشهيرة التى خرج بها فى ربيع عام ١٩٨٩ حول نهاية التاريخ والتى اعتبر فيها أن القرن العشرين ينتهى بالنصر الواثق والنهائى لليبرالية السياسية والاقتصادية والذى يستبعد بشكل كامل أى نظم بديلة وقد واجهت النظرية انتصارات عديدة كان من ابرزها ملاحظة صامويل هنتيجتون من أن تراجع مجموعة مثل المثل الافكار لا يعنى اختفاءها نهائيا فقد تعود بقوة متجددة بعد جيل أو جيلين فلاحظ أن انتصار عقيدة ما لا يعنى انتفاء وعدم توقع خلافات

داخل صفوفها، أما الاستاذ يسين فهو يميز بين الشمولية وبين الماركسية بمضمونها الاجتماعية والفكرى والقيمى وينبه إلى أن عددا من مفاهيم وافكار الماركسية قد تداخلت مع الرأسمالية وكانت من الادوات التى استخدمتها الرأسمالية لتجديد نفسها ومثل هذه العملية البطيئة والمعقدة من التداخل بين النظم والافكار هى التى تبرر وتستدعى لفهمها منهج التحليل الثقافى من هذا المنظور لا يرى الاستاذ يسين فى صعود الرأسمالية وسقوط الماركسية المحطة الاخيرة فى هذه العملية الطويلة فمنهج التحليل الثقافى يوحى بأن ثمة تفاعلات تجرى ستكون محصلتها النهائية عملية تأليف خلافة بين الرأسمالية والماركسية تصنع نموذجا عالميا جديدا يتسم بالتوفيق بين عناصر فلسفية وثقافية وسياسية كانت تبدو من قبل متناقضة، ولا يكتفى الكاتب بهذا التصور العام وإنما يفصل المجالات التى سوف تجرى فيها عملية التوفيق تلك وعناصرها وكذلك سمات هذا النموذج التوفيقى.

فهل يجد هذا التصور الذهنى حول صيغة توفيقية للنظم والافكار سندا فيما يجرى من تفاعلات داخل روسيا الاتحادية وكذلك بلدان اوروبا الشرقية والتى تدور حول البحث عن صيغة تتفادى سقطات النظام الاشتراكى كما ظهرت فى التطبيق

وكذلك تجاوزات وثغراتالنظام الليبرالى الاقتصادى ؟ كما هل يجد سندا له فى تجربة الصين وأخذها وانفتاحها على آلياتالسوق وصياغتها لما يعرف بالسوق الاشتراكية وما قد يتبعه هذا من تخفيف قبضة الشمولية السياسية كما هل يجد هذا التصور سندا له فيما يعدو الرئيس الفرنسى شيراك من طريق ثالث على مستوى النظم الاقتصادية.

وقد عاد الاستاذ يسين فى سلسلةالتحليل كمنهج لقراءة العالم:

مقالات تالية لكى يبنى على هذه القضية ويطور توقعه بروز نموذج عالمى جديد وعملية خلاقة توفق بين العناصر المتناقضة فى النظام الأخرى وقد بدأ مقالاته تلك بالإعلان عن مأزق الشمولية الفكرية ليس فقط فى صورتها الماركسية بل والرأسمالية كذلك (مضيفا إليها التيارالاسلامى السياسى) ويثير السؤال المنطقى حول ما يمكن أن ينشأ من بديل يعالج جموح الرأسمالية وتوحشها تزمت الماركسية وجمود التيارالدينى وانغلاقه ويقدم الاستاذ يسين هذا البديل فى الاشتراكية الديمقراطية باعتبارها مستعينا بتوماس ماير التيار المسئول عن طرح اهداف العدالة الاجتماعية وتأمين الظروف للبيئة الضرورية للتطورالحضارى وتقديم صيغ للتعاون الدولى

وباعتبار ما يتمتع به من شعبية واسعة ومصداقية كبيرة وتعامل حقيقى ولكن ينفى عن الاشتراكية الديمقراطية صفة الجمود والاطلاق وكذلك فى ضوء التحديات التى واجهتها فى اوروبا لقرنين من الزمان فإنه يدعو انصارها للتكيف مع المتغيرات الاقليمية والدولية ومع ما تفرزه كل مرحلة تاريخية من متغيرات عالمية واقليمية ومحلية وبشكل بعيد صياغة مبادئها وتديلها فى اتجاه اهدافها النهائية التى تجمع بين الحرية والعدالة الاجتماعية.

مستقبل الحوار بين الحضارات:

أما القضية الرئيسية الأخرى التى يناقشها الاستاذ يسين فهى التى تتعلق بمستقبل الحوار التقليدى بين الحضارات والثقافات وهو الحوار الذى تاثر وجرى خلال الحقب الاربع الماضية بالمناخ الفكرى للحرب الباردة واستقطاباتها فما هو مصير هذا الحوار فى العالم الجديد وفى ظل مناخ فكرى علاماته المميزة حتى الآن هى الحيرة وعدم التعبير فى مثل هذا العالم ثمة ثلاث عمليات سوف تحدد شروط وممارسات: وحصاد الحوار بين الحضارات فى القرن القادم وهى : الكونية والتعددية والقومية ومن وجهة النظر الثقافية فإن أهم معانى

الكونية هو الوعى الكونى الذى سيشكله مجتمع المعلومات وهذا الوعى تدور حوله معركة بدأت بالفعل منذ أن بشرت الولايات المتحدة بالنظام العالمى الجديد وبدأت حملتها الأيديولوجية لكى تشكله وفقا لقيمها وتصوراتها هذه المعركة ومحاولات فرض قيم حضارة معينة أنها تفرض فى رأى الكاتب على ممثلى الحضارات الأخرى مهمة عاجلة لكى تقود حملة فكرية بهدف تحقيق مشاركة عالمية فى بناء عالم جديد بعيدا عن الهيمنة السياسية الحضارية بقوة واحدة.

أما القومية فإن عملية الاحياء التى تمر بها والتى جعلت بعض المفكرين يعتبرونها مسئولة عن التحولات التى حدثت فى شرق اوروبا والاتحاد السوفيتى وتوحيد المانيا وراء قوى التطرف والعنصرية الجديدة فإن مضمونها ومستقبلها سواء فى جوانبها الايجابية أم السلبية سوف يعتمد على الاسس التى ستتحقق على اساسها الكونية وهل ستقوم على أسس ديمقراطية تعددية متسامحة أم على واقع الهيمنة السياسية والحضارية والتى سوف تستثير بالتالى عناصر المقاومة ورفض الهيمنة لدى الآخرين فما هى السبيل إلى تجنب هذا الخيار الاخير؟ .

إنه بحث البشرية عن أرضية مشتركة بين التقاليد المكونة

للحضارة الانسان والشروط الاول لمثل هذه الارضية فى تصور من يدعون لها هو الاعتراف المتبادل بالتقاليد المميزة للحضارات الانسانية المتعددة وللوصول إلى هذه الارضية المشتركة ينبغى أن يمارس ممثلو الحضارات الاخرى دورا نشطا يضمن أن يجرى الحوار بين الحضارات لقيمها وتصوراتها هذه المعركة ومحاولات فرض قيم حضارة معينة أنها تفرض فى رأى الكاتب على ممثلى الحضارات الأخرى مهمة عاجلة لكى تقود حملة فكرية الحضارات بصورة خلاقة ، فما هو دور العرب فى مثل هذا الحوار الحضارى المطلوب؟

إن الاستاذ يسين يقدم عناصر خطة قومية عربية للمشاركة فى هذا الحوار وأول عناصر وشروط هذه الخطة هو الاستعياب النقدى لفكر الآخر بمدارسه وتياراته المختلفة وبشكل لا يقتصر كما تعودنا على الفكر الغربى وإنما يجب أن يمتد إلى فكر الشرق الاقصى الصاعد فى اليابان والصين والهند وكذلك الفكر الصادر عن امريكا اللاتينية وافريقيا أما العنصر الثانى فى هذه الخطة فهو وضع ممارستنا المختلفة موضع النقد الذاتى والذي هو المدخل الضرورى للحوار العربى مع الحضارات، أما المرحلة الثالثة فهى الانتقال إلى بلورة مبادرة عربية انسانية شاملة كمساهمة عربية فى العملية التاريخية الكبرى لتشكيل

مجتمع عالمى جديد يعكس قيم حضارات وثقافات العالم وبشكل لاتنفرد به حضارة واحدة.

منهج التحليل الثقافى والصراع العربى الإسرائيلى:

ولا يقتصر استخدام الكاتب لمنهج التحليل الثقافى على قراءة التحولات التى تحدث فى اعلام والثورة الكونية والوعى الكونى الذى يتشكل حولها والصراع الذى يدور حول تشكيل المجتمع الدولى الجديد وحوار الحضارات ومدى تأثيره بالمناخ الفكرى الجديد وإنما يستخدم هذا المنهج كذلك لقراءة وتحليل احداث وصراعات منطقة الشرق الاوسط وتحديدا أزمة الخليج والصراع العربى الإسرائيلى خاصة فى مشهده الأخير الذى يتطور منذ توقيع الاتفاقيات الفلسطينية الاسرائيلية فى هذا السياق يفصل الاستاذ يسين أكثر تعريفه لمنهج التحليل الثقافى فيعتبر أنه يركز على رؤى العالم السائدة فى مجتمع معين وتحليل الادراكات والتصورات والصور النمطية عن النفس والآخرين وعلى القيم السائدة وعلى نوعية الخطابات السياسية المتصارعة فى المجتمع مع تركيز خاص على اللغة باعتبارهامعبرة عن الشبكة المعقدة للقيم والمعايير التى تؤثر على السلوك الاجتماعى والسياسى فى التحليل النهائى.

ويعتبر الكاتب أن تطبيق منهج التحليل الثقافى على أزمة الخليج يثير عددا من الموضوعات الاساسية التى تدعو إلى فحص عدد من القضايا والمشاكل من ابرزها خطاب المثقفين خلال الأزمة وسماته الأساسية والتى تثير بالتالى دور المثقفين العرب فى تطوير وتحديث المجتمع العربى ومشكلة الأنا والآخر والمفهوم الذى يقدمه كل نظام سياسى عن نفسه وعن الآخرين ومنهج التفكير السياسى العربى الذى تحور منذ الحرب الثانية حول قضية التجزئة والوحدة وقضية الأصالة والمعاصرة ومشكلة التحليل الثقافى للقيم السائدة يثير هذا المنهج قضية العلاقة بين العرب والعالم وضرورة التحليل النقدى للنظريات والتصورات التى حكمت العقل العربى حول علاقته بالعالم.

اتفاقيات السلام:

أما قضية الصراع العربى الاسرائيلى وخاصة فى مشهده الأخير كما يتطور منذ اتفاقيات السلام الاسرائيلية الفلسطينية فإن اخضاعه لمنهج التحليل الثقافى يتطلب تحليل مجموعة من الموضوعات المترابطة وابرزها دراسة القيم الثقافية السائدة وتحديد دور المثقفين العرب فى مراحل الصراع المختلفة وتحليل صراع القيم من خلال دراسة الخطاب السياسى

الاسرائيلي والعربي ثم فحص حالة الفصام التي يعيشها الفعل السياسي الاسرائيلي في هذه المرحلة.

ونتصور أن قيمة استخدام التحليل الثقافي خاصة في هذه المرحلة التي تطور إليها الصراع العربي الاسرائيلي هو أنه يضع يدنا على مفتاح أي تطور نحو سلام وتعايش حقيقي بين المجتمعين العربي والاسرائيلي وفي هذا يقدم الكاتب تجربة اتفاق السلام المصري الاسرائيلي وموقف المجتمع المدني المصري بمؤسساته ومنظماته منه ورفضه أن يجتاز مرحلة السلام الرسمي إلى مرحلة التفاعل الطبيعي بين شعبين ومجتمعين يقدم هذه التجربة كدليل على أن حدوث هذا التحول يرتبط بحدوث تغيير جوهري في العقل الاسرائيلي تجاه قضايا الصراع والسلام وفي نسق القيم والتصورات التي تحدد له كيف يريد أن يعيش في المنطقة وبين جيرانه فإذا ما أراد أن يعيش ككيان مقبول في المنطقة، فإن هذا يتطلب أن ينتقل هذا العقل من ثقافة الصراع الذي تربى وعاش عليها خلال مراحل الصراع الماضية وحددت رؤيته الفلسطينيون وللعرب إلى ثقافة السلام بما تتضمنه من قيم التسامح وقبول الآخر واحترامه والواقع أن الانتخابات الاسرائيلية الأخيرة قد أكدت قيمة هذا التحليل فقد أظهرت انشقاق العقل الاسرائيلي إلى قيمتين وعقليتين العقلية

التى ترى أن ما يتطلع إليه من أمن وقبول إنما يتحقق من خلالسلام حقيقى يتجاوب مع أمانى كل الاطراف وعقلية يسيطر عليها الخوف والشكوك ودعاوى التفوق والسيطرة وترى أن وجودها يعتمد على منطق القوة والردع.

على أية حال فإن الكاتب بإخضاعه للتحولات التيتحدث فى العالم وكذلك الصراعات الدولية والاقليمية للرؤية الثقافية قد نبه إلى أحد المناهج الضرورية لفهم العالم خاصة مع تعقد المناخ الفكرى والظواهر العالمية وبروز قضايا وقوى جديدة ستساهم فى رسم الخريطة الكونية المقبلة غير أننا نتصور أن بناء الكتاب لدفاعه عن منهج التحليل الثقافى على قصور وفشل المناهج وأدوات التحليل السياسية والاقتصادية فى التنبؤ وفهم التحولات التى حدثت فى البنية الدولية والظواهر التى صاحبتها لا يعنى استبعاد هذه المناهج فى محاولاتنا فهم وتحليل ظواهر العالم الجديد وعلاقات القوى فيه والاقتصار فى ذلك على منهج التحليل الثقافى الذى أقر الكاتب أنه سوف يدخلنا شئنا أم لم نشأ فى عالم نظرى معقد ما زالت تتصارع تياراته المنهجية فى رحابه وعلى هذا نتصور أن الاصوب هو أن يكون منهج التحليل الثقافى هو أحد أدواتنا فى بحث وتحليل ظواهر العالم المعاصر وبشكل يضمن مع المناهج الأخرى - رؤية هذه الظواهر من منظور أكثر اتساعا وشمولا وتكاملا.

الحضارات : صدام ام حوار وتعاون

بعد التغيرات العميقة التي جرت في العالم فى نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات، وغيرت من خريطة العالم السياسية، وانهارت معها، وبشكل وبطريقة غير مسبوقة فى تاريخ النظم والامبراطوريات احدى القوتين العظمتين بأركانها السياسية والاقتصادية والأيديولوجية، كان من الطبيعى أن تصدر نظريات وأفكار تتعدى تفسير ما حدث الي محاولة تصور صورة العالم الجديد والتفاعلات المتوقعة بين شعوبه ومجتمعاته وحضاراته وفى أى اتجاه.

ومن بين هذه النظريات والأفكار برزت نظرية الباحث الأمريكى فرانسيس فوكاياما والتي تصور فيها - مأخوذا بنشوة ما حدث - أنه لم تكن الحرب الباردة فحسب هى التي انتهت وانما التاريخ نفسه هو الذى بلغ نقطة نهايته فى التطور الايديولوجى للبشرية، وأن الانهيار السوفيتي وأيديولوجيته انما يسجل نصرا واثقا لليبرالية الاقتصادية والسياسية وهو ليس نصرا مؤقتا بل نصرا كاملا يستبعد أى نظام بديل صالح للبقاء.

أما النظرية الثانية فهي التى خرج بها الأستاذ الأمريكى صامويل هنتجتون، والتي انتهى فيها الي أنه مع نهاية الحرب الباردة فان العالم سوف يتشكل بدرجة كبيرة نتيجة للتفاعل بين سبعة أو ثمانية حضارات كبيرة هى: الغربية، والكونفوشية، اليابانية، والاسلامية، والهندية، والسلافية، وأمريكا اللاتينية وربما الحضارة الأفريقية، وأن أكثر الصراعات أهمية للمستقبل سوف تحدث على الخطوط الحضارية الفاصلة FAULT LINES التي تفصل هذه الحضارات بعضها عن بعض .

ومع ما لقيت نظرية نهاية التاريخ من نقد وتفنيد، تعرضت نظرية هنتجتون فى صدام الحضارات والهويات الثقافية للعديد من الانتقادات فى نتطلقاتها وأسسها الفكرية بل وربما فى دوافعها . وقد صدر آخر ما وجه لها من نقد من ممثل لاحدى الحضارات التي رشحها هنتجتون للتصادم مع الحضارة الغربية والأمريكية، وهو المثقف ورجل الدولة الاسيوى KI-SHORE MABBUBANI (يناير فبراير ١٩٩٥ FOREIGN AFFAIRS) ويكتسب النقد الذى يوجهه الى مفهوم التصادم والحضارات بوجه عام والصدام بين الحضارتين الغربية والآسيوية بوجه خاص أهميته من أنه لا ينطلق من مجرد تصور فكرى وانما من تصوره لتجربة تجرى

فى الواقع وتشير لا الى تصادم الحضارات وانما ليس فقط الى تعاونها أو تلاقيها وانما الي تجانسها FUSION وامتزاجها. وتتمثل هذه التجربة فيما يجرى فى منطقة شرق آسيا ووصولها الى المسرح العالمى كقوة رئيسية وهو التطور الذى يعتبر المفكر السنغافورى أنه سيكون من أهم ما يميز القرن الواحد والعشرين الأمر الذى يجد المفكرين الغربيين صعوبة فى فهمه نتيجة لعدم تصورهم – أو ارتياحهم – لبزوغ قوة غير اوروبية. ومن ثم فان رد فعلهم الطبيعى يتجه الى افتراضين الأول هو أن مجتمعات هذه المنطقة سوف تتبنى بشكل مطلق النموذج الغربى فى الاقتصاد والسياسة وستكون صورة مكررة من هذا النموذج، وهو ما تصوره فوكاياما فى نظريته حول نهاية التاريخ، اما الافتراض الآخر فهو الذى توقع صداما بين الحضارتين الغربية والآسيوية كما فعل صامويل هنتجتون. ويذهب المثقف الآسيوى الى أن وراء عدم دقة تفسير ما يحدث فى شرق آسيا هو عدم ادراك أصحاب هذه النظريات أن هذه المنطقة تشهد ظاهرة تاريخية غير مسبوقة إلا وهى امتزاج أو تجانس الثقافات الآسيوية والغربية فى منطقة شرق آسيا، باسيفيك، ومثل هذا التجانس هو الذى يفسر انفجار النمو فى الباسسيفيك وتقديم امكانيات السلام والازدهار المستمر فى

المنطقة. ويعرض مابوياني لمظاهر هذا التجانس فيما يشعر به من يعيشون ويتنقلون فى منطقة أسيا باسيفيك من أنهم يتحركون نحو عصر جديد من الازدهار الاقتصادى، وانهم يطيرون من هونج كونج الى فانكوفر، ومن سيول الى لوس انجلوس، ومن طوكيو الى هايتى أو من كوالالمبور الى سيدنى، ومع هذا لا يشعرون انهم عبروا حواجز ثقافية تفرق بينهم، فهم يشعرون أنهم فى بيتهم فى معظم أركان الباسيفيك، وأن ثمة احساسا يبزغ بالجماعة التي تربطها مصالح مشتركة ونظاما مشتركا فى الحياة، غير أن ثمة طريقا طويلا يجب أن يقطع حتى يمكن لمثل هذا الاحساس بالجماعة أن يتحقق بشكل كامل، ذلك ان شيئا علي مثاله لم يحدث من قبل، وحيث ستكون مجموعة الباسيفيك خلقا جديدا تماما، فهى لن تكون مجموعة أسيوية كما لن تكون مجموعة أمريكية. وفى منطق مابويانى أنه اذا كانت منطقة الباسيفيك قد بزغت كأكثر المناطق ديناميكية فى العالم فذلكلأنها قد جذبت أفضل الممارسات والقيم من العديد من الحضارات الغنية الآسيوية والغربية، فاذا ما استمر هذا الامتزاج فسوف تشهد انفجارا خلاقاً لم نشهده من قبل بل أن بعض هذه الانفجارات الخلاقة قد تحققت بالفعل متمثلة فى النموذج اليابانى، فثقافيا، فقد بقيت اليابان يابانية فى جوهرها،

ولكن فى ادارتها المدنية، وتجارتها وعلمها وتكنولوجيتها، أصبحت من الأفضل بعد أن مرت بعملية التحديث وانفصلت عن ميراثها الاقطاعي، ولكن اليابانيين ظلوا يابانيين، منازلهم يابانية وأرواحهم يابانية، رغم أن الكثير من الشبان اليابانيين يشبهوا أقرانهم الاوروبيين والامريكيين، إلا أن نظامهم القيمى، رغم تغيره، ظل يابانيا فى جوهره، فهم ينحنون بعمق ويظهرون الاجلال للكبير، والخلاصة أن الرابطة التي تربط المجتمعات والعائلات الآسيوية لم تضعفها عملية التحديث. ويتصور المثقف ورجل الدولة السنغافورى أنه وان كان الكثيرين يرون فيما يجرى فى شرق آسيا معجزة اقتصادية وصناعية، إلا أن الواقع ان هذا النجاح لا يرجع الى ثقافة يابانية أو الى الأساليب الغربية أنه نتاج الجمع بينهما، وعلى المدى الطويل فان المجتمع الأمريكى سوف يفعل مثلما فعلت اليابان حين سيمر بعملية تجانس مشابهة مستوعبا أفضل ما فى الثقافة الآسيوية.

على أية حال، وأيا كانت التحفظات التى يثيرها مدى ما ذهب اليه المفكر السنغافورى من « تجانس» بين الثقافات الآسيوية والأمريكية، فان خطه الفكرى الأساسى يبدو ايجابيا وصحيا من حيث افتراض اتجاه الثقافات والحضارات المتمايزة الى التلاقى والتعاون والعمل معا نحو الخير المشترك بدلا من الصدام

والصراع، خاصة اذا كانت التجربة قد أثبتت لاحد أطرافها على الأقل أن خيار الصدام والصراع لم يثمر الا الدمار .

والواقع أنه اذا انتقلنا الي منطقة أخرى تتمايز فيها الحضارات والهويات الثقافية والدينية، وتحمل بهذا الشكل امكانية الصدام، ونعنى بها منطقة حوض البحر المتوسط، فسوف نتعرف على جهود ومحاولات مخلصة وجادة نحو الحوار والتلاقى والتعاون والفهم المشترك بين الشعوب والمجتمعات التى تعيش بين شاطئيه، ومن حسن الحظ أن تقوم مصر بخبرتها الحضارية المتفتحة واحساسها بالبعد المتوسطى فى هويتها الثقافية (والذى جعل تيارا فكريا مصريا: طه حسين، توفيق الحكيم، حسين فوزى، يراه بدرجات متفاوتة، أنه يشكل هويتها الحضارية) بدور رائد فى هذا الاتجاه تعكسه خطواتها والتي تبلورت ونضجت فى المبادرة التي طرحتها أمام البرلمان الاوروبى فى ستراسبورج فى نوفمبر ١٩٩١ ودعت فيها الي اقامة منتدى للبحر المتوسط لكى يشمل جميع دول اوروبا والشرق الاوسط، ولكى تكون نقطة محورية للحوار والتفاعل بين الرسميين وغير الرسميين والمهنيين والمثقفين فى مجتمعاتهم، وهو الحوار الذى يمكن أن يفتح آفاقا أرحب للتعاون على المستوى الاقليمى والدولى بين حضارتين متجاورتين تملكان

تراثا تاريخيا وحضاريا شهدوا فترات من التفاعل والاخصاب المتبادل .

ونخلص من هذا الى أنه مع حقيقة الأثر الهام للهويات الثقافية فى تشكيل توجهات ورؤى المجتمعات والحضارات تجاه بعضها البعض وأنها بهذا التأثير، وبما تحمله من تمايزات يمكن أن تدفع وتغذى عناصر الصراع والصدام، إلا أن هذا يجب أن لا يؤخذ كقدر حتمي، فبحكمة الرجال: رجال الدولة، والدين، والفكر والثقافة، والفنون، والدبلوماسية وما يبدونه من رؤية رحبة لدروس التاريخ، ولنشوء مشكلات وقضايا بشرية: التنمية، البيئة، الطاقة، الضغوط الديمجرافية، الارهاب، والأمراض تمثل تحديات مشتركة وتتطلب حلولا مشتركة، وبفعل الثورات العلمية والتكنولوجية والمعرفية التي تربط بشكل ثورى مناطق وقارات وحضارات العالم ماديا وبشريا وتتساقط بها حواجز المكان والزمان، بفعل هذا كله والوعى به والتصرف علي أساسه، يمكن أن تتحول هذه التمايزات بين الهويات الثقافية من مصدر للصدام والشكوك والتباعد الى دافع للحوار والتفاهم المشترك، الى التفاعل والاثراء الحضارى ومن ثم الروحى والمادى معا .

لماذا يدافع صمويل هنتجتون عن خصوصية الثقافات

على الرغم مما لقيته نظرية صمويل هنتجتون عن «صدام الحضارات» منذ أن قدمها أولا فى مقالته الشهيرة فى دورية فورين آفيرزز الأمريكية (عدد صيف ١٩٩٣)، ثم بلورها وطورها فى كتاب :

The Clash of Civilizatioms and che remakimg of world order.

من اهتمام واسع المدى فى مصر والعالم العربى، وما حركته من هجوم وتفنيد للنظرية باعتبارها دعوة لتحريك العداوات والصراعات بين الحضارات بدلا من الحوار والتفاعل بينها، وهو النقد الذى لم يكن فى الواقع باكثرمما لقيته النظرية منذ صدورها من تفنيد فى الولايات المتحدة نفسها والذى جعل مؤرخا هو ويليم ماكنيل يعتبرها «دعوة الى حرب عاليمة ثالثة أكثر من أن تكون وصفه لمستقبل دائم» راجع :

williem mcneill, "Declime of the west?", the new york Review books, january 9,1997.

على الرغم من هذا الاهتمام الواسع، والذى تستحقه بما

تثيره من قضايا وتحمله من أبعاد تتعدى رداءها الثقافي والفكرى الي ما يمكن أن يكون مخططا استراتيجيا يقدمه هنتجتون لأمريكا والغرب، إلا أن ثمة اسهاما فكريا وثقافيا آخر لصمويل هنتجتون، ويحمل نفس الأبعاد الاستراتيجية، لم يلقى القدر الكافى من الاهتمام من النظر والتحليل والذى يصب كما سنرى، فى السياق الفكرى لصمويل هنتجتون وكما تعكسه نظريته عن صدام الحضارات. ونعنى بهذا الاسهام الآخر مقالته التي نشرها أيضا ج دوريه فورين أفيرز تحت عنوان :
The west umique, not universal عدد نوفمبر – ديسمبر ١٩٩٦، pp. 28-45

فى هذا المقال يحذر هنتجتون الغرب من أن يتملكه الوهم بأن العالم يتجه نحو ثقافة عالمية موحدة تسود فيها الثقافة الغربية، ويصف هذا الوهم بأنه «متغطرس، زائف، وخطر: Arrogance, False and dangerous»، ويأتى هذا الوهم من الاعتقاد بأن انتشار السلع الاستهلاكية، الأزياء الغربية، وموسيقى البوب والأفلام والأطعمة الغربية يعنى سيادة الثقافة الغربية واضمحلال الثقافات الأصيلة للمجتمعات غير الغربية، وتصور أن احتساء الكوكولا سوف يجعل الشخص الروسى غربيا تماما مثل تصور أن تناول طبق الشوش اليابانى

سوف يجعل الأمريكي يابانيا. ويؤيد هنتجتون تصوره هذا بأن ثمة مكونات أكثر عمقا وأهمية للثقافة من هذه المظاهر السطحية، ويحدد هذه المكونات أساسا في اللغة والدين والقيم، لذلك فان الأخذ بالمظاهر السطحية للثقافة كما تبدو في المأكل والملبس وجعلها معيارا لانتصار الحضارة الغربية انما يعني استخفافا بقوة الثقافات الأخرى. من هذه الأسس أن تشكل جوهر الثقافات يفرق هنتجتون بين التحديث: -moderniza tion، والتغريب westernization، ويتساءل هل يعني أن أخذ المجتمعات غير الغربية بأدوات وأساليب النمط الغربي تخليها عن ثقافتها الخاصة لكي تحل محلها عناصر الثقافة الغربية، ويرفض هنتجتون هذا الافتراض، ويدلل علي رفضه بشواهد تاريخية من النظم والقادة الذين ظنوا أنه لكي تلحق مجتمعاتهم بالغرب فانه يتعين عليها أن تتخلص من عناصر ثقافتها الأصيلة به وتستبدلها بنمط الثقافة الغربية، ويقدم في هذا مثل بطرس الأكبر في روسيا، وكمال أتاتورك في تركيا، إلا أن محاولتهما، بتعبير هنتجتون، لم تسفر إلا عن «بلدين ممزقين torn countries، غير متأكدين من هويتهما الثقافية»، فضلا عن أن استيراد أدوات الغرب لم تساعد بشكل جوهري عملية التحديث. وعلي النقيض من هذه النماذج يقدم

هنتجتون تجارب أخرى أقدمت على عملية التحديث ولكن مع الاحتفاظ بخصائصها الثقافية، وباشرت هذه العملية وفقا «لروح» هذه الخصائص ومن ثم تفادت عملة «الغربنه»، من هذه التجارب، التجربة اليابانية التى اعتمدت على مفهوم : -wo kem yosei: «الروح اليابانية، والتكنيك الغربى»، والتجربة الصينية وفقاً لمفهوم: tiyomg: «العلم الصينى للمبادئ الأساسية، والعلم الغربى للاستخدام العملى».

وعلى النقيض مما توحى به نظريته عن صدام الحضارات، يقدم هنتجتون فى هذه المقالة نماذج تاريخية للتفاعل الثقافى بين حضارات العالم ويقدم سجل حافل من عمليات الاقتباس من حضارات أخرى لتعزز كل حضارة من فرص بقائها، ولكن دون أن تفقد هويتها وخصائصها الذاتية، فعل الرغم من أن الصين قد تبنت البوذية من الهند، الا أن هذا لم ينتج عنه «تهنيد» الصينى، indienization ، بل على العكس ألى إلى تعيين البوذية، وكيف الصينيون البوذية بما يتحقق Cininfocation مع أهدفهم ومتطلباتهم . كذلك يستشهد هنتجتون بالخبرة الإسلامية في قرون ماضية حين استخدم العرب التراث الصينى لخدمة أهدافهم النفعية، فهذا الوقت الذى استخدموا فيه أشكالاً فنية خاص الا أنهم تجاهلوا ما تعارض فى هذا التراث الهيلينى

مع معتقداتهم ومبادئهم الدينية الإسلامية الأساسية.

واتصالا بخبرة المجتمعات الآسيوية يذكر هنتجتون بأن الآسيويين الشرقيين اليوم يعزون نموهم الاقتصادى النشط لا الى استيرادهم للنمط الغربى وأدواته وانما أساسا لأنهم ظلوا مخلصين ومتمسكين بثقافتهم الخاصة، ويركزون على أنهم لم ينجحوا لأنهم أصبحوا مثل الغرب بل لأنهم ظلوا مختلفين عنه.

وهكذا يتفق هنتجتون مع مفكرين أمريكين وغربيين آخرين مثل بروديل : Brodel الذى وصف سعى حضارة واحدة لكى تضع حدا للتعددية الثقافية كما تجسدت منذ قرون فى حضارات العالم الكبرى بأنه سلوك أشبه بسكون الأطفال، ومثل مايكل هاورد الذى لاحظ «أن الافتراض الشائع لدى الغرب بأن التنوع الثقافى هو ظاهرة تاريخية غريبة سوف تزول بسرعة بفعل نمو الثقافة ذات التوجهات الغربية والتي تشكل قيمنا الأساسية ، لهو أمر ببساطة غير صحيح».

ومن النقاط الجديرة بالتأمل فيما يطرحه هنتجتون، وتؤيدها خبرة مجتمعات غير أوربية (راجع الخبرة الايرانية)، أن الذهاب بعيدا فى عملية التحديث والابتعاد وتجاهل الثقافات الأصيلة قد يؤدى الي «ردة ثقافية» Cultural backlash، فالتبنى المبالغ فيه لمظاهر الثقافة الغربية يدفع هذه المجتمعات

الى الارتداد والاحتماء بأصولها الدينية لرفع مشاعر الغربة والضياع التي تشيعها هذه المظاهر، وقد تأخذ هذه العودة الى التراث أشكالا متطرفة، والواقع أن هنتجتون يتفق فى هذا، وربما يستقى منه – مع أرنولد توينبى، وهو يحلل أشكال وصور استجابات الحضارات وشعوبها لما تواجهه من تحديات وضغوط من حضارات وثقافات أخرى (التحدى والاستجابة) . Challenge and Res ponse

ويبلور هنتجتون تفكيره حول اعتقاد الغرب بسيادة قيمه الثقافية ومؤسساته على حساب القيم والثقافات غير الغربية بأنه اعتقاد «غير أخلاقى»، أملته سيادة القوة الأوروبية والأمريكية فى القرنين ١٩ ، ٢٠ وما حملاه من نشر الحضارة الغربية، الا ان هذا الوضع « قد ولى الى غير رجعة، وتراجعت الهيمنة الأمريكية.. كما أن الغرب لم يعد يمتلك الديناميكية الاقتصادية والديموقراطية الضرورية لفرض ارادته على المجتمعات الأخرى».

والواقع أنه اذا تأملنا تأكيد هنتجتون على الخصائص المميزة والدائمة لثقافات المجتمعات غير الغربية سوف لا نجده يختلف عن تأكيد الثقافات غير الغربية لذاتها ودفاعها وحمايتها لمكوناتها واعتبارها خطوط دفاعها الأولى عند ما تحمله تيارات

«العولمه» من غزو ثقافى وطمس لهويتها الثقافية وأداة للهيمنة الاقتصادية والسياسية، عند هذا الحد سوف نتفق مع ما يطرحه ويؤكده هنتجتون حول خصوصية الثقافات، غير أن الاختلاف معه سيبدأ اذا ما وضعنا ما يطرحه فى سياق نظرية عن صدام الحضارات ودعوته للغرب الاستعداد له وتوقعه أن يكون هو جوهر الصراعات المقبل. فصمويل هنتجتون بتاكيده للمقدمات الثقافية للمجتمعات غير الغربية لا يدافع عن هذه الاثقافات بقدر ما يدعو الغرب أن لا يشعر بالراحة وأن لا يستكين لاعتقاده، أو لوهمه، بأن عناصر حضارته وقيمها قد سادت فى العالم، وأنه بدلا من هذه الركون الى هذا الوهم علي الغرب « أن يتخلى عن وهم العالمية universaliry ، وأن ينمى الدفاع عن قوة تماسكه وحيوية حضارته فى مواجهة حضارات العالم الاخرى».
فى هذا التحدى يلقى هنتجتون المسئولية على ما يجرى فى الولايات المتحدة باكثر مما يحدث فى اوربا، وعلى اختيارها للاتجاهات التي تتجاذبها بقوة وأن تختار منها الاتجاه الذى يجذبها نحو أوربا باعتبار الروابط والقيم والمؤسسات المشتركة التى تجمعها مع اوربا، وفى سبيل تاكيد نقاء هذه القيم المشتركة يدعو هنتجتون الولايات المتحدة الى التحكم فى الهجرة اليها من المجتمعات غير الغربية، والعمل على اذابة من

سمح لهم بالهجرة فى بوتقة الثقافة الغربية وعلي المستوي الأمنى والاشتراكى يدعو هنتجتون الى الاعتراف بمنظمة حلف شمال الاطلنطى باعتبارها المنظمة الأمنية للحضارة الغربية وأن هدفها الأول هو الدفاع عن هذه الحضارة، فى سبيل هذا الهدف يفتح هنتجتون باب الانضمام الي الناتو «الى الدول ذات التاريخ والديانة والثقافة الغربية»، ولكن «ليس الي البلدان كانت تاريخيا اسلامية أو أورثوذكسية..»

على أية حال فان دعوة هنتجتون للغرب أن لا يستريح الى ما يبدو على السطح من سيادة مظاهر نموذجه الحضارى، انما يذكرنا بحوارنا القومى حول تأثيرات العولمة علي هويتنا وخصائصنا الثقافية، فى هذا الحوار ثمة تيارا فكريا له احترامه يدعو الى أن لا ننزعج من العولمة وتأثيراتها السلبية علي ثقافتنا معتمدين فى هذا على ما نمتلكه من مقومات حضارية أصيلة سوف تعصمنا من ما يمكن أن يشكل غزوا أو سيطرة ثقافية. وقد يكون هذا الرأى علي حق، ولكنه فى رأينا ليس على اطلاقه، فلكى تثبت هذه المقومات الثقافية نفسها وتصمد أمام القيادات التي يمكن أن تطمس معالمها، فانها فى حاجة متواصلة الي التجديد واعادة التفسير لكى تتجاوب وتتفاعل مع مستجدات العصر، وفى الوقت الذى تتمسك بثوابتها، أن تتصدى لدعوى

الانكفاء علي الذات والانغلاق الذى يمكن أن يقود، فيما غير مفكر عربى بارز هو الأستاذ ادوارد سعيد الى الضمور والتجمد بل وربما الموت، ولعل ما لا يقل عن ذلك أهمية، وقد يتفوق عليه، هو اليقظة والبحث عن الأسباب الحقيقية فى بنية مجتمع مثل مجتمعنا المصرى لما بدأ يطفو على سطح حياتنا الاجتماعية من نوعيات جديدة من العنف والجريمة والدوافع والعلاقات الاجتماعية المشوهة والتي من معانيها المباشرة تآكل مجموعة القيم والمقومات التي كانت تحمى نسيج المجتمع وتماسكه.

الوسطية ومداخل مصر إلى القرن القادم

فى سياق تتبع المؤرخ البريطانى ارنولد توينبى ١٨٨٩ - ١٩٧٥ للحضارات وتطوراتها وتفاعلاتها توقف توينبى عند حضارة القرن العشرين وتسآل عما سوف يميزها وما سوف يقول عنها مؤرخو المستقبل ويختارونه باعتبار أنه الحدث البارز لهذا القرن ويتصور توينبى أن الحدث الذى سوف يتوقف عنده مؤرخو المستقبل لن يكون من بين هذه الاحداث السياسية والاقتصادية المثيرة والمأساوية التى احتلت عناوين الصحف وشغلت تفكير أبناء هذا العصر مثل الحروب أو الثورات أو ما حدث من مذابح أومجاعات وإنما سيكون ذلك الشىء الذى لا يحوز غالبا على كل وعينا أو يصلح كعنوان للصحف أو تجذب مظاهرة انظارنا لأنها تقع وتبدو على سطح الحياة وتبعد انظارنا فى نفس الوقت عن التحركات الأبطأ وغير الملموسة والتى تعمل تحت السطح وتتغلغل فى الاعماق غير أن هذه التحركات الأعمق والابطأ هى فى الحقيقة ونهاية الامر التى تصنع التاريخ وستبدو ضخمة حين نستعيدها ونتأملها وحين

تكون الاحداث المثيرة والعابرة قد تضاءلت وبدت فى نسبها الحقيقية. بهذه الرؤية اعتقد أرنولد توينبى أن مؤرخى المستقبل سيقولون أن الحدث العظيم فى القرن العشرين هو الأثر الذى تركته الحضارة الغربية على كل المجتمعات التى تعيش فى عالم اليوم وسوف يقولون عن هذا الاثر أنه كان من القوة والانتشار بالدرجة التى حول بها حياة كل ضحاياه من أعلى إلى أسفل ومن الداخل والخارج مؤثرا فى السلوك والنظرة والمشاعر والقصائد للرجال والنساء والاطفال.

واذا كانت الحضارة الغربية تغلغلت وأثرت فى كل مجتمعات عالم اليوم وبالتأثير الذى وصفه توينبى فما هى أبرز معالم هذه الحضارة ، ما هى أهم خصائصها وأدواتها التى أحدثت بها هذا التأثير العالمى الذى لم يسلم منه بمستوى أو تأخر مجتمعا من المجتمعات .

لقد شهد القرن العشرون تطورا تراكميا لما بدأه الغرب على مدى القرون الثلاث الأخيرة فى مجالين حاسمين وهما الثورة الصناعية والثورة التكنولوجية ومع مستويات الرخاء والتقدم المادى الذى حققته فإن القوانين التى أصبحت تنظم حياة البشر وعلاقاتهم أصبحت هى قوانين المنافسة والأنانية والمصلحة الذاتية والتى كانت تحول مجتمعاتها إلى مجموعة من

الباحثين عن المصلحة الذاتية وتفرق بين الافراد الذين أصبح مثلهم الأعلى هو الربح والكسب المادي أما الثورة الثانية وتقدمها المتسارع الذى شهدها القرن العشرون وهى الثورة التكنولوجية فقد خلقت معبودا آخر تصور معها الإنسان الغربى أنه أصبح سيد الكون وبشكل خلق بيئة مصطنعة محملة بالاخطار علي الروح البشرية وتبين أن السيد الذى انتصر كان التكنولوجيا وليس الانسان نفسه الذى لم يفعل إلا استبداله سيدا بآخر وإن كان السيد الجديد أكثر غطرسة واستبدادا من الآخر وأصبح كابوس الانسان الغربى هو كيف يكيف نفسه مع التغير والغليان الثورى السريع الناجم عن تفجر العلم والتكنولوجيا ومع القلق النفسى وما يحدثه فى شخصية الانسان الذى يشعر بالتضاؤل أمام أدواتها وبحيث أن ما سمى بالعالم الجديد الشجاع قد جرد الإنسان من شخصيته وكيانه الذاتى وربما فسر هذا فى جانب منه حركات العنف بين الشباب والطبقات الفقيرة.

كانت هذه الاوضاع التى سادت القرن العشرين وسيطرة القوة المادية عليها وتراجع القيم الروحية والاخلاقية هى التى دفعت عددا من المفكرين مثل أندريه مالرو وهو يتأمل «الوضع البشرى» فى القرن العشرين أن يأمل فى أن نستطيع البشرية

فى القرن المقبل أن تستعيد توازنها وتعيد الاعتبار للقيم الروحية والاخلاقية. فهل هذا الامل ممكن وهل تتنبىء مؤشرات القرن المقبل والقوى التى ستتحكم فى حياة البشر فيه دولا وافراد ومجتمعات بإمكان تحقيقه. نخشى أن يكون الأمر على غير هذا النحو لا على مستوى الدول أو فى داخل كل مجتمع وفى علاقات أفراده وطبقاته.

فحقيقة أن نمط المواجهات العسكرية الكبرى والتى شهدها القرن العشرون فى حربين عالميتين سوف يتراجع غير أن اقتتال الدول بالسلاح سجل محله صراعها فى ساحات الاقتصاد والتجارة والمال حيث يتحول اصدقاء وحلفاء الامس إلى خصوم واعداء اليوم وحيث تتحول أساليب التجسس بحثا عن الاسرار العسكرية إلى التجسس على الاسرار الاقتصادية والمقومات التكنولوجية للتقدم الاقتصادى ويحدث هذا على مستوى الدول مثلما يحدث داخل كل مجتمع وسط سيطرة يوتوبيا السوق بآلياته وقوانينه بما يتضمنها من امكانية سحق الآخرين من أجل الكسب والتفوق والسيطرة المادية وسيتضاعف هذا الاثر فى المجتمعات ذات الهياكل الاقتصادية والاجتماعية الضعيفة حيث تضاؤل الفرص وحدة التنافس حولها.

وعلى المستوى العلمي والثقافي تنبىء الفتوحات العلمية والتكنولوجية عن تطورات تصيب الانسان بالدوار من حيث ما ستحدثه من نقلات في علاقات البشر الاجتماعية ومن أبرزها إمكانيات الهندسة الوراثية وصناعة ونقل أعضاء الجسم البشرى كل هذا من شأنه أن يزيد من تأكيد مفهوم العلم وقوانينه كإله ومعبود جديد يتصل بإمكانيات التكنولوجيا الجديدة على المستوى الثقافي ما سوف تحدثه الاقمار والقنوات الفضائية والانترنت فى اختراق ثقافات وانماط من حياة وسلوك وقيم ومجتمعات الغرب المتقدم وهى مع ما ستحمله من ثقافة انسانية راقية ستحمل معها ايضا نتاجا متحللا من كل القيم الاخلاقية المتعارف عليها.

فما العمل امام مجتمع مثل المجتمع المصرى وهو يواجه مثل هذا التطور ومعضلاته وحيث لن يستطيع أن ينعزل أو ينسحب من تياره، كيف يمكنه أن يكون جزءا منه ويتفاعل معه مستفيدا من جوانبه الايجابية الضرورية لعملية بنائه وتقدمه الشامل، وأن يتحصن فى نفس الوقت ضد سلبياته المعاكسة والتى يمكن أن تهدد بنيته ونسيجه الاجتماعى والثقافى ؟

قد يبدو هذا خيارا صعبا بل ومثاليا ففى واقع الحياة يصعب على المجتمعات والافراد أن يحصلوا على كل شيء وأن

يكون لهم حرية الانتقاء والاختيار ومع هذا فإنه فى الحالة المصرية ما يشجع أن مصر وعبر عصورها المختلفة خاصية وصفها مفكرنا الراحل جمال حمدان بملكة الحد الوسط واعتبرها المدخل لشخصية مصر الحضارية فى مواجهتها للجميع والتوفيق بين الماضى والحاضر والعالمية وبين الاصالة والمعاصرة.

أن تشبث مصر بهذه الوسطية واستلهامها هى التى ستمكنها من أن تصوغ خطواتها وسياساتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بشكل متوازن فحيث تدرك أن اقتصادها لا يمكن إلا أن يكون جزءا من اقتصاد العالم والقوانين والقواعد التى تحكمه فإن وسطيتها ستجعلها تعى كذلك أهمية الضمير والبعد الاجتماعى ومراعاة الفئات الاجتماعية الضعيفة وحمايتها من أن تسحقها قوانين السوق الصارمة المطلقة، وثقافيا فإن تمسك مصر بطبيعتها الوسطية سوف تجعلها تتفتح على تيارات العصر الثقافية وتستوعب إنتاجها ذا الجوهر الانسانى الحافز على التقدم والرقى، وأن تلفظ البثور المشوهة والمتحللة لهذه التيارات . غير أنه لكى تنجح مصر فى ذلك فإن عليها أن تحافظ وأن تطور مخزونها الثقافى الايجابى الرصين، وأن تتخلص مما بدا يطفو بالفعل على السطح من اشكال الثقافة

والفن المبتذل الرخيص وأهم من ذلك أن نواصل بثبات رسالة التنوير وأن نخرج بها من الدائرة التى انحصرت فيها حتى الآن دائرة الصفوة والمتعلمين والمثقفين، إلى القاعدة العريضة للمجتمع المصرى الأمر الذى لا نتصوره سهلا أو ممكنا دون أن تمحو وصمة الالأمية التى ما زالت تلحق بنصف أبناء هذا المجتمع.

المحتوى

القسم الأول

القسم الثاني

القسم الثالث

السفير الدكتور السيد أمين شلبى

- من مواليد ١٩٣٦

أولا:

- حصل على الدكتوراة فى العلوم السياسية من جامعة القاهرة ١٩٨٠.

ثانيا:

- التحق بالسلك الدبلوماسى عام ١٩٦١.
- ساهم فى تأسيس معهد الدراسات الدبلوماسية عند انشائه عام ١٩٦٦، وعمل فى ادارته حتى عام ١٩٦٩، ثم نائبا لمديره (١٩٨٦-١٩٨٨)
- وعمل فى سفارات مصر فى : براج. موسكو. لاجوس، ووزيرا مفوضا فى سفارة مصر فى واشنطن (١٩٨٢-١٩٨٦)، ثم سفيرا لمصر فى النرويج (١٩٩٠ - ١٩٩٤). حاصل على وسام الاستحقاق النرويجى.
- عمل مديراً لإدارة التخطيط السياسى بوزارة الخارجية (١٩٩٤-١٩٩٦).

ثالثا:

صدر له :

١ - التنظيم الدولى فى مفترق الطرق.

٢ - هنرى كيسنجر. حياته وفكره.

٣ - الوفاق الأمريكى السوفيتى ١٩٦٣ - ١٩٧٦ (الهيئة العامة للكتاب).

٤ - قراءة جديدة للحرب الباردة . دار المعارف.

٥ - الدبلوماسية المعاصرة. عالم الكتب.
٦ - من الحرب الباردة الى البحث عن نظام دولى جديد (الهيئة العامة للكتاب).
٧ - العلاقات الأمريكية / المصرية ١٩٤٦ - ١٩٥٦ (مترجم). (مكتبة مدبولى)/
٨ - ما بعد الحرب الباردة: قضايا واشكاليات. مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية. الاهرام.
٩ - الصين وروسيا: من الخصومة الى المشاركة الاستراتيجية. مركز الدراسات الآسيوية. كلية الاقتصاد والعلوم السياسية. جامعة القاهرة.
١٠ - جورج كينان: الدبلوماسى المؤرخ. الهيئة العامة للكتاب.

- نشر العديد من الدراسات والمقالات فى المجلات والدوريات المتخصصة فى مصر والخارج.

كما شارك فى ندوات ومؤتمرات مصرية وأجنبية، وحاضر فى : معهد الدراسات الدبلوماسية، واكاديمية ناصر العسكرية ، وكلية الاقتصاد والعلوم السياسية.

- عضو المجلس الأعلى للثقافة (لجنة العلوم السياسية).

رقم الايداع : ٩٨/٨٩٧٢

شركة الأمل للطباعة والنشر